٧- كتاب آداب السفر

١٦٦- باب استحباب الخروج يوم الخميس، واستحبابه أول النهار

الحديث رقم (٩٥٧)

٩٥٧- عن كعب بن مالك رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الخَمِيس، وَكَانَ يُحِبُّ أنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيس. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

وفي رواية في الصحيحين[2]: لقَلَّمَا كَانَ رسولُ الله ﷺ يَخْرُجُ إلاَّ فِي يَوْمِ الخَمِيسِ.

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل الماضي (كان) يشير إلى أن الفعل صار عادة - غالباً -، وهو الخروج للغزو، ونحوه يوم الخميس، والتعبير بالمحبة يشير إلى أنه اختيار قلبي للرسول ﷺ، وهو سنة لأمته لمن كان له الاختيار في تحديد موعد الخروج، وقد ساق الخبر كعب بن مالك رضي الله عنه مؤكداً بأكثر من مؤكد تمهيداً للخبر، وليدخله على النفوس دخول الأنوس مع استشعار منه لعظمة من يحدث عنه، والرواية الثانية جاءت في ثوب القصر لتحصر حكم خروجه باستثناء القليل في يوم الخميس.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب أن يكون سفره يوم الخميس فإن فاته فيوم الاثنين وأن يكون باكرًا)[3].

المضامين الدعوية[4]

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٥٠ من حديث هشام بن يوسف، عن معمر، كما في الجمع بين الصحيحين للحميدي ٤٤٨/١ رقم ٧١٢.

هذا الحديث أورده الحميدي في جمعه في المتفق عليه، ولأجل ذلك عزاه المؤلف إلى الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٤٩ من حديث يونس، عن الزهريّ. ولم يخرجه مسلم بهذا اللفظ.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٨٨/٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٢٥.

وانظر كذلك: فتح الباري، ابن حجر ١١٣/٦-١١٥.

(٤) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١).

الحديث رقم (٩٥٨)

٩٥٨- وعن صخر بن وَداعَةَ الغامِديِّ الصحابيِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)) وَكَانَ إذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشاً بَعَثَهُمْ مِنْ أوَّلِ النَّهَارِ. وَكَانَ صَخْرٌ[1] تَاجِراً، وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ[2] أوَّلَ النَّهَارِ، فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ. رواه أَبُو داود والترمذيُّ[3]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

صخر بن وداعة الغامِدِيّ: وهو صخر بن وداعة الغامدي، وغامِد بطن من الأزد ويقال صخر بن وديعة، وهو معدود في أهل الحجاز، فهو غامدي، أَزَديّ حجازيّ، سَكَنَ الطائف، وله صحبة، ولا يعرف لصخر بن وداعة غير حديث واحد وهو حديث دعاء الرسول ﷺ للأمة في البكور، وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان إذا بعث تُجاره بعثهم أول النهار، فأثرى وكثر ماله[4].

غريب الألفاظ:

بكورها: أول نهارها[5].

---

(١) عندهما زيادة: (رجلاً).

(٢) عند أبي داود زيادة: (من).

(٣) أخرجه أبو داود واللفظ له ٢٦٠٦، والترمذي ١٢١٢، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٤٧٥٤، وقال عبد الحق في الأحكام الوسطى ٢٨/٣: حديثٌ حسنٌ، وقال الحافظ في الفتح ٢١٢/٧: وقد اعتنى بعض الحفاظ بجمع طرقه، فبلغ عدد من جاء عنه من الصحابة نحو العشرين نفسًا. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥١٧.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٤٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٤/٣، ١٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٦٠٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٤٣/٣، ٤٤٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٢٠٥/٢، والسندي ١٧١/٢٤.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ك ر).

السرية: هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة[١].

الشرح الأدبي

دعوة الرسول ﷺ إلى البكور حسياً هي دعوة بالمضمون إلى التبكير، والمبادرة في كل أمورها بما يجعلها في صدارة الأمم، ولو تأملت هذا التوجيه لرأيت فيه دعوة للأمة إلى النشاط، وترك الكسل، ومباشرة الأسباب التي تحقق لها الريادة في كل مجال، وإلا صارت ذيلا في ركاب الأمم تنتظر طعامها من عدوها، وليس هناك أكثر من هذا ذلا لأمة، ودعاء الرسول ﷺ (اللهم) دعاء خاشع خاضع ذليل متهالك في الخضوع لربه مما يدلل على حرصه على الإجابة للأمة النشيطة التي نسبها لنفسه في قوله (لأمتي) والظرفية التي يدل عليها (في) تشير إلى أن البكور صار بدعوة الرسول ﷺ محلا للبركة، وإضافة البكور إليهم توجيه للبركة حتى تحط في رحالهم في كل بكور.

فقه الحديث

أشار هذا الحديث إلى استحباب التبكير في الأسفار والأعمال وغيرهما، ودليل ذلك ما جاء في الحديث من دعوة النبي ﷺ بالبركة في التبكير فقال: "اللهم بارك لأمتي في بكورها"[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لأمته بالبركة في بكورها.

ثانياً: من آداب المدعو: التبكير أول النهار.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاستجابة لما أرشد إليه النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لأمته بالبركة في بكورها:

هذا واضح من قوله ﷺ "اللهم بارك لأمتي في بكورها" فهذا الحديث يبين

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ر ى).

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٢٦٨، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٥/٤٠.

حرص الرسول ﷺ على أمته، وشفقته ورحمته بها، ودعاءه لها بالبركة والخير والسعادة، ويبين لنا أفضل أوقات الأعمال، وأنه في التبكير، ذلك لأمور عديدة: منها فضل الوقت، لأن الجو فيه غير حار، وفيه مميزات عديدة، ويبين لنا أن المسلم في هذا الوقت يكون نشطاً قوياً ومتفاعلاً، ويبين لنا استغلال الوقت صباح اليوم إلى مسائه، ويبين لنا بركة هذا الوقت. وقال ابن عثيمين: (دعاء النبي ﷺ أن يبارك الله في أول النهار فيه لأمته، لأنه مستقبل العمل، فإن النهار كما قال الله تعالى معاش ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[1] فإن استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة وهذا شيء مشاهد، أن الإنسان إذا عمل في أول النهار، وجد في عمله بركة، لكن وللأسف أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى، فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة، وقدقال العامة: أمير النهار أوله، يعني أن أول النهار هو الذي يتركز عليه العمل، وكان صخر يبعث بتجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله من أجل دعاء النبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها)[2].

ونقل الطيبي القول بأن: (المسافرة سُنّة في أول النهار، وكان صخر هذا يراعي هذه السُنّة، وكان تاجراً يبعث ماله في أول النهار للتجارة، فكثر ماله ببركة مراعاة السنة، لأن دعاء النبي ﷺ مقبول لا محالة)[3].

ثانياً- من آداب المدعو: التبكير أول النهار:

هذا واضح من فعل صخر الغامدي رضي الله عنه فقد كان يبعث تجارته أول النهار، وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر ما يستحب للمرء أن يكون إنشاؤه الحرب وابتداؤه الأمور في الأسباب بالغدوات تبركاً بدعاء المصطفى ﷺ فيه[4].

---

(١) سورة النبأ، آية: ١١.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٥/٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٣٨/٧، وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٢١٧/١-١٢١٨.

(٤) صحيح ابن حبان ٦٣/١١ رقم ٤٧٥٥.

قال ابن العربي: (يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن ما بعد صلاة الصبح وقت يقسم الله فيه الرزق بين العباد، وثبت أنه وقت ينادي فيه الملك: ((اللَّهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وأَعْطِ مُمْسِكاً تلفاً))[1]. وهو وقت ابتداء الحرص ونشاط النفس وراحة البدن وصفاء الخاطر، فيقسم لأجل ذلك كله وأمثاله)[2].

وقال ابن مفلح المقدسي الحنبلي: (وظاهر ما ذكره الأصحاب في هذا الفصل والذي قبله، أن نوم النهار لا يكره شرعاً لعدم دليل الكراهة إلا بعد العصر، وأنه تستحب القائلة، والقائلة: النوم في الظهيرة، ذكره أهل اللغة. وظاهره شتاءً وصيفاً، وإن كان الصيف أولى لها ... وجزم بعض متأخري الأصحاب بكراهة النوم بعد الفجر، وعن بعض التابعين أن الأرض تعج من نوم العالم بعد صلاة الفجر، ويروى أن عمر رضي الله عنه لما قدم الشام رأى معاوية حمل اللحم، فقال: يا معاوية ما هذا، لعلك تنام نومة الضحى؟ فقال: يا أمير المؤمنين علمني مما علمك الله، ورأى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ابناً له نائماً نومة الضحى فقال له: قم أتنام الساعة التي تقسم فيها الأرزاق؟ وذلك لأنه وقت طلب الرزق والسعي فيه شرعاً وعرفاً عند العقلاء.

وقال علي رضي الله عنه: من الجهل النوم في أول النهار، والضحك من غير عجب، والقائلة تزيد العقل، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: النوم على ثلاثة أوجه: نوم خُرق ونوم خَلَق ونوم حُمق، فأما النوم الخُرْق فنومة الضحى يقضي الناس حوائجهم وهو نائم، وأما الخلق فنوم القائلة نصف النهار، وأما نوم الحمق فنوم حين تحضر الصلاة)[3].

(لقد أطلقتُ هذه التسمية "الساعات المباركات" على ساعات الصباح الأولى مستحضراً دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته بالبركة خلال أوقات الصباح الباكر، حيث قال:

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠ من حديث أبي هريرة وأوله: "ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان...".

(٢) عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي لابن العربي، ٢١٥/٥، ٢١٦، ط/ المطبعة الأزهرية: ١٣٥٠هـ، نقلاً عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١١٥/١٠.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١٤٧/٣-١٤٨.

"اللهم بارك لأمتي في بكورها"، وإننا فعلاً نجد بركة اليوم كله حينما نغتنم هذه الساعات بالعمل، فتطيب أنفسنا وننشط طوال نهارنا، خلافاً لحالنا حينما نمضي تلك الساعات في النوم، وهذا مصداق لقول الرسول ﷺ فيمن بدأ نشاط يومه بصلاة الفجر ومن فاتته: ((يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاث عُقدٍ، يَضربُ على مكان كلِّ عُقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُدْ، فإنِ استيقَظَ فذكرَ اللّهَ انحلَّتْ عقدةٌ. فإن توضَّأَ انحلَّتْ عقدةٌ، فإن صلَّى انحلَّتْ عقدةٌ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفسِ، وإلاَّ أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ))[1].

والفارق عظيم بين من اغتنم بركة يومه وبين من ضيعها، فإن الأول نتيجته نشاط وإنتاج، والثاني نتيجته كسل وفشل، يقول الشيخ القرضاوي معلقاً على هذا الحديث: (وما أعظم الفارق بين المسلم الذي انحلت عقد الشيطان كلها من نفسه، فاستقبل يومه من الصباح الباكر بالذكر والطهارة والصلاة، وانطلق إلى معترك الحياة، نشيط الجسم، طيب النفس، منشرح الصدر، وبين من ظلت عقد الشيطان فوق رأسه، فأصبح نؤوم الضحى، بطيء الخطا، خبيث النفس، ثقيل الجسم، كسلان)[2].

أي الساعات هي؟

قد تتساءل أي ساعات هي تلك الساعات المباركات وكم عددها، أهي من الساعة السادسة حتى التاسعة صباحاً؟ أم من السابعة حتى العاشرة؟ أم من الخامسة حتى السابعة؟ أعتقد أنها ابتداءً من وقت الفجر أو من قبيل وقته بقليل، وقد تكون لقرابة ثلاث ساعات، هذا حسب تجربتي الشخصية، فإن الذهن خلالها صاف، وتنعدم المقاطعات خلال هذه الفترة، وتسبق انغماس الإنسان في معيشته اليومية، من وظيفة أو عمل ما.

لم يتحدّث المسلمون فقط بأهمية هذه الساعات، بل هي أيضاً مبدأ عالمي مهم في علم إدارة الوقت أُطلق عليها "وقت الذروة"، فإن للإنسان ما يسمى بدورة الطاقة

---

(١) أخرجه البخاري ١١٤٢، ومسلم ٧٧٦.

(٢) الوقت هو حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ١٣.

النموذجية التي تتغير حسب الوقت خلال اليوم، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر، وقد ارتأى معهد فرنكلن للتدريب الإداري قياس الطاقة البشرية منذ الساعة الثامنة صباحاً، وهذا أمر أراه خطأ ويجب أن يكون منذ الخامسة أو السادسة صباحاً، وأعتقد أنه لو قاس هذا المعهد الطاقة البشرية من قبل الساعة الثامنة بساعتين، لوجدها أكبر مما هي عليه عندها، وقد تنبّه لهذا صاحب كتاب العادات العشر حيث أطلق عبارة "الساعات السحرية" على أنها من الخامسة إلى الثامنة صباحاً بالنسبة له، واشترط أن تكون تلك الساعات خاصة بالشخص وحده، وبعيدة عن كل المقاطعات، وخارجة عن نطاق الأعمال اليومية الروتينية، ذكر "ماكنزي" حاجة كل إنسان إلى ساعة أو ساعات هدوء مطلق لا يتخلله أي مقاطعة، قد تحدد في أي وقت مناسب حسب الشخص، لكنها الأفضل في أبكر ساعات الصباح، وأطلق عليها اسم "الساعةالهادئة".

وحينما أختار أن وقت الذروة، أو الساعات المباركات أو الساعات السحرية - حسب اختلاف تسميتها- تبتدئ من الفجر، فهذا يعني أن نفرغها لأهم أولويات حياتنا، فنختار أهم الأعمال والمشاريع وأكثرها تطلباً لحضور الذهن وصفائه، قبل البدء بروتين العمل خلال اليوم، وأن ذلك يتطلب استعداداً مسبقاً لاستغلال اليوم من أوله، وذلك بأن ينام الفرد مبكراً مع استحضار آداب النوم، داعياً الله بالأذكار المأثورة قبل نومه، مستحضراً نية صادقة للاستيقاظ لصلاة الفجر، وليستعن بما ينبهه للاستيقاظ قبيل الفجر، عسى الله أن يرزقه قيام ركعتين، طالباً من الله العون والتسديد، وهذا تحضير لاستغلال الساعات المباركات واليوم كله. ومن أجل استمرارية اغتنام الساعات المباركات، أرى أنّه من الضروري المحافظة على قيلولة يومية لقرابة نصف ساعة إلى ساعة واحدة والله أعلم.

وإن هذا العمل المتواضع الذي تقرؤه مثال على ذلك، حيث كان معظم إنتاجه خلال الساعات المباركات، فلقد أخذت على عاتقي كتابة صفحات في علم إدارة الوقت لشعوري بأهميته لشباب هذه الأمة والعاملين لدينه، ولقد ضاق وقتي تماماً لهذا العمل،

فعزمت على تفريغ تلك الساعات للعمل عليه، فكنت أكتب ما تقرأ بُعيد صلاة الفجر ولقرابة ساعتين أو ثلاث، فكان ذلك في الصيف منذ الساعة الخامسة تقريباً حتى الثامنة، وخلال الشتاء منذ السابعة حتى التاسعة، وذلك لصفاء ذهني آنذاك، ولانعدام وجود أي وقت آخر أتفرغ خلاله من جميع المشاغل اليومية، ولانعدام المقاطعات خلال هذه الفترة، وصدق عبدالفتاح أبو غدة حينما ذكر أنه "من الأعمال العلمية ما لا يكتمل حصوله على وجهه الأتم إلا في الأوقات التي تصفو فيها الأذهان، وتنشط فيها القرائح والأفهام، وتكثر فيها البركات والنفحات، كساعات الأسحار والفجر والصباح، وساعات هدأة الليل والفراغ التام والسكون الكامل للمكان"[(1)][(2)].

ثالثاً- من آداب المدعو: الاستجابة لما أرشد إليه النبي ﷺ:

هذا واضحٌ من فعل صخر بن وداعة الغامدي رضي الله عنه لما رأى النبي ﷺ إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار، فكان صخرٌ يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله.

ومن هذا القبيل ما فعله النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند في أيام عمر بن الخطاب، فقد قال جبير بن حية: ((وكانَ النعمان رَجُلا بَكّاءً، فقالَ: قدْ كانَ اللَّهُ جلَّ وعلا يُشْهِدُكَ أمثالَها فلا يُخْزيك ولا يعري موقفَكَ، وإنَّهُ واللَّهِ ما مَنَعَني أَن أُناجِزَهم إلا لِشَيْءٍ شَهِدْتُهُ مِنْ رسولِ اللَّهِ، إنَّ رسول الله، كانَ إذا غَزَا، فلَمْ يُقاتِلْ أولَ النهارِ لَمْ يَعْجَلْ حتى تَحْضُرَ الصلواتُ وتَهُبَّ الأَرواحُ ويَطيبَ القِتالُ، ثُمَّ قالَ النعمانُ: اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ أنْ تَقَرَّ عَيْني اليومَ بفَتْحٍ يكونُ فيهِ عِزُّ الإِسلامِ وأهلِه، وذُلُّ الكفرِ وأهلِه، ثُمَّ اختِمْ لي على إثْرِ ذلكَ بالشهادةِ، ثُمَّ قالَ: أَمِّنُوا يرحمُكُمُ اللَّهُ، فأَمَّنَّا، وبكى وبَكَيْنا. ثُمَّ قالَ النُّعمانُ: إني هازٌّ لِوائي، فَتَيَسَّرُوا للسِّلاحِ، ثُمَّ هازُّهُ الثانيةَ، فكونُوا مُتَيَسِّرينَ لِقتالِ عَدُوِّكُمْ بإزائهِم، فإذا هَزَزْتُه الثالثةَ، فليَحْمِلْ كلُّ قومٍ على مَنْ يَليهِمْ مِنْ

---

(1) قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ط/٥، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ص ١٠٠.

(2) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨-٤١١.

عَدُوِّكُمْ على بركةِ اللَّهِ، قالَ: فَلَمَّا حَضَرَتِ الصلاةُ وهَبَّتِ الأَرْواحُ، كَبَّر وكَبَّرنا، وقالَ: رِيحُ الفَتْحِ واللَّهِ إنْ شاءَ اللَّهُ، وإنِّي لأَرْجُو أَنْ يَستجيبَ اللَّهُ لي وأنْ يَفتَحَ عَلَيْنَا، فَهَزَّ اللِّواءَ، فَتَيَسَّرُوا، ثُمَّ هَزَّه الثَّانيةَ، ثم هزَّه الثالثةَ، فَحَمَلْنا جَميعاً كُلُّ قومٍ على مَنْ يَليهِمْ، وقالَ النعمانُ: إنْ أنا أُصِبْتُ، فَعَلَى الناسِ حذيفةُ بنُ اليمانِ، فإنْ أُصِيبَ حذيفةُ ففلانٌ، فإنْ أُصِيبَ فلانٌ ففلانٌ، حتى عَدَّ سبعةً آخِرُهُمْ المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ، قالَ جبير: فواللَّهِ ما عَلِمْتُ مِنَ المسلمينَ أحَداً يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى أهلهِ حتى يُقْتَلَ أو يَظْفَرَ، وثَبَتُوا لنا، فَلَمْ نَسمَعْ إلا وَقْعَ الحديدِ على الحديدِ، حَتَّى أُصيبَ في المُسلمين مُصابةٌ عظيمةٌ، فَلَمَّا رَأَوْا صَبْرَنا، ورَأَوْنا لا نُريد أن نَرْجِعَ، انهزَمُوا، فَجَعَلَ يَقَعُ الرجلُ فيقعُ عليهِ سَبْعَةٌ في قِرانٍ فَيُقْتَلُونَ جميعاً وجعلَ يَعْقِرُهُمْ حَسَكُ الحَديدِ[1] خَلْفَهُمْ. فقالَ النعمانُ: قَدِّمُوا اللواءَ فَجَعَلْنَا نُقدمُ اللواءَ فنقتلُهمْ ونضرِبُهمْ، فَلَمَّا رَأَى النعمانُ أَنَّ اللَّهَ قَدِ استجابَ لَهُ ورَأَى الفَتْحَ جاءَتْهُ نُشَّابةٌ[2]، فأصابت خاصِرَتَهُ فَقَتَلَتْهُ، فجاءَ أخوهُ مَعْقِلُ بنُ مُقَرِّنٍ، فَسَجَّى عليهِ ثوباً، وأَخَذَ اللِّواءَ فَتَقَدَّمَ به، ثمَّ قالَ: تَقَدَّمُوا رَحِمَكُم اللَّهُ، فجعلنا نتقدَّمُ فنهزِمُهم ونقتلُهُمْ، فلما فَرَغْنا واجْتمعَ الناسُ، قالوا: أينَ الأَميرُ؟ فقالَ مَعْقِلٌ: هذا أَميرُكُمْ قد أَقَرَّ اللَّهُ عَينَهُ بالفتحِ وخَتَمَ لهُ بالشهادةِ، فبايعَ الناسُ حذيفةَ بنَ اليَمانِ.

قال: وكان عُمَرَ بالمدينةِ يدعو اللَّهَ وينتظرُ مِثْلَ صيحةِ الحُبْلَى، فكَتَبَ حُذيفةُ إلى عُمَرَ بالفتحِ مَعَ رَجُلٍ مِنَ المسلمين، فَلَمَّا قَدِمَ عليهِ، قالَ: أَبْشِرْ يا أميرَ المؤمنينَ بفَتْحٍ أعزَّ اللَّهُ فيهِ الإِسلامَ وأهلَهُ، وأذلَّ فيهِ الشِّرْكَ وأهلَهُ، وقال: النُّعمانُ بَعَثَكَ؟ قالَ: احْتَسِبِ النعمانَ يا أميرَ المُؤمنينَ، فَبَكَى عُمَرُ واسترجَعَ، وقالَ: ومَنْ ويحكَ؟ فقالَ: فُلانٌ وفلانٌ وفلانٌ حتى عَدَّ ناساً، ثمَّ قالَ: وآخرينَ يا أميرَ المؤمنينَ لا تَعْرِفُهُمْ. فَقَالَ عُمَرُ وهو يَبْكي: لا يَضُرُّهُمْ أنْ لا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ لكنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهمْ))[3].

---

(١) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل، والحسك من الحديد: ما يعمل على مثال الحسك، كان يلقى حول العسكر ويبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح س ك).

(٢) النُّشَّاب: النَّبل، واحدته نشابة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ش ب).

(٣) أخرجه ابن حبان ٤٧٥٦ مطولاً وقال محققه: إسناده قوي.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على اغتنام الأيام والساعات المباركات:

لقد لفت النبي ﷺ في حديثي الباب الأنظار إلى اختيار واغتنام الأيام المباركة الفاضلة المناسبة للأعمال المراد الإتيان بها كالسفر يوم الخميس، كما جاء في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ»، كذلك وجه الأنظار إلى استغلال الأوقات المباركة، وذلك من خلال دعائه بالبركة في البكور حيث دعا النبي ﷺ لأمته أن يبارك الله لهم في أول النهار، لما في ذلك من نهوضهم لصلاة الفجر واغتنامهم اعتدال الجو وقربهم من الراحة واتساع الوقت أمامهم للعمل، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

إن اغتنام الأوقات الفاضلة المباركة له أثره الإيجابي على العملية التربوية والتعليمية كأول النهار والتبكير في ذلك لما تتميز هذه الأوقات بحضور الذهن وصفائه لأن "من الأعمال العلمية ما لا يكتمل حصوله على وجهه الأتم إلا في الأوقات التي تصفو فيها الأذهان وتنشط فيها القرائح والأفهام وتكثر فيها البركات والنفحات كساعات الأسحار والفجر والصباح وساعات هدأة الليل والفراغ التام والسكون الكامل للمكان"(١).

إن للإنسان ما يسمى بدورة الطاقة النموذجية التي تتغير حسب الوقت خلال اليوم، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر(٢).

فينبغي على المسلم إذا أراد أن يبارك له في عمره أن يسير على هدي النبي ﷺ في اغتنام الأوقات المباركة ويحرص على المبادرة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة، ويتطلب ذلك أن يستيقظ المسلم مبكراً وينام مبكراً.

---

(١) انظر: قيمة الوقت عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة ص ١٠٠.

(٢) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨- ٤١١.

ليبدأ يوم المسلم من مطلع الفجر أو على الأقل قبل مشرق الشمس وبهذا يتلقى الصباح طاهراً نقياً قبل أن تلوثه أنفاس العصاة الذين لا يفيقون من نومهم إلا إذا علت الشمس وأضحى النهار.

وهنا يستقبل المسلم يومه من البكور الذي دعا الرسول ﷺ لأمته بالبركة فيه[1]، كما جاء في حديث صخر بن وداعة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

ثانياً- التربية بالدعاء:

ورد استخدام الدعاء كأسلوب تربوي في حث النبي ﷺ في دعائه للأمة بالبركة في البكور، فلم يرشد إلى التبكير كأن يقول بكروا أو عليكم بالبكور مثلاً، وإنما دعا لأمته أن يبارك الله تعالى في بكورها قائلاً «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». زيادة في لفت الأنظارُ وإثارة الانتباه، وتأكيداً لحلول البركة في البكور إذ أن دعاء الرسول ﷺ مستجاب.

وفي الحديث إرشاد للمعلم والمربي أن يركز في توجيهاته التربوية على بيان أهمية وفضل البكور، وأن يبرز ذلك من خلال تخصيص النبي ﷺ للبكور ودعائه لأمته أن يُبارك لها في بكورها مما يعمل على إثارة روح التنافس المحمود في المسارعة في البكور.

إن للدعاء أثره التربوي الذي لا يُنكر، ومن دلائل ذلك:

- أن الدعاء ثمرة المعرفة بمنهج القرآن وتصوره عن الكون، كما أن الدعاء يشعر الإنسان بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء، ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل إلى طغيانها واعتدائها.
- كما أن في الدعاء تذكيراً للنفس بحقيقة فقرها إلى الله وصلتها به.
- كما أن الدعاء هو سبيل القوة الحقة فلا يقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع، وفقدان السند المُعِين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي

(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥، ٢٦.

على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلق والصرع والجنون، رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة.

إن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته له وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فهيا القوة الحقة والعزم والثقة والرضاء[1].

ثالثاً- التربية بالممارسة العملية:

من البديهي في عالم التربية أن التعليم بالممارسة العملية أوقع في النفس وأدعى إلى ترسيخ المعاني وقرارها في القلب والذاكرة، وكما أن التعليم التطبيقي والأسلوب العملي يجعل تصور الطالب للأمور التي يتعلمها أوسَع تفصيلاً وأعمقَ أثراً في نفسه وأقرب إلى الفائدة في الحياة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه بالأساليب المتنوعة ومنها التعليم بالممارسة العملية، وقد بدا ذلك واضحاً جلياً في خروجه وسفره يوم الخميس فلم يقتصر الأمر على مجرد التوجيه أو الإرشاد، وإنما تعدى ذلك إلى الممارسة الفعلية، كما أخبرنا بذلك كعب بن مالك رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ».

وفي ذلك إرشاد إلى التبكير بالممارسة العملية كما في حديث صخر بن وداعة الغامدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثه من أول النهار، وتبعه ذلك الصحابة رضي الله عنهم وأولهم في ذلك راوي الحديث: «وكان صخر رجلاً تاجراً فكان يبعث تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله»، وذلك تطبيق عملي من صخر بن وداعة رضي الله عنه وتنفيذ لوصية رسول الله ﷺ فكانت الثمرة بتوفيق الله تعالى له أن أثرى واغتنى واتسعت تجارته وكَثُر ماله.

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥. ورسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٠٩، ١١٠.

لذا كان على المربي دائماً أن يربي طلابه ويحثهم على التطبيق العملي لما يعلموه من أمور الدين، لأن التربية بالممارسة العملية من أشد وأسرع أنواع التربية في التأثير والتغيير الإيجابي وهي المعوَّل عليها في الجزاء في الدنيا والآخرة، لأن الحكم على الممارسات الإيجابية وليس على مجرد الأقوال والشعارات الجوفاء، ولذا قرن الله تعالى في كثير من الآيات بين الإيمان والعمل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

إن للتربية والتعليم عن طريق التطبيق والممارسة العملية آثارًا تربوية متعددة منها ما يلي:

- الحرص على التطبيق العملي وإتقان العمل وتعود الدقة وتوخي صحة النتائج، فكل متعلم يمارس العمل أمام معلمه أو كل معلم يمارس العمل ثم يتابعه المتعلم ثم يناظره المعلم ويصحح له أخطاءه.
- شعور الإنسان بالمسؤولية عن صحة العمل، وهذا يجعل منهجية التربية الإسلامية منهجية حركية فكرية عاطفية مبنية على الوعي والدقة وصحة الأداء.
- فالدقة في العواطف والاتجاهات والأفكار تتجلى في إخلاص النية وتوجيه العمل نحو إرضاء الله جل جلاله فلا رياء ولا استكبار ولا استهتار.
- التواضع وحب العمل واستبعاد الغرور وترك الكسل والتواكل.

إلى غير ذلك من الآثار التربوية الحميدة لأسلوب التطبيق والممارسة العملية، فعلى المربي أن يقتدي بهذا الأسلوب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[2].



(١) سورة يونس، آية: ٩.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢١١-٢١٨.

١٦٧- باب استحباب طلب الرفقة
وتأميرهم عَلَى أنفسهم واحداً يطيعونه

الحديث رقم (٩٥٩)

٩٥٩- عن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((لَوْ أنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الوحدَةِ مَا أعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ!)) رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الوحدة: الانفراد في السفر[٢].

الشرح الأدبي

استخدام (لو) في الشرط لأنها حرف امتناع لامتناع أي: امتناع الجواب وهو مسير الراكب ليلا لامتناع الشرط، وهو امتناع العلم، و (ال) في لفظ الناس للجنس، فيعم الجميع في الحكم، وهذا العموم مع عموم الفعل المفهوم من اتصاله بعلامة الجمع (يعلمون) يشير إلى أنهم سيتكاتفون جميعاً لمنع خروج الراكب ليلا وحده لو تحقق علمهم بما يعلم الرسول ﷺ، مما يدلل على عظمته، وخطره، ولفظ (وحده) توكيد للانفراد، وتحديداً لموطن الخطأ.

فقه الحديث

استحباب طلب الرفقة:

قال النووي: (يستحبّ له أن يطلب رفيقًا موافقًا، راغبًا في الخير كارهًا للشر، إن

---

(١) برقم ٢٩٩٨ بنحوه، والسياق للمنذري في ترغيبه ٦٥٢/٣ رقم ٤٥٤٧، وبهذا اللفظ أخرجه ابن خزيمة ٢٥٦٩.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٦٩، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٦٠/٦.

نسي ذكره، وإن ذكره أعانه، وإن تيسر له مع هذا كونه عالمًا فليتمسك به، فإنه يمنعه بعلمه وعمله من سوء ما يطرأ على المسافر من مساوئ الأخلاق والضجر، ويعينه على مكارم الأخلاق ويحثه عليها. واستحب بعض العلماء كونه من الأجانب لا من الأصدقاء ولا الأقارب، والمختار أن القريب والصديق الموثوق به أولى، لأنه أعون له على مهماته وأرفق به في أموره، ثم ينبغي أن يحرص على إرضاء رفيقه في جميع طريقه، ويحتمل كل واحد منهما صاحبه، ويرى لصاحبه عليه فضلاً وحرمة، ويصبر على ما يقع منه في بعض الأوقات)[1] وقال النووي كذلك: (يستحب أن يرافق في سفره جماعة)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ من السفر بالليل منفرداً.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ من السفر بالليل منفرداً:

هذا واضح من الحديث، نقل الطيبي أن السفر منفرداً "فيه مضرة دينية، إذ ليس من يصلي معه بالجماعة، ومضرة دنيوية، إذ ليس معه من يعينه في الحوائج". ثم قال الطيبي: (وكان من حق الظاهر أن يقال: ما سار أحد وحده، فقيده بالراكب والليل، لأن الخطر بالليل أكثر، وأن انبعاث الشر فيه أكثر، والتحرز منه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر، لاسيما إذا كان راكباً، فإنه له خوف جفلة[3] المركوب، ونفوره من أدنى شيء والتهوي في الوهدة[4] بخلاف الراجل)[5].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٨٨ .

(٢) السابق ٤/١٩٠ .

(٣) يقال جفل يجفل جفولاً: انزعج وفزع فهو جافل وجفول وجفال. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ف ل).

(٤) الوهدة: الأرض المنخفضة. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و هـ د).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٧/٣٢١.

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل على كراهية أن يسير الرجل بالليل وحده، وعلى هذا فأرى أن هؤلاء الذين يخرجون في السياحة منفردين، ويسمونها سياحة؛ فكل واحد منهم معرض نفسه للسباع وغير ذلك، وتارك للصلوات في الجماعة؛ ولنفع الناس بالتعليم إن كان من أهل التعليم، والانتفاع بالتعليم إن كان من أهل التعلم، وأن يحظى بعيادة المريض، وشهود الجنائز وعمارة المساجد وغير ذلك؛ فإنه يفوّت نفسه ذلك فلو عرف ما في سيرة الوحدة من فوات هذه الخيرات لم يفعله.

وقد جاء النهي عن السياحة عن أكابر أهل العلم، إلا أن ذلك إذا اضطر إليه إنسان أو كان على حال لم يقصد فاعله فعله توخياً لسير الوحدة، بل كلما اضطره إليه امرؤ أو سوء رفقة، فإنه يستغفر الله تعالى من مخالفة السنة في ذلك، ويعمل بحكم الضرورة)[1].

وقد ساق البخاري هذا الحديث وحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ((نَدَبَ النبيُّ ﷺ الناسَ يومَ الخندَقِ، فانتدَبَ الزُّبيرُ، ثمَّ نَدَبَهم فانتدَبَ الزُّبير، ثمَّ نَدَبَهم فانتدَبَ الزُّبيرُ. قال النبيُّ: إنَّ لكلِّ نبيٍّ حَوارِيّاً وحَواريَّ الزُّبيرُ)). قال سفيان [أحد رواة الحديث]: الحواري الناصر[2] ثم ساق حديث الباب، وجعلهما تحت باب السير وحده[3].

قال ابن حجر: (قال ابن المنير: السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفرداً للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد، كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك. ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من حذيفة ونعيم بن مسعود وعبدالله بن أنيس وخوات بن جبير وعمرو بن أمية وسالم بن عمير وبُسَيْسة في عدة مواطن وبعضها في الصحيح)[4][5].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢١٦/٤-٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٧، ومسلم ٢٤١٥.

(٣) كتاب الجهاد رقم ٥٦، الباب رقم ١٣٥، الحديثان ٢٩٩٧، ٢٩٩٨.

(٤) كان بعث حذيفة في غزوة الأحزاب، أخرجه مسلم ١٧٨٨ من حديث حذيفة نفسه، وكان بعث بُسيسة عيناً على عير أبي سفيان في مقدمات غزوة بدر، أخرجه مسلم١٩٠١.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٣٨/٦.

وقال ابن القيم: (وكان ﷺ يكره للمسافر وحده أن يسير بالليل)[١].

وقال ابن عثيمين في شرح الحديث: (إن الإنسان لا ينبغي أبداً أن يسير وحده في السفر، لأنه ربما يصاب بمرض أو إغماء، أو يتسلط عليه أحد أو غير ذلك من المحظورات فلا يكون معه أحد يدافع عنه، أو يخبر عنه أو ما أشبه ذلك، وهذه في الأسفار التي تتحقق فيها الوحدة، وأما ما يكون في الخطوط العامرة، التي لا تكاد تمر فيها دقيقة واحدة إلا وتمر بك فيها سيارة، فهذا - وإن كان الإنسان في سيارة وحده، فليس من هذا الباب - يعني ليس من باب السفر وحده- لأن الخطوط الآن عامرة من محافظة لأخرى، ومن مدينة لثانية، وما أشبه ذلك فلا يدخل في النهي)[٢].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

هذا واضح من قوله "لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وَحْدَهُ" قال ابن حجر: (أي الذي أعلمه من الآفات التي تحصل من ذلك)[٣] وقد بوّب المنذري في الترغيب والترهيب على هذا الحديث والأحاديث الأخرى المذكورة في الباب، بوّب على ذلك: الترهيب من سفر الرجل وحده أو مع آخر فقط، وما جاء في خير الأصحاب عدة[٤].

ومثال الترهيب كذلك قوله ﷺ ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ))[٥].

قال العز بن عبدالسلام: (إعظام الخوف وازع عن المخالفات، وثمرته ملاحظة شدة البطش والنقمة، وأنه لو عذب أهل السماوات والأرض لكان عدلاً منه)[٦].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤٤٩/٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٦/٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣٨/٦.

(٤) الترغيب والترهيب، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، ٦٥٦هـ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، دون بيانات أخرى ص ٦٤٥.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٥.

(٦) شجرة المعارف والأحوال ص ٨٤، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٤/٧.

الحديث رقم (٩٦٠)

٩٦٠- وعن عمرِو بن شُعَيْبٍ، عن أبيه، عن جَدِهِ ﵁، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ)) رواه أَبُو داود والترمذي والنسائيُّ[1] بأسانيد صحيحةٍ، وقال الترمذي: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

غريب الألفاظ:

ركب: أي جماعة[2].

الشرح الأدبي

الحديث يرغب في الرفقة في السفر، ويرهب من سفر الإنسان وحده، لما يكتنفه من أخطار لا يجد الإنسان فيها من يعينه، وقد جاء المعنى عن طريق التصوير بالتشبيه فقوله ﷺ (الراكب شيطان) تشبيه بليغ حذف منه وجه الشبه، وأداة التشبيه، وحذفهما يقوي التشبيه، ويؤكد شدة التشابه بين الراكب، والشيطان، ووجه الشبه الانفراد، والعزلة عن الناس، وعدم الأنس بهم، والحرمان من دعاء الصالحين، ونصحهم وَتَرْكِهِ الْجَمَاعَةَ الْمَأْمُورَ بهَا، فأشبه فِعْلُهُ فِعْلَ الشَّيْطَانِ، وفي هذا التشبيه تنفير من الانفراد، وتقبيح له، وتكرار الصورة مع المثنى تأكيد للأولى، وتقرير للمعنى الذي أضافته، وهو أن الاثنان كالواحد في الحكم المتعلق بالانفراد، أما إذا زادوا عن ذلك فقد صاروا ركبا، وزال عنهم الشيطان، وزالت عنهم صورته.

المضامين الدعوية[3]

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب الرفقة في السفر.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦٠٧، والترمذي ١٦٧٤، والنسائي في المجتبى ٢٤٩٥، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٣٨، وقال الحاكم في المستدرك ١٠٢/١: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٦/٢٠: وقد كان مجاهد ينكر هذا الحديث مرفوعًا، ويجعله من قول عمر، ولا وجه لقول مجاهد، لأن الثقات رووه مرفوعًا.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٤٨٤/٢.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٦٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٦١).

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تأمير المسافرين أحدهم عليهم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والتزام الجماعة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب الرفقة في السفر:

وهذا واضح من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب".

نقل الطيبي في معنى الحديث: (يعني مشي الواحد منفرداً منهي [عنه]، وكذلك مشي الاثنين، ومن ارتكب منهياً فقد أطاع الشيطان، ومن أطاعه فكأنه هو، فلهذا أطلق صلى الله عليه وسلم اسمه عليه)(١).

وقال البغوي في شرح السنة: (قال أبو سليمان الخطابي(٢): معناه - والله أعلم-أن التفرد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان، قال الإمام [أي البغوي]: معنى الحديث عندي ما روي عن سعيد بن المسيب مرسلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الشَّيْطَانُ يَهِمُّ بِالوَاحِدِ والاثْنَيْنِ. فَإِذَا كَانُوا ثَلاثَةً لَمْ يَهُمَّ بِهِمْ))(٣) وروي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من سرّه بَحْبَحْة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد))(٤).

وروي عن عمر أنه قال في رجل سافر وحده: أرأيتم إن مات من أسأل عنه؟ قال الخطابي(٥): المنفرد وحده في السفر إن مات لم يكن بحضرته من يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده من يوصي إليه في ماله، ويحمل تركته إلى أهله ويورد خبره عليهم، ولا معه في السفر من يعينه على الحمولة، فإذا كانوا ثلاثة تعاونوا وتناوبوا المهنة والحراسة، وصلوا الجماعة وأحرزوا الحظ فيها)(٦).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٨/٧.

(٢) معالم السنن ٤١٣/٣.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٤١٣٥.

(٤) أخرجه أحمد ١٨/١ رقم ١١٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٦٩/١.

(٥) معالم السنن ٤١٣/٣.

(٦) شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي ٥١٦هـ، حققه شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، ط/٢، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٢٢/١١.

وقال ابن العربي: (إن الرفيق قبل الطريق، ولا شيء أصعب على المرء من الانفراد بين سمع الأرض وبصرها، وهو عرضة للشيطان، ولا ينبغي لأحد أن يفعله إلا للضرورة، وأقل الصحبة ثلاثة، لأن أحدهم إن مضى يحتطب أو يستقي بقي اثنان، وجعل النبي ﷺ الواحد شيطاناً مجازاً، كأنه صاحب الشيطان، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ويدفع خوفه الأذان كما في صحيح مسلم[1]، وآية الكرسي فإن من قرأها لا يقربه شيطان[2]، وهذا الذي ورد منه الحديث موجود في التجربة)[3].

وقال ابن عبدالبر: (في هذا الحديث كراهية الوحدة في السفر، وأتى هذا الحديث بلفظ "الراكب" ويدخل الراجل في معناه إذا كان وحده، ولم تختلف الآثار في كراهية السفر للواحد، واختلف في الاثنين ولم يختلف في الثلاثة فما زاد، أن ذلك حسن جائز. وإنما وردت الكراهية في ذلك، والله أعلم، لأن الوحيد إذا مرض لم يجد من يمرضه، ولا يقوم عليه ولا يخبر عنه، ونحو هذا)[4].

وقال أحمد بن حنبل: (لا يسافر الرجل وحده ولا يبيت في بيت وحده)[5].

وقال ابن عثيمين: (بيّن النبي ﷺ أن الراكب شيطان والراكبين شيطانان والثلاثة ركب، يعني من يسافر وحده شيطان، والذي يسافر وليس معه سوى واحد شيطانان، والثلاثة ركب، يعني ليسوا من الشياطين. بل هم ركب مستقل، وهذا أيضاً على الحذر والتنفير من سفر الوحدة، وكذلك من سفر الاثنين، والثلاثة لا بأس، هذا - كما قلت - مقيد بالأسفار التي لا يكون فيها ذاهب وآت)[6].

كما نقل ابن حجر قول الطبري: (هذا الزجر زجر أدب وإرشاد لما يخشى على

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٨.

(٢) علقه البخاري في صحيحه ٢٣١١.

(٣) القبس شرح الموطأ ٢٩٠/٢٣ موسوعة شروح الموطأ، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٥٣/٦، ٥٤.

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٩١/٢٣، موسوعة شروح الموطأ.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٤٥٧/١.

(٦) شرح رياض الصالحين ١٢١٦/٢.

الواحد من الوحشة والوحدة، وليس بحرام، فالسائر وحده في فلاة، وكذا البائت وحده لا يأمن من الاستيحاش، لا سيما إذا كان ذا فكرة رديئة وقلب ضعيف، والحق أن الناس يتباينون في ذلك، فيحتمل أن يكون الزجر عن ذلك وقع لحسم المادة، فلا يتناول إذا وقعت الحاجة لذلك)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (يستحب أن يرافق في سفره من هو موافق راغب في الخير، كاره للشر، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، ويستحب أن يرافق في سفره جماعة)[٢].

وقال النووي: (قد يقال: ذكرتم أنه يكره الانفراد في السفر، وقد اشتهر عن خلائق من الصالحين الوحدة في السفر. والجواب: أن الوحدة والانفراد إنما يكرهان لمن استأنس بالناس، فيخاف عليه من الانفراد الضرر بسبب الشياطين وغيرهم، أما الصالحون فإنهم أنسوا بالله تعالى، واستوحشوا من الناس في كثير من أوقاتهم، فلا ضرر عليهم في الوحدة، بل مصلحتهم وراحتهم فيها)[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تأمير المسافرين أحدهم عليهم:

يتضح ذلك في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" ووقع عند أبي داود من طريق نافع عن أبي سلمة: عن أبي هريرة مرفوعاً: ((إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ. قالَ نَافِعٌ: فَقُلْنَا لأبي سَلَمَةَ فَأَنْتَ أَمِيرُنَا))[٤].

قال البغوي: (وإنما أمر بذلك، لأنهم إذا صدروا عن رأي واحد، يكون ذلك أبعد من وقوع الاختلاف بينهم)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٥٣/٦، ٥٤.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٢٥.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٧٣).

(٥) شرح السنة ٢٣/١١، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٩/٧.

وقال النووي: (يستحب أن يؤمر الرفقة على أنفسهم أفضلهم وأجودهم رأياً ويطيعونه لحديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إذَا كَانَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[1].

وقال ابن عثيمين: (إن الرسول ﷺ أمر المسافرين إذا سافروا أن يؤمروا أحدهم. يعني: يؤمرون واحداً منهم يتولى تدبيرهم، يقول: نذهب ونجلس نتوضأ نتناول العشاء وما أشبه ذلك، لأنهم إذا لم يؤمروا واحداً صار أمرهم فوضى، ولهذا قيل: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم، لابد من أمير يتولى أمرهم، وظاهر الحديث أن هذا الأمير إذا رضوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر، لأنه أمير، أما ما لا يتعلق بأمور السفر فلا تجب طاعته كالمسائل الخاصة بالإنسان، إلا أنه لا يعني ذلك أن هذاالأمير يستبد، بل يكون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[2]، فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يخفى فيها جانب المصلحة، ولا يستبد برأيه، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها)[3].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: جمع كلمة المسلمين والتزام الجماعة:

قال ابن تيمية: (ولهذا أمر النبي ﷺ بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ((إذَا كَانَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[4].

وفي سننه -أيضاً- عن أبي هريرة مثله[5]. وفي مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٢٥-٤٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢١٦/٢.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٦٠٨، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٢٢٧٢).

(٥) سنن أبي داود ٢٦٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٢٢٧٣).

عمرو أن النبي ﷺ قال: ((لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم))[١].

فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات، أن يولي أحدهم، كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، ولهذا كانت الولاية - لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله، ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان - من أفضل الأعمال الصالحة)[٢].

وقال كذلك: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ ((إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))... فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود، لاتتم إلا بالقوة والإمارة)[٣].

وقد قال رسول الله ﷺ ((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ))[٤].

(لقد ذم الله التفرق، ونهى عن الطرق والأسباب المؤدية إليه. وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة التي تحذر من التفرق والاختلاف، وتبين سوء عاقبته، وأنه من أعظم أسباب الخذلان في الدنيا، والعذاب والخزي وسواد الوجوه في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

---

(١) أخرجه أحمد ١٧٧/٢ رقم ٦٦٤٧ مطولاً وقال محققو المسند: حديث حسن ٢٢٧/١١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٠٦/١٤، ٦٤/٢٨-٦٥.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٨٢/١٤، ٣٩٠/٢٨-٣٩١.

(٤) أخرجه أحمد ١٨/١ رقم ١١٤، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٦٩/١.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة)[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[3].

فقد دلت الآيات على ذم التفرق وخطورته على الأمة في الدنيا والآخرة، وأنه سبب هلاك أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وسبب كل انحراف وقع في الناس.

وأما السنة فقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في ذم التفرق والاختلاف، والحث على الجماعة والائتلاف، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية رضي الله عنه أنه قام فقال: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال: ((أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افترَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هذهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجنة وهِيَ الْجَمَاعَةُ))[4]. فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، لا ريب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم، ثم هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا، ثم يؤول إلى الدين. وقد يكون الاختلاف في الدنيا فقط. وعلى كل حال فإن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة، والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه مَنْ شاء الله له السلامة)[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٧٢١/٣ وعزاه لابن أبي حاتم، واللالكائي في السنة ٧٤، والخطيب في تاريخ بغداد ٣٧٩/٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٥٩٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٨٤٣).

(٥) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٢٩٩-٣٠٠.

الحديث رقم (٩٦١)

٩٦١- وعن أَبي سعيد وأبي هُريرة رضي الله عنهما، قالا: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أحَدَهُمْ)) حديث حسن، رواه أَبُو داود[1] بإسنادٍ حسن.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الاختلاف وارد بين البشر فهو الوجه المقابل للإتفاق، وقد ندب الرسول ﷺ المسافرين أن يؤمروا أحدهم منعاً للاختلاف المؤدي إلى الشقاق، والإسلام حريص كل الحرص على سلامة الجبهة الداخلية للأمة، والتي تمثل مصدر قوة لها، وقد اهتم في ذلك بالأمور البسيطة، أو التي تبدو كذلك كما اهتم بذات البال، والخطر، واتفاق المسافرين بداية من الثلاثة يصعد بالحكم مع العدد بلا نهاية لاسيما في الخروج للغزو، والجهاد فجاء الأمر النبوي بتأمير من يختارون في ثوب الشرط الذي يعطي الحكم الاطراد عبر الزمان، والمكان، وكلمة (أحد) المعرفة بالإضافة للضمير العائد عليهم تشير أنه فرد منهم، وباختيارهم دلت على ذلك واو الجماعة المتصلة بالفعل (أمّروا) وقد أرسله نموذجاً يقتدى به على مستوى أوسع في رعاية مصالح المسلمين.

فقه الحديث

استحباب تأمير أفضل الرفقة وأجودهم رأيًا:

قال النووي: (يستحب أن يؤمر الرفقة على أنفسهم أفضلهم وأجودهم رأيًا، ويطيعونه لحديث أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" وعن ابن عباس مرفوعًا: "خير الصحابة أربعة ..." الحديث والمراد بالصحابة هنا المتصاحبون)[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم ٢٦٠٨، وقال النووي في المجموع ٣٩٠/٥: إسناده حسن.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤، وانظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٢٥-٤٣.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٦٢)

٩٦٢- وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أرْبَعُمِئَةٍ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أرْبَعَةُ آلافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ ألْفاً مِنْ قِلةٍ)) رواه أبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الصحابة: جمع صاحب[2].

السرية: وهي القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مائة[3].

الشرح الأدبي

البداية بكلمة (خير) من براعة الاستهلال لأنها كلمة تداعب النفس بمحبوب يكتنفه الغموض كثرة، وقلة، وبعداً، وقرباً، كما أنها في صيغة التفضيل تزيد تشوف النفس لمعرفة ما تسفر عنه، وإضافتها للصحابة ترجع على سامع الخبر بالنظر في رفقته، وتخصيص الأربعة؛ لأنه عدد تتحقق به الحاجة، ويؤمن به من العطب، قال الغزالي: المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً فيتردد في السفر بلا رفيق فلا فيخلو عن ضيق القلب لفقد الأنيس، ولو تردد اثنان كان الحافظ للرحل وحده فلا يخلو عن

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦١١، والترمذي ١٥٥٥ ولفظهما سواء. وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٣٨، وابن حبان، الإحسان ٤٧١٧، وقال الحاكم ٤٤٣/١: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الترمذي: حديث غريبٌ لا يسنده كبير أحد، وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤٨٤/٣: فعلته إذن عنده الاختلاف فيه بالإيناد والإرسال، وذلك غير قادحٍ في نظر غيره، فالحديثُ صحيح.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ح ب).

(٣) المرجع السابق في (س ر ى).

الحذر، وعن ضيق القلب فإذا ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود، والخامس زيادة بعد الحاجة، واختيار التعبير بالسرية؛ لأنها تضم خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري النفيس سموا بذلك، لأنهم ينفذون سرا وخفية، والسر في العدد أربعمائة، أنه الأنسب لتحقيق غاية السرية من ناحية سهولة الحركة، وسرعتها مع تحقيق الحماية، والأمان، وتحقيق الظفر، وكذلك في الجيش كان اختيار العدد مناسباً لتحقيق الغرض من حيث كثرة العدد، وإمكان السيطرة، واتحاد الهجمة، وتناسق العمل في المعركة، وتحقيق الغلبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان خير الصحابة وخير السرايا وخير الجيوش.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أنه لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب والنفي.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان خير الصحابة وخير السرايا وخير الجيوش:

هذا واضح من الحديث، وقد بوب ابن حبان على هذا الحديث في صحيحه: ذكر الأخبار عن وصَفْ خير الجيوش والصحابة[1].

وقال النووي: (والمراد بالصحابة هنا المتصاحبون)[2] وقد بوّب أبو داود على هذا الحديث: باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا[3].

قال الغزالي: (وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد، لابد أن يكون له فائدة، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رحل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً، فيتردد في السفر بلا رفيق، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق، ولو تردد في الحاجة اثنان لكن الحافظ للرحل واحداً، فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر، فإذن ما

---

(١) صحيح ابن حبان ١٧/١١ رقم ٤٧١٧.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤.

(٣) الحديث ٢٦١١.

دون الأربعة لا يفي بالمقصود، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة، فلا ينعقد بينهم الترافق، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة، ومن يستغني عنه لا تنصرف الهمة إليه، فلا تتم المرافقة معه، نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف، ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة، وكم من رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق، لا يكلّم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه)[1].

ونقل الطيبي القول: (يعني الرفقاء إذا كانوا أربعة خير من أن يكون ثلاثة ومرض أحدهم وأراد أن يجعل أحد رفيقيه وصيًّ نفسه، لم يكن هناك من يشهد بإمضائه إلا واحد فلا يكفي، ولو كانوا أربعة كفى شهادة اثنين، ولأن الجمع إذا كان أكثر تكون معاونة بعضهم بعضاً أتم، وفضل صلاة الجماعة أيضاً أكثر، فخمسة خير من أربعة، وكذا كل جماعة خير ممن أقل منهم لا من فوقهم)[2].

وقال شرف الحق العظيم آبادي: (قوله "وخير السرايا": جمع سرية وهي القطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه قال النووي: قال ابن رسلان: قال إبراهيم الحربي: هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. قالوا: سميت بذلك لأنها تسري في الليل وتخفي ذهابها، فعيلة بمعنى فاعلة، سرى وأسرى إذا ذهب ليلاً، وضعف ابن الأثير ذلك وعبارته[3]: وهي الطائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو والجمع السرايا، سموا بذلك لأنهم كانوا خلاصة العسكر، وخيارهم من الشيء السري النفيس، وقيل: سموا بذلك لأنهم ينفذون سراً وخفية. وليس بالوجه، قال ابن رسلان: ولعل السرية إنما خصت بأربعمائة كما تقدم عن الحربي، لأن خير السرايا هي عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر- فعلى هذا خير السرايا من ثلاثمائة إلى الأربعمائة، ومن أربعمائة إلى خمسمائة قاله العلقمي)[4].

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٠٩٨/٢-١٠٩٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٣٩/٧-٢٤٠.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ر ى).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٩.

وقال الطيبي: (جميع قرائن الحديث دائرة على الأربع، واثنا عشر ضعف أربع، ولعل الإشارة بذلك إلى الشدة والقوة، واشتداد ظهرانيهم تشبيهاً بأركان البناء)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (صرح الشافعية بأن أكثر السرية: أربعمائة، أو خمسمائة، وأقلها مائة.

واستدلوا بحديث: "خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة).

وقال محمد بن الحسن: إنه لا بأس أن يبعث الإمام الرجل الواحد سرية، أو الاثنين أو الثلاثة، حسب الحاجة، وقال: لم يرد النبي ﷺ بالأربعمائة أن ما دونها لا يكون سرية، إنما كان مراده ﷺ: أنهم إذا بلغوا أربع مائة فالظاهر من حالهم أنهم لا يرجعون من بلاد العدو قبل نيل المراد، بدليل أن النبي ﷺ: ((بعث حذيفة بن اليمان في أيام الخندق سرية وحده))[٢]. "وبعث عبدالله بن أنيس سرية وحده"، و"بعث دحية الكلبي سرية وحده". و"بعث ابن مسعود وخباباً سرية")[٣].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ انه لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة".

قال شرف الحق العظيم آبادي: (قوله "ولن يُغلب" بصيغة المجهول أي لن يصير مغلوباً "من قلة": معناه أنهم لو صاروا مغلوبين لم يكن للقلة، بل لأمر آخر كالعجب بكثرة العدد والعُدد وغيره، قال العلقمي: أي إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً لن يغلب من جهة قلة العدد، قال ابن رسلان: زاد أبو يعلى الموصلي: "إذا صبروا واتقوا"[٤] وكذا زاد ابن عساكر، وزاد العسكري: "وخير الطلائع أربعون" بل يكون الغلب من سبب آخر

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٤٠/٧، وانظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٤٢٥/١.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٤٩/٢٤ ومصادرها ومراجعها.

(٤) قُلت: رواه ابن حبان من طريق أبي يعلى لكن ليس فيه هذه الزيادة، صحيح ابن حبان ٤٧١٧.

كالعجب بكثرة العدد، وبما زين لهم الشيطان من أنفسهم، من قدرتهم على الحرب وشجاعتهم وقوتهم ونحو ذلك، ألا ترى إلى وقعة حنين، فإن المسلمين كان عدتهم فيها اثني عشر ألفاً أو قريباً منها، فأعجبهم كثرتهم واعتمدوا عليها، وقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة، فغلبوا عند ذلك، واستدل بهذا الحديث على أن عدد المسلمين إذا بلغ اثني عشر ألفاً، أنه يحرم الانصراف وإن زاد الكفار على مثليهم، قال القرطبي[١]: وهو مذهب جمهور العلماء لأنهم جعلوا هذا مخصصاً للآية الكريمة[٢] انتهى كلام ابن رسلان ملخصاً)[٣].

وقال الطيبي: (وإنما لم يكونوا قليلين، والأعداء مما لا تعد وتحصى، لأن كل واحد من هذه الأثلاث جيش إذا قوبل بالميمنة أو الميسرة أو القلب فيكفيها، ولأن الجيش الكثير، المقاتلة منهم بعضهم، وهؤلاء مقاتلون)[٤].

جاء في الموسوعةالفقهية: (وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التولي يوم الزحف وهو الفرار من قتال الكفار حرام، فلا يجوز للمسلم الذي حضر صف القتال أن ينصرف إذا التقى الجمعان وتدانى الصفان، لقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٥] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٦] نهى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٨٢/٧/٤.

(٢) وهي وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الأنفال: ١٥-١٦].

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٩-١١٢٠.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٤٠/٧.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

الله تعالى في الآيتين الأوليين -في الذكر هنا- عن الفرار من الكفار، وأمر في الآية الأخيرة بالثبات عند قتالهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء، وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له.

وإنما يحرم الفرار والتولي. إذا لم يزد الكفار على مثلي عدد المسلمين، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(١).

فإن زاد الكفار على مثلي المسلمين لم يحرم الفرار، والصبر أحسن، فقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف.

واعتبر الشافعية وجمهور المالكية في تحريم الفرار العدد لا القوة والعدة، وذهب ابن الماجشون -من المالكية- وهو ما مال إليه القليوبي من الشافعية إلى اعتبار العدة والقوة، فيجوز عندهما انصراف مائة منا ضعفاء عن مائتين إلا واحداً أقوياء، أو مائة فارس من مائة فارس، إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم.

وعلى قول الجمهور لا يحل فرار مائة مثلاً إلا مما زاد على المائتين.

وزاد المالكية حالة أخرى يحرم فيها الفرار، وهي ما إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن بلغوا هذا العدد لم يحل لهم الفرار، وإن زاد عدد الكفار على المثلين، لقول النبي ﷺ: "... ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة" فإن أكثر أهل العلم خصصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية.

وقال المالكية: إنما يحرم الفرار إذا بلغوا اثني عشر ألفاً ما لم تختلف كلمتهم، وما لم يكن العدو بمحل مدده ولا مدد للمسلمين، وإلا جاز، وقد قيد بعضهم محلّ الحرمة أيضاً: فيما إذا كان في الاثني عشر نكاية للعدو، فإن لم يكن فيهم ذلك وظن المسلمون أن الكفار يقتلونهم جاز الفرار.

وقال ابن عابدين: لا ينبغي للمسلمين أن يفروا إذا كانوا اثني عشر ألفاً وإن كان العدو أكثر، لقوله ﷺ: "لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة"... والحاصل: أنه إذا غلب

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

على ظنه أنه يُغلب لا بأس بأن يفر، ولا بأس للواحد إذا لم يكن معه سلاح أن يفر من اثنين لهما سلاح، ويكره للواحد القوي أن يفر من الكافِرَين، والمائة من المائتين في قول محمد، ولا بأس أن يفر الواحد من الثلاثة والمائة من الثلاثمائة[1].

واستثنى من الحكم بتحريم التولي عند الزحف - بنص الآية الكريمة- المتحرف لقتال وهو: الذي يظهر الهزيمة وينصرف ليتبعه العدو فيكمن ويهجم عليه فيقتله، أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو إلى متسع سهل للقتال... وذلك من مكايد الحرب وفنون القتال فلا وزر فيه ولا حرمة.

وكذلك استثنت الآية من تحريم التولي عند الزحف المتحيز إلى فئة، وهو: الذي ينصرف عن العدو بنية الذهاب إلى فئة يستنجد ويستعين بها على القتال، ولا حرمة على من ينصرف بنية التحيز.

واشترط المالكية لجواز التحرف أو التحيز: كون المتحرف أو المتحيز غير أمير الجيش والإمام، وأما هما فليس لهما التحرف ولا التحيز لحصول الخلل والمفسدة به.

وزاد الشافعية إلى المتحرف والمتحيز، مَنْ عجز بمرض ونحوه فإن له الانصراف بكل حال.

والفرار -التولي- المحرم كبيرة موبقة بظاهر القرآن الكريم وإجماع الأكثر من الأئمة لما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات...))[2] وفيه "والتولي يوم الزحف" وهي كبيرة تكفرها التوبة بعفو الله تعالى ومشيئته).

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب والنفي:

أما الترغيب فهو وصف الأصحاب إذا كان عددهم أربعة، ووصف السرية إذا كانت أربعمائة، ووصف الجيش إذا كان عدده أربعة آلاف، ووصف ذلك كله بأنه خير، والوصف بهذا ترغيب للمدعوين أن يمتثلوا ويفعلوا لينالوا هذا الخير، ويكونوا

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٢٢٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

موصوفين بالخيرية ، ولاشك أن كل نفس بشرية تميل إلى الاتصاف بأنها خيرية ، وأنها تفعل الخير وتأتيه.

أما النفي فقوله ﷺ "ولن يغلب اثنا عشر ألف من قلة" وهذا النفي أفاد تقرير حقيقة ، يعمل المدعوون في ضوئها ملتزمين بها وخاضعين لها.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس روح الجماعة والتآلف:

لقد جعل الله في الاجتماع القوة والعزة والمنعة والبركة وجعل في التفرق الوهن والضعف وتسلط الأعداء ونزع البركة[1].

ومن شواهد غرس روح الجماعة من أحاديث الباب ما جاء في إرشاده ﷺ إلى التماس الصحبة في السفر وبيّن ﷺ أنه كلما زاد عدد الجماعة زادت الخيرية والأفضلية، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايا أَرْبَعُمَائَةٍ، وخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، ولا يُغْلَبُ اثنا عشَرَ ألفاً مِنْ قِلةٍ»، وحذر من الوحدة خاصة في الأسفار، فقال ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في الوَحْدَةِ ما أعلمُ؛ ما سارَ راكبٌ بليلٍ وحْدَهُ».

لقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم مؤكدة على أهمية الجماعة وإيجابياتها العالية، مما يستوجب الحرص عليها، وإن المبادئ والعبادات الإسلامية تعمل على تأصيل روح الجماعة في نفوس الأفراد، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[2].

لذا كان من الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية غرس روح الجماعة والتآلف لأهمية ذلك في الوقاية من الفتن وغوائلها والتحذير من الفرقة والاختلاف.

ولو أننا تتبعنا أحكام الإسلام ومبادئه لرأيناها مبنية على هذا الأصل فكثير من العبادات تقوم على الاجتماع والترابط والتكافل، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين.

إن التربية على الوحدة ونبذ الفرقة من أكبر المنجيات، وهي العواصم من قواصم

---

(١) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد ص ٢٤٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

الفتن والشرور، وما نمت بذور الفتن إلا في أرض الفرقة والاختلاف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك، فإن أردنا السلامة من الفتن وشرورها فلنكن عوامل بناء وتأليف وجمع لكلمة المسلمين، ولنحذر من أن نكون عوامل هدم وتفريق بين المؤمنين، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين لأنها فرصتهم الثمينة في نشر ما يريدونه من الشرور والفساد، بل فرصتهم لا تعوض في بسط نفوذهم على بلاد المسلمين وديارهم(١).

ثانياً- التربية بالتحذير:

تعمل التربية الإسلامية على حماية المسلم من كل خطر يهدده أو ضرر يمكن أن يلحق به، ومن هنا جاءت الأساليب التربوية لتحقيق تلك الغايات، ومن بين هذه الأساليب التربوية: التربية بالتحذير، وفي أحاديث الباب تربية نبوية بالتحذير من خطر الوحدة والانفراد، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في الوَحْدَةِ ما أعلمُ؛ ما سارَ راكبٌ بليلٍ وحْدَهُ».

ذلك لما في الوحدة من مخاطر لاسيما إذا كان الإنسان في سفر، فقد يسبب الانفراد والوحدة أضراراً دينية ودنيوية، فقد يكون الإنسان في بعض الأوقات في أمسِّ الحاجة لمن يوقظه مثلاً للصلاة، ويعينه ويقضي حاجته إن أَلَمَّ به مرض أو ما شابهه.

إن أسلوب التحذير أسلوب تربوي أصيل ورد استعماله في كثير من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، ومن أمثلة ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾(٢).

وقد حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم من خلال تحذيرهم من التفرق وعدم الاجتماع، نظراً للآثار السلبية المترتبة على ذلك.

ثالثاً- التربية على القيادة وتقوية المهارات القيادية:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية أنها تربية إيجابية هادفة بناءة تعمل على

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٣/٥٥٤-٥٥٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

تفعيل الطاقات وإبراز المواهب، وتفعيل المشاركات وتنمية روح العمل الجماعي، والتدريب على تحمل المسؤوليات والقيادة.

وذلك على جميع المستويات والأحوال، إذ أن القيادة واكتساب مهاراتها لا تقتصر على تولي المناصب العليا كالجيش والإمارة والقضاء وما شاكل ذلك، وإنما هي أسلوب حياتي ينبغي أن يُضفي على كل جماعة وحتى وإن كانت أقل الجماعات كثلاثة نفر في سفر، كما أرشدت إلى ذلك أحاديث الباب ومنها حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ». ففي ذلك تربية على النظام وتحديد المسئوليات وتوزيعها على أفراد المجموعة ومنها مسئولية القيادة التي تُوكلها المجموعة إلى واحد منها.

لذا فإن على المربي الاعتناء بتحقيق وغرس القيادة في نفوس المتربين وتنميتها ومن وسائل ذلك:

أ- الاعتناء باختيار العناصر التي تملك السمات القيادية والحرص عليها.

ب- الاعتناء بإبراز السمات القيادية أمام المتربين وبيانها.

ج- الاعتناء بإبراز النماذج القيادية في سِيَر السلف ودراستها.

د- إتاحة فرص عملية لممارسة المهمات القيادية من خلال الأنشطة التربوية وغيرها[1].



(١) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ١٣٤.

١٦٨- باب آداب السير والنزول والمبيت
والنوم في السفر واستحباب السُّرَى والرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها وأمر من قصّر في حقها بالقيام بحقها وجواز الإرداف عَلَى الدابة إذَا كانت تطيق ذلك

الحديث رقم (٩٦٣)

٩٦٣- عن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الخِصْبِ، فَأَعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الجدْبِ[1]، فَأسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ؛ فَإنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ، وَمَأْوَى الهَوَامِّ بِاللَّيْلِ)) رواه مسلم[2].

معنى: " أعطُوا الإبل حظها من الأرض": أي: ارْفقُوا بها في السير لترعى في حال سيرها. وقوله: "نِقْيَها" هو بكسر النون، وإسكان القاف، والياء المثناة من تحت، وهو: المخ، معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مخها من ضَنك السير، و"التَّعْرِيسُ": النزول في الليل.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الهوام: حشرات ودواب الأرض من ذوات السموم[3].

الشرح الأدبي

مَعنَى ((أعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأرْضِ)) أيْ: ارْفُقُوا بهَا في السَّيْرِ لِتَرْعَى في حَالِ

---

(١) لفظ مسلم: (السنة) والمثبت لفظ أبي داود ٢٥٦٩.

(٢) برقم ١٧٨/١٩٢٦. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧١.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٢٢٧.

سَيرِهَا، وَقوله: ((نِقْيَهَا)) هُوَ بكسر النون وإسكان القاف وبالياء المثناة من تَحْت وَهُوَ: المُخُّ، معناه: أسْرِعُوا بِهَا حَتَّى تَصِلُوا المَقصِدَ قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ مُخُّهَا مِنْ ضَنْك السَّيْر. وَ((التَّعْرِيسُ)): النُزولُ في اللَّيلِ.

تتجلى من ثنايا بلاغة الرسول ﷺ رأفته، ورحمته حتى بالحيوان، فهو يستشعر رغباتها، ويراعي حالتها، ويرفق بها، وأسلوب الشرط دليل على ذلك لأنه يعطي التوجيه النبوي إطراداً عبر الزمان، والمكان، ويجعله عادة لكل من سافر في الخصب أن يعطي فرصة للإبل أن ترعى مما حولها، وقول الرسول ﷺ (فَأعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ) كناية عن تركها ترعى من العشب التي تسير فيه، والتعبير بالحظ يشعر بالخصوصية، ويوحي بأحقيتها فيه، والطباق بين الخصب، والجدب يضع حلولاً لمشاكل السير، وفن المحافظة على الركائب التي هي وسيلة الانتقال، وقوله (فأسرعوا عليها السير) تقابل جملة (فَأعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ) لأن السرعة في الجدب تعيدها إلى الخصب لترعى، أو لموطنها فترتاح، وقوله (وَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا) التعبير بالمبادرة يوحي بخطر الفوت، والعبارة كناية عن أخذها وقت نشاطها، ورعايتها بما لا يفسد حالها، وقوله (وَإِذَا عَرَّسْتُمْ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ) أسلوب شرط يعلمنا قواعد السير، واحترام الناس، وقوله (عرستم) يوحي بطول الإقامة التي تعيق حركة السير، وقوله (فاجتنوا) أمر أريد به النهي عن النزول في الطرقات، وقد علل له بقوله (فَإنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ، وَمَأوَى الهَوَامِّ بالليْلِ) حتى يحقق الإقناع القلبي بعد الاقتناع العقلي بلزوم إتباع توجيه النبي ﷺ، والتعبير بالهوام يوحي بالرهبة لما فيه من إبهام النوع، وخطورته، والجهل بمكانه الذي يظهر منه، وزمانه مما يبقي الإنسان في حيرة، وقلق، ثم إن التعبير بالمأوى يشير إلى التجمع، وتجمع المؤذي مع العجز عن تجنبه بسبب الجهل بمصدره، وطبيعته، ووقته يزيد خطره مما يوجه إلى تجنبه.

فقه الحديث

السنة أن يراعي مصلحة الدابة:

قال النووي: (السنة أن يراعي مصلحة الدابة في المرعى والسرعة، والتأني بحسب الأرفق بها)[1].

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٥ .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: مراعاة مصلحة الدواب في السير والرفق بها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عدم النوم ليلاً في الطريق.

رابعاً: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما فيه مصلحتهم.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط والتعليل:

هذا واضح من الحديث، فقد استخدم النبي ﷺ أداة الشرط "إذا" وهذا الشرط يُرتب طلباً على فعل، وذلك ليلتزم المدعو بذلك إن وقع منه هذا الفعل، أما التعليل فقوله ﷺ: "فإنها مأوى الهوام بالليل" بعد قوله: "إذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق" ولاشك أن هذا التعليل يزيد المدعو امتثالاً فوق امتثال؛ لمعرفته علة الطلب وسببه.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: مراعاة مصلحة الدواب في السير والرفق بها:

هذا واضح من قوله ﷺ: "إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذ سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السَّيْر، وبادروا بها نقيها".

قال ابن العربي: (فيه الحضّ على الرفق بالدواب، فلها حق الحيوانية التي تشارك فيها الآدمية، ولها على الناس حق الكفاية، لما تحمل عنهم من المؤن، وتبلِّغهم من الآمال، وتجلب إليهم من الفوائد)[1].

وقال أبو العباس القرطبي: (أي ارفقوا بها في الرعي حتى تأخذ منه ما يمسك قواها ويرد شهوتها، ولا تعجلوها فتمنعوها المرعى مع وجوده، فيجتمع عليها ضعف القوى مع ألم كسر شهوتها... وإنما أمر بالإسراع بها في الجدب لتقرب مدة سفرها، فتبقى قوتها الأولى، فإنه إن رفق بها طال سفرها، فهزلت وضعفت. إذ لا تجد مرعىً تتقوى به)[2].

وقال النووي: (ومعنى الحديث: الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها، فإن

---

(١) القبس شرح الموطأ ٢٣/٣٠٦-٣٠٧، موسوعة شروح الموطأ.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٧٦٥.

سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير، فتأخذ حظها من الأرض، بما ترعاه منها، وإن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر، لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نقيها وربما كلت ووقفت، وقد جاء في أول هذا الحديث في رواية مالك في الموطأ[1] ((إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ))[2].

قال ابن عبد البر: (والرفق المذكور في الحديث، أشير به إلى الرفق بالدواب في الأسفار، وأمر المسافر في الخصب بأن يمشي رويداً ومهلاً، ويكثر النزول لترعى دابته، وتأكل من الكلأ وتنال من الحشيش والماء، هذا كله إذا كانت الأرض مخصبة والسفر بعيداً، فإذا كان عام السنة وأجدبت الأرض، فالسنة للمسافر أن يسرع السير ويسعى في الخروج عنها، ... والنقي في كلام العرب الشحم والودك)[3].

وقال الطيبي: (وإنما أثبت لها الحق؛ لأن الله تعالى أنزل من السماء ماءً فأخرج الكلأ والعشب لرعيها، فلا ينبغي أن يهضم حقها منها. وأن المخ أيضاً من حقها، بخلاف اللحم فإن السير سواء كان في الخصب أو في القحط ينقص من اللحم، فإذا كان المخ الذي منه القوة وعليه قيامها باقياً، لا يتطرق إليها ما ينقص من حقها، وفي إذهابه الظلم)[4].

وقال الغزالي عن آداب السفر: (التاسع: أن يرفق بالدابة إن كان راكباً، فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم، وتتأذى به الدابة، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة)[5].

فعلى المسافر خلال سفره، أن يراعي شؤون وسائل المواصلات التي يركبها إن

---

(١) الموطأ ٤١٣٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٥/١٢/٧، .

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٠٨/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٣٣/٧.

(٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١١٠٣/٢.

كانت ملكه أو في عهدته، ويتفقد أحوالها، وما تحتاج إليه من تغيير وتبديل باستمرار حتى يمكنه السير دون حدوث أية مشكلات أو أعطال، قد تؤخره وتؤخر من يحملهم معه فيها، وذلك لأن إهمال هذه الوسيلة يكون مسؤولية، وخاصة إذا كانت لنقل الناس من منطقة إلى أخرى وبأجر معلوم، فأي حادث يقع جراء إهمال فيها يعرض صاحبها إلى المسؤولية أمام الله تعالى وأمام الناس.

لذا عليه دائماً أن يتعهدها ويتفقد أحوالها باستمرار، هذا إذا كانت ملكاً خاصاً، أما إذا كانت ملكاً للدولة أو لشركات كبرى، كالطائرات والقطارات والسفن وغيرها من وسائل النقل، فإن مسؤولية صيانتها وتعهدها وتفقدها ترجع إلى الجهات المباشرة لها والمسؤولين عنها، وهم المسؤولون أمام الله تعالى وأمام الناس عن ذلك.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: عدم النوم ليلاً في الطريق:

هذا واضح من قوله ﷺ: "وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب، ومأوى الهوام بالليل". قال ابن العربي: (ذكر النهي عن التعريس في الطريق، فإن فيه مضرة الآدمي ومضرة الحيوانات، فإنها سبيل الكل)[1].

قال النووي: (هذا أدب من آداب السير والنزول، أرشد إليه ﷺ، لأن الحشرات ودواب الأرض من ذوات السموم والسباع تمشي في الليل على الطرق، لسهولتها ولأنها تلتقط منها ما يسقط من مأكول ونحوه، وما تجد فيها من رمة ونحوها، فإذا عرس الإنسان في الطريق ربما مر به منها ما يؤذيه، فينبغي أن يتباعد عن الطريق)[2].

وقال ابن عثيمين: (كذلك أمر ﷺ أننا إذا عرسنا - نزلنا-ليلاً لنستريح وننام فإننا لا ننام في الطريق، يعني في الجادة لأنها طرق البهائم، الناس يستطرقون هذا الطريق فربما يأتي إنسان غافل فيقع في هذا الطريق[3]، كذلك هي أيضاً مأوى الهوام في هذه الطرق. فلهذا أمر النبي ﷺ ألا ننام في الطرقات بل نرتفع عنها، حتى لا يحرج

---

(١) القبس شرح الموطأ ٣٠٧/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٥/١٣/٧، .

(٣) أي: يقع في هذا الطريق حادث، قد يؤدي إلى إضرار تذهب في بعض الأحيان بالأرواح والأموال.

السائرين على الطريق، وحتى لا نتعرض لأذى الهوام. ومثل ذلك -بل من باب أولى- طرق سيارات اليوم، فإن الإنسان يبتعد عنها، لأنه ربما يأتي سائق ينعس ولو لحظة فيقتحم بسيارته هؤلاء الذين ينامون على الطريق، وتحدث كارثة، فابعد عن هذه الطرق السريعة لا تنم حولها حتى لا تقع في الخطر، وهذا من إرشاد النبي ﷺ)[١].

رابعاً- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما فيه مصلحتهم:

لقد بعث الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، فلم يترك خيراً إلا ودلّ المدعوين عليه، ولم يترك شراً إلا وحذرهم منه، وفي الحديث الذي معنا أرشد النبي ﷺ إلى أمرين مهمين، الأول الرفق بالحيوان في السير ومراعاة مصلحته في ذلك، فلا يكلفه ما لا يطيق، لأن في ذلك أذية للحيوان، كما أن فيه إذهاباً لبعض الأموال، والإسلام جاء بحفظ المال وحمايته، الثاني أرشد النبي ﷺ المدعوين إلى عدم النوم ليلاً في الطريق، لما في ذلك من مضرة تلحق الآدمي والحيوان، والإسلام جاء بنفي الضرر، كل هذا دفع القرطبي في المفهم إلى أن يقول: (وهذه الأوامر من باب الإرشاد إلى المصالح والندب إليها)[٢]، والخلاصة أن النبي ﷺ جاء برعاية مصالح الإنسان والحيوان، قال العز بن عبدالسلام عن الإحسان إلى الدواب المملوكة: (وذلك بعلفها أو رعيها بقدر ما تحتاج إليه، وبالرفق في تحميلها ومسيرها، فلا يكلفها من ذلك ما لا تقدر عليه، وبأن لا يحلب من ألبانها إلا ما فضل عن أولادها، وأن يهنأ جرباها[٣] ويداوي مرضاها، وإن ذبحها: بأن يحد شفرته، ويسرع جرّته، مع إضجاعها برفق، وأن لا يتعرض لها بعد ذبحها حتى تبرد، وإن كان بعضها يؤذي بعضاً بنطح أو غيره، فليفرق بينها وبين ما يؤذيها)[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ٢/١٢١٧-١٢١٨.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٧٦٥.

(٣) أي يعالج جرب إبله بالقطران. يقال: هنأت البعير أهنؤه: إذا طليته بالهناء، وهو القطران. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ ن أ).

(٤) شجرة المعارف والأحوال ١٦١.

والمقصود أن يقتدي الداعية برسول الله ﷺ الذي دلّ أمته على كل خير، وحذر أمته من كل شر، فيبذل جهده وطاقته في أن يبين للمدعوين ما فيه مصلحتهم، ويدلهم على ما فيه نفعهم وصلاحهم في نفوسهم وأولادهم وأهليهم ومجتمعهم وأموالهم، لأن الله سبحانه وتعالى أقامه مقام الناصح الشفيق، فهو كالقمر في ليلة التمام، يملأ الأرض والسماء ضياءً ونوراً.

الحديث رقم (٩٦٤)

٩٦٤- وعن أَبي قتادة رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رسولُ الله ﷺ إذَا كَانَ فِي سَفَرٍ، فَعَرَّسَ بلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينهِ، وَإذَا عَرَّسَ قُبَيلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى كَفِّهِ. رواه مسلم[1].

قَالَ العلماءُ: إنَّمَا نَصَبَ ذِرَاعَهُ لِئَلاَّ يَسْتَغْرِقَ فِي النَّومِ، فَتَفُوتَ صَلاَةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ عَنْ أوَّلِ وَقْتِهَا.

ترجمة الراوي:

أبو قتادة الأنصاريّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١٧).

غريب الألفاظ:

عرَّس: أقام [2].

الشرح الأدبي

أسلوب الحديث قصصي يتتبع فيه الراوي بعد عادات الرسول ﷺ في سفره، وقد صاغ المعنى في ثوب الشرط الذي يربط الجزاء بالفعل، مما يدل على أنه عادة، ثم إن استخدام (كان) يؤكد ذلك مع تكرارها عند استئناف الشرط الثاني الذي يؤكد أنها كانت عادته في النزول في الليل (فَعَرَّسَ بلَيْلٍ اضطجع) كناية عن النوم، وقوله (بليل) توكيد للتعريس، لأن معناه النزول ليلاً، فذكره الليل للتوكيد، وقوله (وَإذَا عَرَّسَ قُبَيلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى كَفِّهِ) أسلوب شرط يربط التعريس قبيل الصبح بنصب الذراع ووضع الرأس على الكتف، وهذه الحالة توحي بعدم الاستغراق في النوم لِئَلاَّ يَسْتَغْرِقَ فِي النَّومِ، فَتَفُوتَ صَلاَةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ عَنْ أوَّلِ وَقْتِهَا.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة في كيفية نوم المسافر ما رواه أبو قتادة رضي الله عنه قال: "كان رسول

---

(١) برقم ٦٨٣/٣١٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (ع ر س).

الله ﷺ إذا كان في سفر فعرّس بليل اضطجع على يمينه، وإذا عرّس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه". قال العلماء: نصب الذراعين؛ لئلا يستغرق في النوم فتفوت صلاة الصبح أو أول وقتها)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: اختلاف هيئة النوم باختلاف قرب وقت الصلاة وبعده.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة.

رابعاً: من آداب المدعو: عدم الإخلاد إلى الراحة لئلا تفوته الصلوات والطاعات.

أولاً- من موضوعات الدعوة: اختلاف هيئة النوم باختلاف قرب وقت الصلاة وبعده:

هذا واضح من الحديث، قال النووي في المجموع: (السنة في كيفية نوم المسافر ما رواه أبو قتادة ... فذكر الحديث. ثم قال: قال العلماء: نصب الذراعين لئلا يستغرق في النوم فتفوت صلاة الصبح أو أول وقتها)[2].

وقال ابن عثيمين: (وكان من هديه ﷺ أنه إذا عرّس في أول الليل اضطجع على يمينه، وإذا عرس قبيل الفجر اتكأ على يده اليسرى، لأنه إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطي النفس حظها من النوم، ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن بل أمر بذلك[3]. أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان أيضاً يعطي نفسه حظها من الراحة، ولا ينسى عبادة ربه، ففي أول الليل يمكنه أن ينام ويشبع قبل الفجر ثم يقوم، أما في آخر الليل فإنه لا ينام نومة المطمئن، بل نومة المستيقظ الذي لا يستغرق في النوم لئلا تفوته صلاة الفجر، وفي هذا دليل على أن

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤ .

(٢) المرجع السابق ١٩٧/٤.

(٣) هو حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن..." أخرجه البخاري ٢٤٧ ومسلم ٢٧١٠.

الإنسان ينبغي له أن يستعمل المنبّه في النوم ينبهه حتى لا تفوته الصلاة، فإنَّ نصب الرسول ﷺ ذراعه من أجل أن ينتبه، كذلك الإنسان ينبغي أن يجعل معه منبهاً للصلاة، فهذا من آداب السفر التي دلّ عليها خير البشر ﷺ)[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من استخدام الصحابي لفظ "كان" ليخبر عن فعل من أفعال النبي ﷺ في السفر، حتى يُعلم المدعوين بذلك، فيقتدوا به ﷺ وينهجوا نهجه فهو قدوتهم وأسوتهم.

قال د. يوسف القرضاوي: (ومن حسن قدر المسلمين أن الله جعل لهم قدوة يقتدون بها، تتجسد فيها مكارم الأخلاق التامة، التي أخذت من ميراث جميع الرسل وزادت عليه، وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣]... ولا يوجد امرؤ من الناس إلا وجد في سيرته ﷺ الشاملة الجامعة ما يأخذ منه الأسوة والهدي الأكمل، يستوي في ذلك الشاب والشيخ والعزب والمتزوج والغني والفقير والحاكم والمحكوم والمسالم والمحارب، ولا يعرف من اجتمعت له هذه الأوصاف إلا محمد ﷺ فشمول سيرته مكافئ لشمول رسالته)[٤].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على المحافظة على الصلاة:

هذا واضح من فعل النبي ﷺ وحرصه على ألا تفوته صلاة الصبح، قال ابن القيم: (إن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٥] أي أقم الصلاة لأجل

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٢١٨/٢.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٥) سورة طه، آية: ١٤.

ذكري... وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾(١) فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو ذاكرٌ مَنْ ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم. وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾(٢) قال: هو قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾(٣) فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه، وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء. وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾(٤) ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق" الحديث(٥).

وكان ابن تيمية يقول: (الصحيح أن معنى الآية: إن الصلاة فيها مقصودان عظيمان: وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر)(٦).

وقال عائض القرني عن أهمية صلاة الفجر: (معيار صلاح الناس وقيامهم بالدين صلاة الفجر جماعة، لأنها في وقت راحة بعد سهر، وإذا أردت أن تعرف الناس في حيِّك فراقبهم في صلاة الفجر، ومما رأيناه وعشناه تخلف الكثير عن صلاة الفجر مع عدم المبالاة والندم على ما حصل، وما ذاك إلا لموت القلوب، وقضية دعوى التدين والتقوى

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٥) وتمامه قول النبي ﷺ: "ذكر الله تعالى" أخرجه الترمذي ٣٣٧٧، وابن ماجه ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٥٧).

(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٣٤٦-٣٤٧ بتصرف يسير جدًا.

سهلة، لكن العبرة بالعمل والتطبيق، فإذا رأيت الرجل مقيماً للصلوات الخمس جماعة ورعاً في منطقه، خائفاً من ربه، نادماً على خطئه، فهذا الذي يرجى له الخير ويبشر به، أما المقصر في الصلوات، المعجب بنفسه، الغافل عن تقصيره، فدعواه مردودة عليه، ومحبته داحضة وهو من المفلسين، وقد رأينا من يظهر التدين والصلاح، فإذا حانت صلاة الفجر خذله شيطانه وهواه، ونفسه الأمَّارة بالسوء عن حضورها جماعة، فغبن في صفقته وخسر ثقة إخوانه المؤمنين، ولا تمدح لنا أحداً ولا تزكي لنا عبداً بل أعماله تمدحه وأخلاقه تزكيه، لأننا مللنا من الثناء على أناس تطبيق الإسلام عندهم باللسان، ولكن إذا حصحص الحق في حضور صلاة، وصدق في قوله، ووفاء بوعد، وقيام بواجب، فإذا الخذلان والفشل والرسوب ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1][2].

رابعاً- من آداب المدعو: عدم الإخلاد إلى الراحة لئلا تفوته الصلوات والطاعات:

وذلك اقتداءً بالنبي ﷺ عندما كان في سفر فإذا أراد النوم قبيل صلاة الفجر، نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه، ولم يضطجع على يمينه، وذلك لئلا تفوته صلاة الفجر، فترك النبي ﷺ راحته من أجل المحافظة على الصلاة، وهكذا ينبغي أن يكون شأن المدعو في حياته كلها، لأنه لو التزم ذلك لتحقق له الخير الكثير في دنياه وآخرته، يقول د. محمد أمين شحادة عن أهمية مغادرة مواطن الراحة من أجل تحقيق الأهداف: (أعني بمواطن الراحة ما ترتاح له النفس البشرية من حالات وأوضاع معينة، لا تحتاج الجهد الجسدي ولا العقلي الكبير، وكل إنسان لديه مواطن معينة يحب صرف وقته فيها، قد يكون موطن راحة الفرد أن يستلقي على ظهره وبيده جهاز التحكم بالتلفاز عن بعد، ويمضي الساعات في مشاهدة البرامج التلفزيونية منتقلاً بين محطة وأخرى، أما بالنسبة لآخر فقد يجد موطن راحته في الجلوس على الشرفة،

---

(١) سورة الصف، آية: ٣.

(٢) هكذا حدثنا الزمان ٨٩.

وقراءة المجلات السطحية، التي تتكلم عن الممثلين والممثلات، وتنقل أخباراً مثيرة عنهم، وقد يجد آخر مواطن راحته في لقاءاته مع الأصدقاء في أوقات وأماكن مختلفة، وقد يكون مواطن الراحة في كثرة النوم، ومواطن الراحة هذه منها ما هو نفسي ومنها ما هو جسدي أو كلاهما معاً.

قال هيرم سميث في كتابه "القوانين الطبيعية العشرة للفعالية في إدارة الوقت والحياة": "إن تمكنك من تحقيق أي هدف يستوجب منك مغادرة مواطن الراحة". وإن الصراع دائر بين هوى النفس الإنسانية الداعية للراحة والدعة التي تجذبه للركون للأرض، وبين الروح الإنسانية المحبة للعلياء، والنهوض بالأمانة، وبلوغ الأهداف المنشودة. والإنسان الذي كوّنه الله من مادة التراب مشدودٌ دوماً للأرض، كموطن الراحة والأمان، ومتاع الدنيا وزينتها، من المال والمعيشة المريحة في البيوت الفاخرة، والأطعمة الشهية، لكن الروح المؤمنة الربانية خلاف ذلك، إنها رامية للعلياء، تشده إلى غايات أسمى.

لكن الصعود بهذه النفس من الركون للأرض إلى العمل الجاد يحتاج الجهد الكبير، وقد يشبه ذلك وجود الإنسان في منتصف هوة عميقة تمثل موطن راحته، حيث لا يحتاج لجهد في بقائه فيها، لكن صعوده منها يحتاج لبذل الجهد والطاقة الكبيرة، وكلما بَعُد عن موطن راحته تطلب ذلك منه جهداً أكبر، وذلك كالكرة التي تتدحرج بقوة الجاذبية للأسفل، وتحتاج الجهد والدفع القوي لصعودها بالجهة المعاكسة.

وصرف جزء كبير من الوقت في مواطن الراحة ضياع له، بينما صرفه في العمل على الأهداف المهمة في حياته، يحتاج الخروج من تلك المواطن والعمل الجاد ولو كرهته النفس، أقول هذا لأن الأعمال المهمة معظمها ليست بالضرورة ممتعة للنفس البشرية، بل تحتاج لتطويع وترويض تلك النفس عليها. لاشك أن النوم في الثلث الأخير من الليل موطن راحة أي إنسان، لكن الذي يسمو إلى العلا قد يأبى نوم هذا الوقت، بل يفضّل إجبار نفسه وجسده على قيام ذلك الوقت تعبداً لله وتزكية لنفسه، وفي ذلك نيله لموطن يصبو إليه كل مسلم، وهو الجنة ونعيمها.

لا شك أن الجلوس والتراخي في البيت من مواطن الراحة، لكن قد يأبى الداعي النشيط إلا الخروج للناس ومخالطتهم ودعوتهم، وتحمل أذاهم أينما كانوا، مستصغراً في سبيل ذلك تعب جسده، ولا شك أن الاطمئنان على النفس والمال من أعظم مواطن الراحة الأساسية في حياة الإنسان حسب دراسات متخصصة في هذا المجال، لكن الكيِّس الطالب رضوان الله تعالى قد يتخطى ذلك الحاجز المادي الذي يشده للأرض، فيخاطر بنفسه وماله، بل قد يضحي بهما في سبيل أهداف يعيشها وغايات ينشدها.

ومواطن الراحة قد تتلاقى مع مواطن الكسل واللهو، وذلك إذا زادت أوقات الراحة عن حدها المعقول، فهذا لا يعني الاستغناء الكامل عن اللهو والراحة، بل لابد من ساعات يستريح بها الإنسان ويروّح عن نفسه، لكن أن تتمحور الحياة بأكملها حول الراحة واللهو والكسل عن العمل، فهو لعمري ضياع للعمر والحياة، وإن ملازمة مواطن الراحة صفة خسيس الهمة وسمة النفوس الفارغة، "إنها صورة النفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد، وتستهتر في مواطن القداسة... والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة، تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف، وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة"[1].

---

(١) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة ص ٤٠٦-٤٠٨ ومصادره ومراجعه.

الحديث رقم (٩٦٥)

٩٦٥- وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ، فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ)) رواه أَبُو داود[1] بإسناد حسن.

(الدُّلْجَةُ): السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

البداية بأسلوب الأغراء يشوق النفس إلى الخبر بعده، والتعبير بالدلجة يوحي بمعان متعددة منها التبكير بأخذ الليل من أوله، ثم الاجتهاد الذي يطرد النوم، ويمنع الكسل ثم اختيار أنسب الأوقات التي تناسب العمل الذي يريد أن يؤديه، وقوله (فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ) جملة تعليلية للأمر السابق، وهي كناية عن سهولة السير، وقطع المسافات، وهو ما تؤكده كلمة (تطوى) وهو استعارة لسرعة السير، تصور الليل بعملاق يطوي بساطاً هو الأرض وصياغة الفعل في صورة المضارع تعطيه تتجدداً، واستمراراً، والتعبير بصيغة ما لم يسم فاعله تعطي الفعل أبعاداً إيحائية حيث يذهب العقل في تصور الفاعل كل مذهب، والتعبير بالأرض يوحي بعموم الطي لجميع الأرض، وليس لمسافة السير فقط، وهو مبالغة في سرعة السير ترغب فيه.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب السير في آخر الليل، لحديث أنس مرفوعًا "عليكم بالدلجة فإن الأرضى تطوى بالليل")[2].

---

(١) برقم ٢٥٧١، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٥٥، وقال الحاكم ٤٤٥/١: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٦٨.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤ .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على السفر ليلاً.

ثالثاً: من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الخير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والتعليل:

أما الأمر فقوله ﷺ "عليكم بالدُّلْجة": أي التزموا السفر بالليل، (فمن صيغ الأمر اسم فعل الأمر: وهو النائب عن الفعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1])[2].

وأما التعليل فقوله ﷺ لبيان علة الأمر "فإن الأرض تطوى ليلاً" واجتماع الأمر والتعليل يدفع المدعو إلى الانقياد فوق الانقياد، والامتثال، فوق الامتثال والإذعان فوق الإذعان.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على السفر ليلاً:

قال العظيم آبادي: (قوله "عليكم بالدُّلْجة": بضم فسكون اسم من أدلج القوم - بتخفيف الدال - إذا ساروا أول الليل، ومنهم من جعل الإدلاج سير الليل كله. وكأنّه المعنى به في الحديث، لأنه عقبه بقوله: "فإن الأرض تطوى بالليل" بصيغة المجهول، أي تقطع بالسير في الليل)[3].

وقال ابن عبدالبر: (وأما قوله "فإن الأرض تطوى بالليل" فمعناه، والله أعلم، أن الدابة بالليل أقوى على المشي إذا كانت قد نالت قوتها واستراحت نهارها، تضاعف مشيها، ولهذا ندب إلى سير الليل، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لمن ودعه ((اللهُمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وازوِ لَه الأَرْض، وهوِّنْ عليه السفَر))[4])[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٢) تعليم أصول الفقه، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٣٦٢.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٩.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٤٥، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٤٠).

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٣٠٨/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

ونقل الطيبي القول في معنى الحديث: (يعني لا تقنعوا بالسير نهاراً بل سيروا بالليل أيضاً، فإنه يسهل بحيث يظنّ الماشي أنه سار قليلاً وقد سار كثيراً)[١].

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أرشد أمته أن يسيروا في الليل وأخبر أن الأرض تطوى للمسافر إذا سافر في الليل، يعني أنه يقطع في الدلجة - الليل-ما لا يقطعه في النهار، وذلك لأن الليل وقت براد فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها، ولهذا عبر النبي ﷺ عن ذلك بأنه تطوى الأرض للمسافر إذامشى في الليل)[٢].

ثالثاً- من مهام الداعية: دلالة المدعوين على الخير:

وهذا واضح من الحديث، فقد دلّ النبي ﷺ المدعوين أن يسافروا بالليل، لأنه أسرع في قطع السفر، فكان في ذلك خيرًا لهم، وقد قال النبي ﷺ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ))[٣].

قال الدكتور القرضاوي: (ومن مظاهر السلوك الحضاري ما طلبه الإسلام من المسلم أن يقوم به في كل يوم من فعل الخيرات، ومن خدمات يقدمها للمجتمع طائعاً مختاراً، تقوية للضعيف وتعليماً للجاهل وإرشاداً للحائر، وإعانة للعاجز وإغاثة للملهوف كما قال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤] الإسلام يجعل من المسلم نبعاً دفاقاً يفيض بالخير والنفع لكل من حوله وما حوله، لا يبخل بمال ولا يضن بجهد ولا وقت، مؤدياً لشكر نعمة الله تعالى عليه، قائماً بحق الأخوة التي تربطه بالمجتمع، والتي جعلها الله تعالى عنوان الإيمان حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٥])[٦].

ولذلك حضّ الإسلام على المسابقة إلى الخيرات، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٣٨/٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢١٩/٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) سورة الحج، آية: ٧٧.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٦) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ٢٦٧-٢٦٨.

فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(٢).

(لقد جاء الحض على المسابقة بالخيرات في كتاب الله، لكنَّ فاعلية تلك الأعمال تتباين بحسب ديمومتها من المنطلق الزمني ومدى نفعها، فكلما حققت الأعمال والأهداف نفعاً أدوم، وبلغت المنفعة قاعدة أوسع، كانت محل خيرية وفاعلية أكبر.

نرى في كتاب الله أن التركيز جليٌّ على فاعلية العمل المتمثل في نشاط الإنسان في حياته الدنيا، على أن يكون أثره الخيّر ممتداً إلى الآخرة، ذلك أن حياة الجسد تنحصر في الدنيا وتتوقف قدرته على العمل عند الموت، بينما يمتد العصر الزمني لفاعلية الأعمال المكتسبة في الحياة الدنيا إلى ما بعد الموت. فبينما نرى أن من يكرِّس وقته لكسب المادة لمتعة نفسه تنتهي فاعلية وقته بالموت، أما من يكرِّس وقته في الخيرات لعامة الناس، فتبقى له هذه الأعمال رصيداً تمتد بمدى تحقيقه للفائدة كماً وكيفاً وزماناً يطول إلى يوم القيامة.

وإنَّ ميادين العمل الفعَّال الخيِّر كثيرة، أهمها فرائض الأعيان التي يعم نفعها الدنيا والآخرة، ثم تُعطى الأولوية لكل عمل له أثر طويل المدى. من ذلك: الصدقة الجارية، بحيث يوظِّف الفرد وقته وجهده وحركته في الحياة لإفادة غيره من الناس خلال حياته وبعد مماته، وهي تشمل كل مشروع يخدم الناس في معاشهم وفي أمور دينهم. وكذلك العلم النافع، وهو الاستفادة من الوقت في طلب العلم وتعليمه وتوريثه، وخاصة العلم الشرعي الذي يعود على الناس بالنفع في دنياهم وأخراهم، والذي تمتد ديمومة الانتفاع به إلى ما بعد موت صاحبه. وكذلك تربية الولد الصالح، وفي ذلك إشارة إلى تكوين أسرة كريمة وتنشئة الأولاد على خلق ودين، فإذا مات الوالدان خلفهما جيلٌ يحمل منهج الله في قلبه ويقدم الخير للبشرية، كما أنه يدعو لهما طالما أنه على قيد الحياة. وهذه الأعمال الثلاثة وردت في الحديث الشريف: ((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))(٣).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه مسلم ١٦٣١.

ومن فاعلية السبق بالخيرات الأعمال التي يستفيد منها عامة الناس، مؤمنين وغير مؤمنين، لتكون وسيلة لعونهم ولهدايتهم ولإنقاذهم من النار، تلك الأعمال لا تكون محدودة بسني العمر المعدودة، وإنما تبقى خالدة في نفعها إلى ما يشاء الله. وإلى هذا المعنى أشار رسول الله ﷺ في الحديث: ((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))[١].

إذن، من حسن إدارة الوقت أن نلتفت بالدرجة الأولى إلى آثار أعمالنا على مستوى البعد الزمني حتى يبلغ أثره الآخرة، وعلى مستوى البعد المنفعي حتى يبلغ أثره عامة الناس. وهذا ما لا نجده عند الوضعيين ممن أبدعوا خططاً للاستفادة من أوقاتهم تنحصر في حدود الكسب المادي الكبير العاجل، دون النظر في مادة العمل.

وإن تحقيق الإصلاح هو الغاية من فعل الخيرات، كما أن الأعمال الموفقة لا تتحقق إلا بنية الإصلاح، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[٢].

والإصلاح لفظة عامة شاملة لكل مجالات الخيرات المتحققة في الحاضر أو في المستقبل، وذلك في إصلاح الحال، وإصلاح الأهل، وإصلاح الأقارب، وإصلاح المسلمين عامة.

ويشمل الإصلاح الجانبين: المادي والمعنوي، كما يشمل الحياتين: الدنيا والآخرة، ويشمل حال الفرد والأسرة، وحال الجماعة والدولة، مما يحقق النهوض والارتقاء إلى وضع أفضل)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٧.

(٢) سورة هود، آية: ٨٨.

(٣) إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحاذة، ٩٩-١٠١.

الحديث رقم (٩٦٦)

٩٦٦- وعن أَبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا[1] مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا في الشِّعَابِ وَالأوْدِيَةِ. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**إنَّ تَفَرُّقكُمْ فِي هذِهِ الشِّعَابِ وَالأوْدِيَةِ إنَّمَا ذلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ!**)) فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. رواه أَبُو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

أبو ثعلبة الخُشَنِّي: صحابي مشهور، معروف بكنيته، اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً وكذلك في اسم أبيه، قيل اسمه جُرْثُوم، وقيل جُرْهم بن ناشب، وقيل: ابن ناشم وقيل: ابن لاشر.

قدم على رسول الله ﷺ وهو يتجهَّزُ إلى خيبر، فأسلم، وضرب له بسَهْمِهِ، وكان ممَّن شهد بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة، وأرسله النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا.

وقد روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث.

وقد قال: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، اكتب لي بأرض كذا وكذا -لأرضٍ بالشام لم يَظْهَرْ عليها النبي ﷺ حينئذٍ- فقال النبي ﷺ ((ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟)) فقال أبو ثَعْلبة: والذي نفسي بيده لتَظْهَرنَّ عليها. فكتب النبي ﷺ له بها[3].

وقد سكن الشام، وقيل حمص، وعاش بعد النبي ﷺ، ولم يقاتل بصفّين مع أحد الفريقين.

قال فيه ناشرة بن سُمِيّ: ما رأينا أصدق حديثاً من أبي ثعلبة الخُشَنِّي، وقال: كان

---

(١) لفظ أبي داود: (إذا نزل رسول الله ﷺ منزلاً).

(٢) برقم ٢٦٢٨، وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٠، وقال الحاكم ١١٥/٢: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧٣.

(٣) أخرجه أحمد ١٩٤/٤ رقم ١٧٧٣٧ من حديث مطول، وقال فيه محققو المسند: صحيح دون قصة الأرض، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين ٢٧٤/٢٩.

لا يأتي عليه ليلة إلا خرج ينظرُ إلى السماء، فينظر كيف هي، ثم يرجع فيسجد.

وكان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني الله كما أراكم تُخنقون عند الموت، فبينما هو يُصلي في جوفِ الليل، قبض وهو ساجد، فرأت ابنته في النوم أن أباها قد مات، فاستيقظت فزعة، فنادت أمها: أين أبي؟ قالت: في مصلاه، فنادته، فلم يُجبها، فأنبهته، فوجدته ميتاً.

نزل الشام ومات في أول إمرة معاوية، وقيل مات في إمرة يزيد وقيل إنه توفي في سنة خمس وسبعين في إمرة عبدالملك، والأول أكثر[١].

غريب الألفاظ:

الشعاب: جمع شعب وهو الطريق في الجبل أو ما انفرج بين الجبلين[٢].

الأودية: جمع الوادي وهو المسيل مما بين الجبلين[٣].

الشرح الأدبي

سبقت الإشارة إلى أن قول الراوي (كان كذا..) يشير إلى عادة في الفعل -غالباً-، ويؤكده استخدام أسلوب الشرط الذي يربط فعلاً بفعل يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه، وقوله (كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ) أسلوب شرط يربط النزول بالتفرق، وقوله (نزلوا منزلاً) فيه جناس يؤكد المعنى من حيث أن العقل يعتقد بادي الأمر أنه أعاد المعنى الأول نفسه فإذا به يؤسس معنى جديداً، فيكون له في

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤١٦/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١٣٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٥٢٤/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٤٤١-١٤٤٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢٦٨/٨-٢٧٠، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٥٠٠/٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٥٦٧/٢-٥٧١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٢٥.

(٣) المرجع السابق، وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و دي).

نفسه فضل تمكن، وكلمة (تفرقوا) توحي بالتفرد، والانعزالية، والوحشة، وصيغة الجمع في (الشعاب - والأودية) تؤكد هذا التفرق، وتزيد البعد مما يسهل على العدو، أو قاطع الطريق، أو الوحش، أو غيرها النيل منهم، وهو موضع الخطأ بعكس المجتمعين، فإنهم يبقون قوة يحمي بعضهم بعضاً، ولذلك جاء تصحيح الرسول ﷺ لهذا الخطأ مؤكداً، ومنصباً على الخطأ مباشرة (إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ)، واستخدام الإشارة (هذه) للذم للتفرق، وأسلوب القصر بإنما يفيد قصر التفرق في الشعاب على كونه من الشيطان لا من غيره، والقصر بإنما خاصة يفيد أن كون التفرق من الشيطان أمر واضح لا يجب أن يُجهل، فكأنه تعريض بغفلتهم عن الأمر مع أهميته، والإشارة بـ (ذلكم) فيها تفخيم للأمر، وتهويل يوجب أخذه بعين الاعتبار، وقصر التفرق على الشيطان فيه تنفير من هذا الفعل، والتزام ضده، وهو الاتحاد، والتجمع، وهي خصلة يحرص عليها الإسلام بين أفراده.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للرفقة أن ينزلوا مجتمعين ويكره تفرقهم لغير حاجة؛ لحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تصحيح ما يقع من المدعوين من أفعال.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الاجتماع عند النزول في الأودية وعدم التفرق.

ثالثاً: من آداب المدعو: الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

أولاً- من مهام الداعية: تصحيح ما يقع من المدعوين من أفعال:

هذا واضح من قول النبي ﷺ لما تفرق أصحابه في الأودية: "إن تفرقكم في هذه الشعب والأودية إنما ذلكم من الشيطان".

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤ .

ومن هذا القبيل ما رواه أبو جحيفة رضي الله عنه قال: ((آخى النبيُّ ﷺ بينَ سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرْداء، فرأى أمَّ الدَّرداءِ متَبذِّلةً فقال لها: ماشأنُك؟ قالت: أخوكَ أبو الدَّرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدُّنيا. فجاءَ أبو الدَّرداءِ فصنَعَ لهُ طَعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائمٌ، قال: ماأنا بآكِلٍ حتى تَأْكُلَ. قال: فَأَكلَ. فلمّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداءِ يقومُ، قال: نَمْ، فنام. ثم ذَهبَ يقومُ، فقال: نَمْ. فلمّا كانَ مِن آخِرِ الليلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا. فقال له سَلمانُ: إنَّ لِربِّك عليكَ حقاً، ولنفْسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه. فأتى النبي ﷺ فذَكرَ ذلكَ له، فقال له النبي ﷺ: صَدَقَ سَلمانُ))(١).

فأقرَّ النبي ﷺ سلمان على ذلك، فكان ذلك من سنته ﷺ (فالسنة النبوية تشمل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته... أما إقراره ﷺ أو تقريره فهو سكوته تجاه أمر شاهده أو سمعه، فيدل ذلك السكوت على موافقته على ذلك الأمر وعدم إنكاره ورفضه)(٢).

قال ابن حجر: (وفيه [أي في حديث أبي جحيفة]: النصح للمسلم وتنبيه من أغفل، وفيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أن ذلك يفضي إلى السآمة والملل، وتفويت الحقوق المطلوبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور)(٣).

والداعية بهذا التصحيح يعالج ما يقع من أفعال من المدعوين يكون فيها خطأ أو خلاف الأولى، ومن ثم لا يسمح لهذه الأفعال بأن ترسخ وتتخذ موقعها في حياة المدعوين، بل هو يقضي عليها أولاً بأول، فلا تأخذ من وقته الكثير، وإنما يصرف جهوده إلى جوانب أخرى تحتاجها الدعوة أشد الاحتياج، كمحاولة الداعية الدائمة الدائبة في الارتقاء بالمدعوين، إلى المستوى الذي يمكنه من إقامة الأهداف الكبرى، وتحقيق الغايات العظيمة التي تحملها دعوته للناس أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٦٨.

(٢) تعليم أصول الفقه، د. نور الدين الخادمي، ١٥٠-١٥١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢١٢/٤.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الاجتماع عند النزول في الأودية وعدم التفرق:

هذا واضح من الحديث: "إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان".

قال النووي في المجموع: (يستحب للرفقة في السفر أن ينزلوا مجتمعين، ويكره تفرقهم لغير حاجةٍ لحديث أبي ثعلبة الخشني)[1].

وقال العظيم آبادي: ("إنما ذلكم" أي تفرقكم "من الشيطان" أي ليخوف أولياء الله ويحرك أعداءه)[2].

وقال ابن عثيمين: (ومن الآداب [أي آداب السفر] أيضاً أنه ينبغي للجماعة ألا يتفرقوا إذا نزلوا منزلاً فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الأودية والشعاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم "إنما ذلكم من الشيطان" يعني تفرقهم. فما نزلوا بعد ذلك منزلاً إلا اجتمعوا جميعاً، لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ، ولو تسلط عليهم عدو في هدأة الليل -وكانوا جميعاً- أمكنهم المدافعة، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا)[3].

وقال السندي: (قوله: "من الشيطان" فإنه الذي يرضى بالتفرق بين المسلمين، حتى يمكن العدو من أن ينال بعضهم بمكروه)[4].

وقيد ابن مفلح الاجتماع بقيد (بحيث لا يضيّق بعضهم على بعض)[5].

إن المدعوين في نزولهم الأودية والساحات في السفر، في نزولهم متفرقين يرضي الشيطان لأنه ينال منهم نيلاً، لأن في تفرقهم هذا انشغال كل فرد بنفسه وقيامه عليها دون أن يجمع إلى ذلك الانشغال بإخوانه المرافقين له، وتلبية ما قد يحتاجون إليه من عونٍ ومددٍ ومساعدة، تكون في بعض الأحيان من الأهمية بمكان، بحيث لو لم يُعَنْ

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٢٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢١٩/٢.

(٤) حاشية السندي على مسند أحمد ٢٧٣/٢٩.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٤٥٤/١.

من طلب العون لربما أدى ذلك إلى وفاته، فإذا وقع هذا، فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين الصادقين، وليس أدل على ما ذكرنا، من شيوع العثور على أشخاص قد ماتوا بمفردهم ولم يستدل على موتهم إلا بانتشار الرائحة الكريهة الناتجة عن تحلل أجسادهم، كما أن انفراد المسافر عن بقية إخوانه المسافرين، فيه تعرض لأن يلحقه الضرر من عدوٍ أو لصٍ أو حيوان مفترس أو نحو ذلك، مع صعوبة إغاثة إخوانه له في الوقت المناسب، فكان في ذلك كله تعريض لجماعة المسلمين أن يلحقها الضرر والأذى، مما يجعل الشيطان يرضى بذلك ويسرّ به، فكان العلاج في الاجتماع وعدم التفرق.

ثالثاً- من آداب المدعو: الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ:

هذا واضح من فعل الصحابة بعد أن أخبرهم النبي ﷺ أن تفرقهم من الشيطان "فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض" وفي الحديث زيادة "حتى يقال لو بسط عليهم ثوب لعمّهم"[1]. وفي مسند أحمد: (حتى إنك لتقول لو بسطت عليهم كساء لعمهم أو نحو ذلك)[2].

ومثال ذلك ما فعله عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما عندما كان يأكل مع النبي ﷺ قال: ((كنتُ غلاماً في حجرِ رسولِ الله ﷺ، وكانت يَدي تطيشُ في الصَّحفةِ، فقال لي رسولُ الله ﷺ: ياغلامُ، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يَلِيك. فما زالت تلكَ طِعمتي بعدُ))[3].

قال ابن حجر: (وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في حال الأكل، وفيه استحباب تعليم أدب الأكل والشرب، وفيه منقبة لعمر بن أبي سلمة لامتثاله الأمر ومواظبته على مقتضاه)[4].

---

(١) هذه الزيادة عند أبي داود في الحديث ٢٦٢٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد ١٩٣/٤ رقم ١٧٧٣٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٢٧٣/٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٥٢٣/٩.

ومن هذا القبيل ما رواه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنهما: ((نِعمَ الرجُل عبدُاللَّهِ، لو كان يُصلِّي منَ الليل. قال سالمٌ: فكان عبدُ اللَّهِ لا يَنامُ منَ الليلِ إلاّ قَليلاً))[1].

ومن ثم كان على المدعو أن يبادر إلى الامتثال لما أرشد إليه النبي ﷺ، لأن في ذلك فوائد عدة ومنافع جمة تلحقه، من ذلك أن الله يحبه، لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، وإجلال الرسول من إجلال الله وتعظيمه، واتباع الرسول هو الطريق الموصلة إلى محبة الله، كما أن إيمان المدعو يزداد، ودخول الجنة والابتعاد عن النار لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح، وخلاصة الأمر، فإن المدعو بامتثاله أوامر النبي ﷺ ونواهيه يجمع بين خير الدنيا وخير الآخرة؛ لأن النبي ﷺ ما أمر إلا بمصلحة وما نهى إلا عن مفسدة، علم ذلك من علمه وجهل ذلك مَنْ جهله.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

هذا واضح من استخدام النبي ﷺ "إن المؤكدة"، قال الطيبي: (قوله: "إنما ذلكم" وقع خبر "إن" كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2] فإن "إن" زيدت للتوكيد وطول الكلام و"ما" لتكفها عن العمل، وأصل التركيب: إن تفرقكم في هذه الشعاب ذلكم من الشيطان)[3]. فجاء التوكيد هنا ليدل أن هذا الفعل مما يجتنب ويترك، ويفعل عكسه وهو الاجتماع.

ومثال هذا التوكيد أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري ١١٢١، ومسلم ٢٤٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٥.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٤١/٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠.

الحديث رقم (٩٦٧)

٩٦٧- وعن سهل بن عمرو – وقيل: سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري المعروف بابن الحنظليَّة، وَهُوَ من أهل بيعة الرِّضْوَانِ ﵁، قَالَ: مَرَّ رسولُ الله ﷺ ببَعيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ ببَطْنِهِ، فَقَالَ: ((**اتَّقُوا الله في هذِهِ البَهَائِمِ المُعجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**)) رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

ابن الحنظلية: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧٩٨).

غريب الألفاظ:

لحق ظهره ببطنه: أي: من الجوع والجهد[2].

المعجمة: التي لا تتكلم[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي (مرَّ رسول الله ﷺ) يشير إلى أنه حدث عرضي مما يصادفه في المجتمع من أحداث طارئة تستلزم الإصلاح، وهي سنة، واجبة على كل الصالحين بعده ألا يتركوا خطأ دون تصحيح، لأن ميزة الأمة المسلمة الإصلاح، وتقويم الخطأ، وقد أسس الإسلام مبدأ عظيماً لذلك، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولكن العجيب في التصرف النبوي العالي أنه جاء رفقاً، ورحمة بالحيوان، وقد كان القوم قريباً في جاهليتهم لا يراعون حق الإنسان، وقول الرسول ﷺ (اتقوا) أمر أريد به التحذير، ونسبته إلى (واو) الجماعة يعطيه شمولاً يتعدى المخاطب الفرد إلى الجمع، وتعلق التحذير بالله يصعِّد الرهبة، ويوجب الخشية، والإشارة (هذه) تقرر المشار إليه أتم تقرير، ووصفها بـ (المعجمة) تتميم بلاغي أفاد نكتة بلاغية، وهي عدم قدرتها على

---

(١) برقم ٢٥٤٨، وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٤٥، وابن حبان، الإحسان ٥٤٥. أورده المنذري في ترغيبه ٣٣٥٦.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٧٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ج م).

الإفصاح حال وقوع الظلم عليها مما يستلزم من صاحبها استشعار حالتها، ورعاية طبيعتها، وقوله (فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً) أمر مؤكد للتحذير السابق المنبثق من الأمر بتقوى الله، وتكرار كلمة صالحة لأنها المعنى الذي يريد أن يقرره، وهو لب الحديث الذي يجعل الصلاح مبدأ التعامل، ومنتهاه حتى مع الحيوان.

فقه الحديث

١- لا يجوز تحميل الدابة فوق طاقتها:

قال النووي: (لا يجوز أن يحمّل الدابة فوق طاقتها، ولو استأجرها فحملها المؤجر ما لا تطيق لم يجز للمستأجر موافقته؛ لحديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء))[1] ولقوله ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))[2] ولحديث سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: (مرّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: ((اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة واركبوها صالحة، وكلوها صالحة))[3])[4].

٢- استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة: قال النووي عن حديث عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: "وفي هذا الحديث استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة بحائط أو هدف أو وهدة أو نحو ذلك، بحيث يغيب جميع شخص الإنسان عن أعين الناظرين، وهذه سنة متأكدة، والله أعلم)[5].

٣- جواز الإرداف على الدابة إن كانت مطيقة:

قال النووي: (يجوز الإرداف على الدابة إذا كانت مطيقة، ولا يجوز إذا لم تكن مطيقة)[6].

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣١٣/١ رقم ٢٨٦٥، وابن ماجه ٢٣٤١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال النووي في الأربعين النووية: الحديث ٣٢: حديث حسن وله طرق يقوى بعضها ببعض، وانظر تخريجه بتوسع في: تخريج المسند ٥٥/٥ . جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٠٧/٢ .

(٣) أخرجه أبو داود ٢٥٤٨ وهو حديث الباب.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩١/٤-١٩٢ .

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣١/٤/٢ .

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٥ .

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: الشفقة والرحمة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالحيوان.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً- من صفات الداعية: الشفقة والرحمة:

هذا واضح من الحديث كله، والحديث وقع عند أحمد وابن حبان بلفظ ((وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَمَرَّ بِبَعِيرٍ مُنَاخٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟ فَابْتُغِيَ، فَلَمْ يُوجَدْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ، ارْكَبُوهَا صِحَاحاً، وَكُلُوهَا سِمَاناً، كَالْمُتَسَخِّطِ آنِفاً))[1]. وبوب ابن حبان على هذا الحديث في الموضع الأول فقال: (ذكر الزجر عن ترك تعاهد المرء ذوات الأربع بالإحسان إليها)[2].

ومن هذا القبيل ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها ركبت بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تُرَدِّدُه فقال لها رسول الله ﷺ ((عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ))[3].

قال أبو العباس القرطبي: (إن الله تعالى يُعطي على الرفق في الدنيا من الثناء الجميل، وفي الآخرة من الثواب الجزيل، ما لا يُعطي على العنف الجائز. وبيانُ هذا بأن يكون أمرٌ ما من الأمور سوَّغ الشرعُ أن يتوصل إليه بالرفق وبالعنف، فسلوكُ طريق الرِّفق أولى لما يحصل عليه من الثناء على فاعله بحُسن الخلق، ولما يترتَّب عليه من حسن الأعمال، وكمال منفعتها، ولهذا أشار ﷺ بقوله: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه". وضدُّه الخُرق والاستعجال، وهو مفسد للأعمال وموجبٌ لسوء الأحدوثة، وهو المعبَّر عنه بقوله: "ولا نزع من شيء إلا شانه". أي: عابه، وكان له شيناً. وأما الخُرق والعنف:

---

(١) أخرجه أحمد ١٨١/٤ رقم ١٧٦٢٥، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١٦٦/٢٩.

(٢) صحيح ابن حبان، الحديث ٥٤٥.

(٣) أخرجه مسلم ٧٩-٢٥٩٤.

فمفوِّتان مصالح الدنيا، وقد يفضيان إلى تفويت ثواب الآخرة؛ ولذلك قال ﷺ: ((مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ))[١]. أي: يفضي ذلك به إلى أن يحرم خير الدنيا والآخرة)[٢].

وقال د. القرضاوي: (ومن مكارم الأخلاق التي عنيت بها السنة التعامل مع الناس بالرفق لا بالعنف، وباللين لا بالخشونة، وبالسماحة لا بالفظاظة، ومجاهدة نوازع الغضب، وعدم الانتصار للنفس، وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة، والحلم عند السَّورة، وتلك بعض مكارم الأخلاق التي يرشد إليها قول الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٣])[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على الرفق بالحيوان:

هذا واضحٌ من الحديث قال ابن حبان: (في قوله ﷺ "اركبوها صحاحاً" كالدليل على أن الناقة العجفاء الضعيفة يجب أن يتنكّب ركوبها[٥] إلى أن تصح، وفي قوله ﷺ "كلوها سماناً" دليل على أن الناقة المهزولة التي لا نِقْي[٦] لها يستحب ترك نحرها إلى أن تسمن)[٧].

وقال الطيبي (قوله: "البهائم المعجمة" قال البيضاوي: المعجمة التي لا تقدر على النطق، فإنها لا تطيق أن تفصح عن حالها وتتضرع إلى صاحبها من جوعها وعطشها، وفيه دليل على وجوب علف الدواب، وأن الحاكم يجبر المالك عليه، وقوله "فاركبوها صالحة" ترغيب إلى تعهدها بالعلف لتكون سمينة صالحة للأكل)[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩٢.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٧٨/٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ص ٢٥٩، وانظر فيه مزيد بيان.

(٥) أي تجنب ركوبها. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن ك ب).

(٦) قال ابن عبد البر: النقي في كلام العرب الشحم والودك. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٣٠٨/٢٣، موسوعة شروح الموطأ.

(٧) صحيح ابن حبان ٣٠٤/٢ بعد الحديث ٥٤٥ ولفظه عنده: "اركبوها صحاحاً وكلوها سماناً".

(٨) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣٨٧/٦.

وقال العظيم آبادي: (المعنى خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم، فتسأل ما بها من الجوع والعطش والتعب والمشقة "وكلوها صالحة" أي حال كونها صالحة للأكل أي سمنة، قاله العزيزي)(١).

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أمر بالرفق بالبهائم وأنه يجب على الإنسان أن يعاملها معاملة حسنة، فلا يكلفها ما لا تطيق، ولا يقصر عليها في أكل أو شرب)(٢).

جاء في الموسوعة الفقهية: (حكم الرفق على وجه العموم الاستحباب، فهو مستحب في كل شيء... ومما ورد في الرفق بالحيوانات النهي عن صبرها وتعذيبها، وبيان فضل سَاقيها والإنفاق عليها، سواء أكانت من الأنعام أم من غيرها. فمما ورد في النهي عن صبر البهائم ما أخرجه مسلم في صحيحه ((مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْراً وَهُمْ يَرْمُونَهُ. وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ. فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هذَا؟ لَعَنَ اللّهُ مَنْ فَعَلَ هذَا. إنَّ رَسُولَ اللّهِ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضاً))(٣). وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((نَهَىٰ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْراً))(٤).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً))(٥).

ومعنى صبر البهائم كما قال العلماء أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً، أي لا تتخذوا الحيوان غرضاً ترمون إليه كالغرض "أي الهدف" من الجلود وغيرها، وهذا النهي للتحريم، ولهذا قال ﷺ في رواية ابن عمر رضي الله عنهما: "لعن الله من فعل هذا"، ولأنه تعذيب للحيوان، وتضييع لماليته،

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥١٥، ومسلم ١٩٥٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٥٩.

(٥) أخرجه مسلم ١٩٥٧.

وتفويت لذكاته إن كان مذكى، ولمنفعته إن لم يكن مذكى. حتى ما يذبح من الحيوان لأكله أمر النبي ﷺ بالرفق به، بإحداد الشفرة وإراحة الذبيحة. قال ﷺ: ((إنَّ اللّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ. فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))(١).

ومما ورد في فضل من سقى حيواناً رفقاً به، ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدّ عليه العطَشُ، فوجدَ بئراً فنزَلَ فيها فشرِب، ثمَّ خرجَ فإذا كلبٌ يَلهَثُ يأكلُ الثَّرى منَ العطَشِ، فقال الرجل: لقد بلغَ هذا الكلبَ منَ العطش مثلُ الذي كان بلغَ بي، فنزلَ البئرَ فملأَ خُفَّه ثم أمسَكَهُ بفيهِ فسقى الكلبَ، فشكرَ اللّهُ له فغفَر له: قالوا: يارسولَ الله، وإنَّ لنا في البَهائم أجراً؟ فقال: في كلِّ ذاتِ كبِدٍ رَطبةٍ أجرٌ))(٢).

وأما النفقة على الحيوان رفقاً ورحمة به، فقد اتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على المملوك منه ديانة، واختلفوا في الإجبار عليها والقضاء بها على من عنده بهيمة لا ينفق عليها، فذكر الحنفية في ظاهر الرواية أنه لا يجبر عليها، لأن الجبر على الحق يكون عند الطلب والخصومة من صاحب الحق، ولا خصم، فلا يجبر، ولكن تجب فيما بينه وبين الله تعالى، وروي عن أبي يوسف أنه يجبر عليها، لأن في تركه جائعاً تعذيب الحيوان بلا فائدة وتضييع المال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك كله، ولأنه سفه لخلوه عن العاقبة الحميدة، والسفه حرام عقلاً.

وذكر المالكية أن نفقة الدابة إن لم تكن ترعى، واجبة ويقضي بها، لأن تركه منكر، وإزالته يجب القضاء به، خلافاً لقول ابن رشد يؤمر من غير قضاء، ودخل في الدابة هرة عميت فتجب نفقتها على من انقطعت عنده حيث لم تقدر على الانصراف، فإن قدرت عليه لم تجب نفقتها، لأن له طردها.

ومذهب الشافعية في هذه المسألة قريب مما ذكره المالكية وأبو يوسف من

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٦٦، ومسلم ٢٢٤٤.

الحنفية، فقد ذكر النووي في الروضة أن من ملك دابة لزمه علفها وسقيها، ويقوم مقام العلف والسقي تخليتها لترعى وترد الماء، إن كانت مما يرعى ويكتفى به لخصب الأرض ونحوه ولم يكن مانع ثلج وغيره، فإن أجدبت الأرض ولم يكفها الرعي لزمه أن يضيف إليه من العلف ما يكفيها، ويطرد هذا في كل حيوان محترم "يحرم التعرض له"، وإذا امتنع المالك من ذلك أجبره السلطان في المأكولة على بيعها، أو صيانتها عن الهلاك بالعلف أو التخلية للرعي أو ذبحها. وفي غير المأكولة على البيع أو الصيانة فإن لم يفعل ناب الحاكم عنه في ذلك على ما يراه ويقتضيه الحال، وعن ابن القطان أنه لا يخليها لخوف الذئب وغيره، فإن لم يكن له مال باع الحاكم الدابة أو جزءاً منها أو أكراها، فإن لم يرغب فيها لعمى أو زمانة "مرض مزمن" أنفق عليها بيت المال.

وقول الحنابلة في هذه المسألة كقول الشافعية، فقد جاء في الكافي أن من ملك بهيمة لزمه القيام بعلفها لما روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ ربَطَتْها حتى ماتَت فدخَلَتْ فيها النارَ، لا هي أطعَمَتْها ولا سقَتْها إذ حبَسَتها ولا هيَ ترَكتها تأكلُ من خَشاش الأرض))[1]. فإن امتنع من الإنفاق عليها أجبر على بيعها، فإن أبى أكريت وأنفق عليها، فإن أمكن وإلا بيعت، كما يفرق بينه وبين زوجته إذا أعسر بنفقتها.

وتذكر كتب الحنابلة أيضاً أنه يحرم على مالك الدابة أن يحملها ما لا تطيق حمله، لأن الشارع منع تكليف الإنسان والحيوان ما لا يطيق، ولأن فيه تعذيباً للحيوان الذي له حرمة في نفسه وإضراراً به. ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها، لأن كفايته واجبة على مالكه، ويسن للحالب أن يقص أظفاره لئلا يجرح الضرع، إلى غير ذلك مما ذكروه في هذا الباب)[2].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة..." وجاء هذا الأمر

---

(١) أخرجه البخاري ٢٣٦٥، ومسلم ٢٢٤٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢/٢٩١-٢٩٧ ومصادرها ومراجعها.

مناسباً لحالة إهمال البعير من قبل صاحبه، فقد لحق ظهره ببطنه من الجوع[1]، فأمر رسول الله ﷺ بالعناية بالبعير والاهتمام بأكله ورعايته، مذكراً في ذلك بالله عز وجل، ليكون امتثال الأمر واقعاً وحادثاً من قِبَل المدعوين بأسرع ما يكون.

(١) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

الحديث رقم (٩٦٨)

٩٦٨- وعن أَبي جعفر عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: أردفني رسولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، وَأسَرَّ إليَّ حَديثاً لا أُحَدِّثُ بِهِ أحَداً مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رسولُ الله ﷺ لِحاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ. يَعنِي[1]: حَائِطَ نَخْلٍ. رواه مسلم[2] هكَذا مُختصراً.

وزادَ فِيهِ البَرْقانيُّ[3] بإسناد مسلم -بعد قَوْله: حَائِشُ نَخْلٍ- فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ، فَإذا فِيهِ جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأى رَسولَ الله ﷺ جَرْجَرَ وذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ - أي[4]: سِنَامَهُ - وَذِفْرَاهُ فَسَكَنَ، فَقَالَ: **((مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟))** فَجَاءَ فَتَىً مِنَ الأنْصَارِ، فَقَالَ: هَذَا لِي يَا رسولَ الله. قَالَ: **((أفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هذِهِ البَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاهَا؟ فَإنَّهُ يَشْكُو إلَيَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدْئِبُهُ))** رواه أَبُو داود[5] كرواية البرقاني.

قوله: "ذِفْرَاه" هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث. قال أهل اللغة: الذِّفرَى: الموضع الذي يَعْرف البعير خلف الأذن، وقوله: "تُدْئِبُهُ" أي تتعبه.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن جعفر بن ابي طالب: علم من أعلام الصحابة، وفضلائهم، صحابي ابن صحابي، وهو: عبدالله بن جعفر بن أبي طالب القرشيُّ الهاشميُّ، كان يكنى بأبي

---

(١) قال مسلم: قال ابن أسماء في حديثه: يعني: حائط نخل.

(٢) برقم ٣٤٢/٧٩.

(٣) نقله المؤلف عن الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣٣١/٣ رقم ٢٧٨٣ ونصه: وفي هذا الحديث زيادة حذفها مسلمٌ، وأخرجها البرقاني في كتابه مع الحديث، من رواية عبد الله بن محمد بن أسماء، ورواها أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، عن شيبان بن أبي شيبة بالإسناد الذي أخرجه مسلم متّصلة بقوله: (وكان أحب ما استتر به لحاجته هدفٌ او حائش نخل) ثمّ ذكره.

(٤) لفظ الحميدي في جمعه: (إلى) بدل: (أي).

(٥) برقم ٢٥٤٩.

جعفر المدني، وقيل بأبي هاشم، وكان يلقب بالجواد ابن الجواد، وكان يسمى بحرُ الجود، ويقال له قطب السخاء، ويقال: إنه لم يكن في الإسلام أسخى منه.

ولد بأرض الحبشة، ولدته أمه أسماء بنت عميس، وهو أول مولود وُلِدَ في الإسلام بأرض الحبشة، وقدم مع أبيه المدينة وحفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه، ووجّه رسول الله ﷺ أباه إلى مؤتة فرزقه الله الشهادة ولقب بجعفر الطيار، ونشأ عبدالله بن جعفر وإخوته في حجر رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يعامله معاملة أبناء أهل بيته، ودعا له رسول الله ﷺ بالبركة، وذكر أنه يشبهه خَلْقاً وخُلقاً، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال ((بعث رسول الله ﷺ جيشاً استعمل عليهم زيد بن حارثة فإن قُتِل زيد أو استشهد فأميركم جعفر، فإن قُتِل أو استشهد فأميركم عبدالله بن رواحة... ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل أو استشهد.. قال: فأمهل ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إليّ ابنيْ أخي قال: فجيء بنا كأننا أفرُخٌ، فقال: ادعوا لي الحلاق فجيء بالحلاق فَحَلَق رؤوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبدالله فشبيه خَلْقِي وخُلُقي، ثم أخذ بيدي فأشالها[1]، فقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات، قال: فجاءت أمنا، فذكرت له يُتْمنا، وجعلت تُفْرِح له، فقال: العَيْلَة[2] تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!))[3]

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تُلُقِّيَ بالصبيان من أهل بيته، قال: وإنه قدم مرة من سفر، قال: فسُبِق بي إليه، قال: فحملني بين يديه، قال: ثم جيء بأحد ابنيْ فاطمة، إما حَسَن، وإما حسين، فأردفه خلفه، قال: فدخلنا المدينة ثلاثةً على دابة[4].

---

(١) أشالها: أي رفعها.

(٢) العَيْلَة بمعنى الفقر والفاقة والحاجة.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٤/١ رقم ١٧٥٠ وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم ٢٧٩/٣.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٢٨.

وعن عبدالله بن جعفر -أيضاً- أنه قال: ((أردفني رسول الله ﷺ ذات مرة خلفه، فأسرّ إليّ حديثاً لا أُخبرُ به أحداً))[١].

وكان عبدالله بن جعفر جوّاداً، مُمَدَّحاً، كريماً، ظريفاً، خليقاً، عفيفاً، لا يأخذ أجراً على معروف، ما سابقه أحد إلى معروف إلا سبقه، أتى البصرة والكوفة، والشام.

مات النبي ﷺ وعمر عبدالله بن جعفر عشر سنوات، ومات عبدالله سنة (٨٠) وهو ابن (٨٠) سنة، حضر غسله وكفّنه وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان، وهو يومئذ أمير المدينة، وذلك العام يعرف بعام الجحاف لسيلٍ كان بمكة أجحف بالحاج، وذهب بالإبل وعليها الحمولة، وقال المدائني، مات سنة (٨٤) أو (٨٥) وقال أبو عبيد: توفي سن (٨٤)، وقيل مات سنة (٩٠) وهو ابن (٩٠) سنة[٢].

غريب الألفاظ:

لحاجته: البول والغائط[٣].

الهدف: هو ما ارتفع من الأرض[٤].

حائش نخل: وهو النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه بعضاً[٥].

حائطاً: أي بستاناً[٦].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٢٩

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٨٧، ٣٨٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٩٩/٣-٢٠١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٥٢، ٧٥٣، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٠١/٤، ١٠٢، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣١٣/٢، وسير أعلام النبوة ٤٥٦/٣-٤٦٢، والسندي ٢٧١/٣، والأعلام، خير الدين الزركلي ٧٦/٤، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١١٧١/٢-١١٧٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (ح و ج).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ د ف).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ح و ش).

(٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

جرجر: أي ردّد صوته في حنجرته عند الضجر. وعند أبي داود ٢٥٤٩: حنّ: أي رجع صوته وبكى[1].

ذرفت عيناه: أي سال من عيني الجمل الدمع حين رآه ﷺ[2].

ذفراه: هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث. قال أهل اللغة: الذِّفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف أذنه[3].

تدئبُهُ: أي: تتعبه[4].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري خلى من المؤكدات؛ لأن الراوي يحكي حدثا خصا به مع رسول الله ﷺ وقوله (أردفني رسولُ الله ﷺ ذاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ) يدل على تواضع الرسول ﷺ وحسن خلقه، وحبه لأبي جعفر ﷺ والرديف الراكب خلف غيره، وقوله (خلفه) توكيد للفعل، وفيه خصوصية، وشرف الركوب خلف الرسول ﷺ، وقوله (وأسر إلى حديثاً) التعبير بالإسرار يوحي بالخصوصية، وتنكير كلمة (حديثاً) للتعظيم، وقوله (لا أحدث به أحدا من الناس) خبر قصد به تأكيد الخصوصية، والجملة صفة للحديث، وبين أحد ث، وأحد جناس يقرر المعنى ويؤكده، وقوله (وكان أحب ما يستتر) التعبير بكان يشير إلى العادة، وأفعل التفضيل (أحب) يشير إلى اختياره في العادة (حائش نخل) التعبير بالحائش، وهو الحائط من النخل يشير إلى الستر لارتفاعه، وبعده عن الناس، والرواية الثانية تشير إلى صورة من صور الرحمة النبوية بالحيوان، مع تجاوب حي فعال يدلل على رأفة من نوع خص به ﷺ وقول الراوي عن الجمل (فَلَمَّا رَأَى رَسولَ اللهِ ﷺ) يدل على تجاوب الجمل مع الرسول ﷺ، ومعرفته له، وهي من معجزات النبي،

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ر ج ر)، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٧٧، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

(٣) رياض الصالحين ٣٧٧.

(٤) المرجع السابق ٣٧٧.

وخصوصياته، وقوله (جَرْجَر) الجرجرة تردد صوت البعير في حلقه، وهو كناية عن الشكوى، (وذَرَفَتْ عَيْنَاه) كناية عن البكاء، وقول الرسول ﷺ (فَأَتَاهُ النَّبيُّ ﷺ) يشير إلى القصد، والإرادة مما يعكس عظم الرحمة التي حركته تجاوباً مع حيوان أعجم، تؤكدها لمسة حنان، ومودة كما يفعل أحدنا مع طفله الصغير إذا بكى رحمة به في قوله (فَمَسَحَ سَرَاتَهُ -أيْ: سِنَامَهُ- وَذِفْرَاهُ) والفاء تشير إلى سرعة التجاوب في قوله (فَسَكَنَ)، والتعبير بالسكون الذي يوحي بالرضا، والطمأنينة، والأمان واستفهام الرسول بعد معرفة حال الجمل يدل على التجاوب الفعلي البناء الذي يغير الوضع الخطأ، وليس مجرد التعاطف القلبي الذي لا يتعدى التأثر الداخلي قال: (مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟) وهذا الاستفهام يحمل مع طلب الفهم تنبيهاً إلى الخطأ، ولوماً على هذه الحال، والسؤال بلفظ (رب) المضافة للإشارة تقرر أن التقصير في لوازم الربوبية من العناية، والحفظ، وقوله (أفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هذِهِ البَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاهَا؟) استفهام انكار، وتوبيخ صعَّده بالإشارة في قوله: (هذه البهيمة) وعلله بقوله (فَإنَّهُ يَشْكُو إلَيَّ أنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ) والتعبير بالجوع، والدأب إشارة إلى تضعيف العناء عليه، لأنه جمع مع الدأب جوعاً، والحديث يحكي أروع أمثلة الرحمة، والتجاوب بين الإنسان، والحيوان في عصر لم يعرف الرحمة حتى بالإنسان.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الإرداف على الدابة مع الرفق بها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: كتمان السر والمحافظة عليه وعدم إفشائه.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الاستتار عند قضاء الحاجة.

خامساً: من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة شكوى الجمل للنبي ﷺ.

سادساً: من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما:

تتضح مكانة عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما من قوله: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه وأسرّ إليّ حديثاً". فدل ذلك على مكانته وعلو منزلته.

قال الذهبي: (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم السيد العالم أبو جعفر القرشي الهاشمي الحبشي المولد المدني الدار الجواد بن الجواد ذي الجناحين. له صحبة ورواية، عداده في صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم مؤتة فكفله النبي ﷺ ونشأ في حجره. وهو آخر من رأى النبي ﷺ وصحبه من بني هاشم، وكان كبير الشأن كريماً جواداً يصلُح للإمامة. هاجر جعفر إلى الحبشة فَولَدت له أسماء عبدالله وعوناً ومحمداً.

عن عبدالله بن جعفر ((أَنَّ النبيَّ أتاهم بعدما أخبرهم بقَتْلِ جعفر بعد ثالثة، فقال: لا تَبكُوا أخي بعدَ اليوم ثم قال: ائتوني ببني أخي، فجيءَ بنا كأننا أفرخ، فقال: ادعوا لي الحلاق فأمره، فحَلَقَ رؤوسنا، ثم قال: أَمّا مُحمدُ فشبْهُ عمِّنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيهُ خَلْقِي وخُلُقي ثم أخذ بيدي، فأشالها[1]. ثم قال: اللهم اخلُفْ جعفراً في أهله، وبارِكْ لعبدِ الله في صفقته قال: فجاءتْ أُمُّنا، فذكرتْ يُتمنا. فقال: العيلةَ[2] تخافينَ عليهم وأنا وَلِيُّهُم في الدُّنيا والآخرة؟))[3].

قال الشعبي: كان ابن عمر إذا سلم على عبدالله بن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[4]... ولعبد الله بن جعفر أخبار في الجود والبذل، وكان وافر الحشمة كثير التنعم. قال الواقدي ومصعب الزبيري: مات في سنة ثمانين ...)[5].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الإرداف على الدابة مع الرفق بها:

هذا واضح من الحديث: "أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه".

قال النووي: (لا يجوز أن يحمّل الدابة فوق طاقتها، ولو استأجرها فحملها المؤجر ما

---

(١) أي رفعها، القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٠٢١.

(٢) العيلة: الفقر، انظر النهاية في غريب الحديث ٦٥٤، والقاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي في (ع ل ي).

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٤/١، رقم١٧٥٠، وقال محققو المسند: إسناده صحيح اهـ، وقد صححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٥٣٢).

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٠٩.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢٣٦٠/٢-٢٣٦١، الدولية، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٥٢-٧٥٣.

لا تطيق لم يجز للمستأجر موافقته، لحديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال: "إن النبي ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[١] ولقوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[٢] ولحديث سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: "مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: "اتقوا الله في البهائم المعجمة واركبوها صالحة وكلوها صالحة" رواه أبوداود[٣] بإسناد صحيح... ويجوز الإرداف على الدابة إذا كانت مطيقة ولا يجوز إذا لم تكن مطيقة. فأما دليل المنع إذا لم تطق فالأحاديث السابقة قريباً مع الإجماع. وأما جوازه إذا كانت مطيقة ففيه أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. منها: حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أردفه حين دفع من عرفات إلى المزدلفة ثم أردف الفضل بن عباس من مزدلفة إلى منى" رواه البخاري ومسلم[٤]... وفي صحيح مسلم[٥] عن عبدالله بن جعفر قال: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّىَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِى إِلَيْهِ فَحَمَلَنِى بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ جِىءَ بِأَحَدِ ابْنَىْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلاَثَةً عَلَى دَابَّةٍ)). وفي المسألة أحاديث كثيرة، وإذا أردف كان صاحب الدابة أحق بصدرها، ويكون الرديف وراءه، إلا أن يرضى صاحبها بتقديمه لجلالته أو غير ذلك)[٦].

وأما الرفق بالدابة فيستفاد من مسح النبي ﷺ سنام الجمل وذفراه حتى سكن، وسؤاله ﷺ عن صاحبه، ثم أمره ﷺ صاحبه بالإحسان إليه، والرفق، بعد أن شكا الجمل إليه، أنه يتعبه ويجيعه.

فكان هذا طلبًا من المدعوين إلى أن يرفقوا بالحيوان ويحسنوا إليه.

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٨٩٥، ١٨٩٦). وانظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٠٧ وما بعدها.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٥٣٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٢١).

(٤) أخرجه البخاري ١٦٦٩، ومسلم ١٢٨٠.

(٥) أخرجه مسلم ٢٤٢٨.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩١-١٩٢، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/١٢٢٠.

قال العز بن عبدالسلام: (الإحسان إلى الدواب المملوكة: وذلك بالقيام بعلفها، أو رعيها بقدر ما تحتاج إليه، وبالرفق في تحميلها ومسيرها، فلا يكلفها من ذلك ما لا تقدر عليه، وبأن لا يحلب من ألبانها إلا ما فضل عن أولادها، وأن يهنأ جرياها[١]، ويداوي مرضاها. وإن ذبحها: بأن يحد شفرته، ويسرع جرته، مع إضجاعها برفق، وأن لا يتعرض لها بعد ذبحها حتى تبرد، وإن كان بعضها يؤذي بعضاً بنطح أو غيره فليُفرِّق بينها وبين ما يؤذيها فـ"في كل كبدٍ رطبة أجر". و﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٢].

و((لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)).

وإن رأى من حمل الدابة أكثر مما تطيق فليأمره بالتخفيف عنها، فإن أبى فليطرحه بيده، فـ ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يقدر فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يقدر فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمانِ))[٣].

وقال ﷺ: ((إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ، فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ. وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ، فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا))[٤]. ((وقد غفر لبغيٍّ بسقي كلب))[٥])[٦].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: كتمان السرّ والمحافظة عليه وعدم إفشائه:

هذا واضح من قول عبدالله بن جعفر "وأسر ﷺ إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس"[٧].

وكان هذا أدب الصحابة رضي الله عنهم، قال أنس بن مالك: ((أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ سراً فما أخبرتُ به أحداً بعدَه، ولقد سألتني أمُّ سُلَيم فما أخبرتها به))[٨].

---

(١) أي عالج جرب إبله بالقطران. يقال: هنأت البعير أهنؤه: إذا طليته بالهناء وهو القطران. النهاية في (هـ ن أ).
(٢) سورة الزلزلة، آية: ٧.
(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.
(٤) أخرجه مسلم ٤٩.
(٥) أخرجه مسلم ١٩٢٦.
(٦) أخرجه البخاري ٣٣٢١، ومسلم ٢٢٤٥.
(٧) شجرة المعارف والأحوال ص ١٦١ – ١٦٢.
(٨) أخرجه البخاري ٦٢٨٩، ومسلم ١٤٦-٢٤٨٢.

وفي رواية عند مسلم عن ثابت البناني عن أنس قال: ((أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ. قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا. فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ. فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي. فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لاَ تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَداً. قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَداً لَحَدَّثْتُكَ، يَا ثَابِتُ))(١).

قال ابن حجر: (قال بعض العلماء: كأن هذا السر كان يختص بنساء النبي ﷺ وإلا فلو كان من العلم ما وسع أنساً كتمانه)(٢).

وقد قال أبوبكر رضي الله عنه: ((فلم أكُنْ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ))(٣).

جاء في الموسوعة الفقهية: (ما استكتمك إياه الغير وائتمنك عليه فلا يجوز بثه وإفشاؤه للغير، حتى أخص أصدقاء وأصحاب صاحب السر، فلا يكشف شيئاً منه ولو بعد القطيعة بين من أسر ومن أُسر إليه، فإنه ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن)(٤).

فمن الوفاء أن يحافظ المسلم على سرّ أخيه فيكتمه وإلا كان غادراً، ومن حق المسلم على المسلم أن يكتم عنه ما يكون قد وصل إليه من سرّه، خاصة إذا كان قد تعهد له بحفظ هذا السرّ وعدم إذاعته، ومن هنا كان كتمان السرِّ نوعاً من الوفاء بالعهد، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾(٥)(٦).

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الاستتار عند قضاء الحاجة

وهذا واضح من الحديث، "وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هَدَفٌ أو حائش نخل يعني حائط نخل".

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٥-٢٤٨٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨٢/١١.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٢٢ مطولاً.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٩٣/٥ ومصادرها ومراجعها.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٢٠٦/٦.

قال النووي: (أما الهدف فهو ما ارتفع من الأرض وأما حائش النخل فقد فسره في الكتاب بحائط النخل وهو البستان وهو تفسير صحيح... وفي هذا الحديث من الفقه استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة بحائط أو هدف أو وهدة أو نحو ذلك بحيث يغيب جميع شخص الإنسان عن أعين الناظرين، وهذه سنة متأكدة)[١].

وقال ابن القيم عن هديه ﷺ في قضاء الحاجة: (وكان إذا ذهب في سفره للحاجة انطلق حتى يتوارى عن أصحابه، وربما كان يبعد نحو الميلين. وكان يستتر للحاجة بالهدف تارةً وبحائش النخل تارة وبشجر الوادي تارة)[٢].

وقال د. محمد رواس قلعه جي عن آداب قضاء الحاجة: (إذا خرج إلى الفضاء لقضاء الحاجة فيستحب له أن يبعد عن الناس بحيث لا يسمعون منه صوتاً ولا يشمون ريحاً ولا يميزون عورة لو انكشفت، إن لم يكن هناك ساتر)[٣].

خامساً- من موضوعات الدعوة: من دلائل النبوة: شكوى الجمل للنبي ﷺ:

هذا واضح من الحديث عند أبي داود، وقد ساق هذا الحديث البيهقي في دلائل النبوة[٤] وابن كثير في كتاب دلائل النبوة من السيرة النبوية من كتاب البداية والنهاية[٥] وقد اعتنى ابن كثير بإيراد طرق حديث البعير وقال (وقد اعتنى الحافظ أبو نعيم بحديث البعير في كتاب "دلائل النبوة" وطرقه من وجوهٍ كثيرة)[٦].

وقال ابن عثيمين: (وهذا من آيات النبي ﷺ أن البهائم العجم تشكو إليه إذا رأته ﷺ لأن هذا من آيات الله التي يؤيد الله بها رسوله ﷺ فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يكذبه الناس، لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال: أنا

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٧/٤/٢، .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١٧١/١.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٥٣/١.

(٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٢٦/٦.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٩/٩-١٠.

(٦) المرجع السابق ١٦/٩.

رسول الله ﷺ لكم بدون آية ما صدقوه. لكن الله تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون، وأعظم آيات أعطيها الأنبياء ما أعطيه النبي ﷺ وقد ذكر ابن كثير في "البداية والنهاية"[١] وغيره أيضاً أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما له شخصياً وإما لأتباعه، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، لكن لم يعط أحد من الأنبياء مثل ما أعطى النبي ﷺ من هذا الوحي -القرآن- ولهذا قال: ((إِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٢]، لأن هذا الوحي باق إلى يومنا هذا، والناس كلما قرأوه ازدادوا إيماناً، لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على أن رسول الله ﷺ رسول الله حقاً)[٣].

سادساً- من أساليب الدعوة: الاستفهام والتوكيد:

أما الاستفهام فظاهر في قوله ﷺ "من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟ "وجاء الاستفهام مناسباً هنا، حتى يعرف النبي ﷺ صاحب هذا الجمل لكي يوصيه بالجمل خيراً لأنه قد شكا الجمل إليه حاله، ولهذا لما عرف النبي ﷺ صاحبه استخدم معه أسلوب الاستفهام المنفي "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟" ليكون أبلغ في التقريع واللوم وبيان التقصير في رعاية الجمل، لأن النبي ﷺ يعلم حال الجمل بشكواه إليه، فلا ينتظر جواباً من صاحب الجمل بهذا الاستفهام، وإنما يريد معاتبته ولومه، ولهذا أتبع الاستفهام بالتوكيد بقوله: "فإنه يشكو إليّ أنك تجيعه وتدئبه". فكان هذا دعوة لصاحب الجمل ولغيره أن يرفق بالحيوان ولا يتعبه ولا يهمله.

---

(١) المرجع السابق ٥٤٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩٨١، ومسلم ١٥٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٢٢٠/٢.

الحديث رقم (٩٦٩)

٩٦٩- وعن أنس رضي الله عنه ، قَالَ: كُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلاً ، لاَ نُسَبِّحُ حَتَّى نَحُلَّ الرِّحَالَ. رواه أَبُو داود[1] بإسناد عَلَى شرط مسلم.

وقوله: "لا نُسَبِّحُ": أي لا نصلي النافلة، ومعناه: أنا -مع حرصنا على الصلاة- لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا نُسبحُ: أي لا نصلي النافلة ومعناه: أنَّا مع حرصنا على الصلاة لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب[2].

الرحال: جمع رَحْل: وهو ما يُوضَعُ على ظهر البعير، وكل شيء يعدُّ للرحيل من وعاءٍ للمتاع وغيره[3].

الشرح الأدبي

قول أنس رضي الله عنه كنا يشير إلى أنها عادة القوم في النزول ليلا يدل على ذلك استخدام أسلوب الشرط الذي يربط النزول بترك صلاة النافلة مع حرصهم عليها حتى يريحوا دوابَّهم، وهو من الأدب العالي الذي علمهم إياه النبي في الرفق بالحيوان، والتعبير بإذا في الشرط يشير إلى التحقق، وقوله نزلنا منزلا فيه جناس يؤكد المعنى، والتعبير عن صلاة النافلة بالسبح من المجاز بتسمية الكل بجزئه، إشارة إلى شرف هذا الجزء، وهو التسبيح المتضمن لتنزيه الله تعالى.

---

(١) برقم ٢٥٥١. قال الهيثمي في المجمع ١٠/١٣٢: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد.

(٢) رياض الصالحين ٣٧٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ح ل).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الرفق بالحيوان.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: صلاة النافلة في السفر.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من قول أنس رضي الله عنه: "كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبّح حتى نَحُلَّ الرحال". فهذا إخبار عن حال صحابة رسول الله ﷺ -أيام عصر النبوة- في سفرهم، وذلك ليقتدي المدعوون بهم ويعملوا مثلما عملوا، ومن أسلوب الإخبار قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((كنّا إذا صَعِدْنا كبَّرنا، وإذا نزَلنا سبَّحنا))[1].

ولا شكّ أن أسلوب الإخبار أنسب في نقل الأفعال اليومية أو المتكررة التي يراها المدعو من الداعية.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة على الرفق بالحيوان:

هذا واضح من الحديث، قال النووي في الرياض: (وقوله: ولا نسبح، أي لا نصلّي النافلة، ومعناه: أنا - مع حرصنا على الصلاة- لا نقدمها على حط الرحال وإراحة الدواب)[2].

(قال الخطابي: (يريد لا نصلّي سبحة الضحى حتى نحط الرحال ونجمّ المطي[3]، وكان بعض العلماء يستحب أن لا يطعم الراكب إذا نزل حتى يعلف الدابة. وأنشدني بعضهم فيما يشبه هذا المعنى:

حق المطية أن يبدأ بحاجتها ... لا أُطْعم الضيف حتى أعلف الفرسا)[4]

وقال النووي عن آداب السفر: (الثالثة والعشرون: يستحب أن يريح دابته بالنزول عنها

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٩٣، ٢٩٩٤.

(٢) رياض الصالحين ص ٣٧٧.

(٣) أي نريحها، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ١٣٤-١٣٥.

(٤) معالم السنن ٣/٣٨٨.

غدوة وعشية وعند عقبة ونحوها. ويتجنب النوم على ظهرها... وأما المكث على ظهر الدابة وهي واقفة فإن كان يسيراً فلا بأس، وإن كان كثيراً لحاجة فلا بأس، وإن كان لغير حاجة فهو مكروه، ودليل ما ذكرناه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ، فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكُمْ)) رواه أبو داود بإسناد جيد[١]. وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "اركبوا هذه الدواب سالمة وايتدعوها[٢] سالمة ولا تتخذوها كراسي" رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي. قال الحاكم: هو صحيح[٣].

وأما جوازه للحاجة ففيه الأحاديث الصحيحة المشهورة أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات على ناقته وأنه خطب يوم النحر بمنى على ناقته[٤]، وغير ذلك من الأحاديث)[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: صلاة النافلة في السفر:

هذا واضح من الحديث "لا نسبح حتى نحلّ الرحال"، قال النووي عن آداب السفر والمسافر: (ينبغي له المحافظة على الطهارة وعلى الصلاة في أوقاتها وقد يسر الله تعالى بما جوزه من التيمم والجمع والقصر)[٦].

قال ابن القيم: (وكان من هديه ﷺ في سفره الاقتصار على الفرض ولم يحفظ عنه ﷺ سنة الصلاة قبلها ولا بعدها، إلا ما كان من الوتر وسنة الفجر. فإنه لم

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٦٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٣٨).

(٢) في المطبوع: ابتدعوها. وقال محققو المسند: وكله تصحيف: والصواب: ايتدعوها، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٩٦٥: أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها وهو افتعل من ودُع بالضم. مسند أحمد ابن حنبل، ٣٩٩/٢٤ الحاشية ٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ رقم ١٥٦٣٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤٠٠/٢٤.

(٤) انظر هذه الأحاديث في منتقى الأخبار لابن تيمية الجد: عبدالسلام، وشرحه نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني، كتاب المناسك: باب المسير من منى إلى عرفة والوقوف بها وأحكامه، وباب استحباب الخطبة يوم النحر ص ٩٢٠، ٩٣١ على التوالي.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٤.

(٦) المرجع السابق ١٩٧/٤.

يكن ليدعهما حضراً ولا سفراً. وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد سئل عن ذلك: فقال: صحبت النبي ﷺ فلم أره يسبح في السفر. وقال الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1])[2] ومراده بالتسبيح السنة الراتبة. وإلا فقد صحّ عنه ﷺ أنه كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه، وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان النبيُّ ﷺ يُصلِّي في السَّفرِ على راحلتهِ حيثُ توجهَتْ بهِ يُومِىءُ إيماءً صلاةَ الليلِ إلا الْفرائضَ، ويوترُ على راحلتهِ))[3].

قال الشافعي: وثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتنفل ليلاً وهو يقصر، وفي الصحيحين عن عامر بن ربيعة: أنه رأى النبي ﷺ يصلّي السبحة بالليل في السفر على ظهر راحلته[4] فهذا قيام الليل. وسئل الإمام أحمد، عن التطوع في السفر؟ فقال: أرجو ألا يكون بالتطوع في السفر بأس. وروى عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها. وروى هذا عن عمر وعلي وابن مسعود وجابر وأنس وابن عباس وأبي ذر. وأما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر. وهذا هو الظاهر من هدي النبي ﷺ أنه كان لا يصلّي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً، ولكن لم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها. فهو كالتطوع المطلق لا أنه سنة راتبة للصلاة كسنة صلاة الإقامة، ويؤيد هذا أن الرباعية قد خففت إلى ركعتين تخفيفاً على المسافر، فكيف يجعل له سنة راتبة يحافظ عليها وقد خفف الفرض إلى ركعتين. فلولا قصد التخفيف على المسافر وإلا كان الإتمام أولى به. ولهذا قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لو كنت مسبحاً لأتممت، وقد ثبت عنه ﷺ أنه صلى يوم الفتح ثماني ركعات ضحىً[5] وهو إذ ذاك مسافر[6].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري ١١٠٢، ومسلم ٦٨٩.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٠٠، ومسلم ٧٠٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٠٩٣، ومسلم ٧٠١.

(٥) أخرجه مسلم ٧١-٣٣٦.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤٧٣/١-٤٧٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس الرحمة في النفوس:

إن للرحمة أثرًا عظيمًا في النفوس، حيث تشرح الصدور وتفتح القلوب، ولذا تحث التربية على غرس الرحمة في نفوس الأجيال من خلال التوجيهات الرشيدة والمواقف العملية عبر وسائل التربية والتعليم والتوجيه، لأن التنشئة والتربية إذا قامت على أسس قيمة، كالرحمة ونحوها، فإنها ستجعل الفرد مرتبطاً بدينه وتاريخه، وبالتالي يحافظ على ما يرثه من وجود التراب والعمران والناتج النافع ليسلمها بدوره إلى من يأتي بعده وفي تلك الحركة الشمولية رحمة لاشك فيها[1].

وقد وردت الإشارة إلى التعامل بخلق الرحمة في أحاديث الباب سواء أكان مع النفس أم كان مع الغير.

أما بالنسبة للرحمة مع النفس فيترائى لنا ذلك جلياً في إرشاده وتوجيهه ﷺ للمسافر بتجنب النوم في مأوى الدواب والهوام، وكذا الأماكن التي يغلب عليها الظن بوجود إيذاء ونحوه، فقال: ﷺ: «وَإِذَا عَرَّسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ ، فَإِنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِ وَمَأْوَىٰ الْهَوَامِ بِاللَّيْلِ»

أما بالنسبة للرحمة بالغير فإن الرسول ﷺ أرشد إليها داعياً إلى عموم هذا الخلق الكريم حتى شمل الرفق والرحمة بالحيوان، كما نرى ذلك في وصيته ﷺ بإعطاء الدواب حظها من الغذاء والشراب، كما في قوله ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الخَصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِن الأرضِ، وإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الجَدْبِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وبادِرُوا بها نِقْيَهَا»، وحظها من الراحة، كما رأينا ذلك في عتابه ﷺ لذلك الرجل الذي يجيع جمله ويدأبه في العمل، فقال ﷺ: «أفَلاَ تَتَّقِي اللهَ في هذهِ البَهِيمَةِ التي

---

(١) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ٨٥-٧٧/٢٦.

مَلَّكَكَ اللَّه إِيَّاهَا فإنَّهُ يشَكو إِلَيَّ أَنَّكَ تُجيعُهُ وَتُدْئِبُهُ».

إن تَخَلُّق الإنسان بالرحمة من صفات الكمال البشري ولها أطيب الأثر وأحسنه، فخلق الرحمة يجعل المرء يرقى لآلام الخلق ويسعى لإزالتها ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهداية، ومن ثَمَّ فإن الرحمة هي كمال في الطبيعة، لأن تبلد الحس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان، ويسلبه أفضل ما فيه، والرحمة هي العاطفة النابضة بالحب والرأفة، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثمَّ كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز[1].

ثانياً- تصحيح الأوضاع الخاطئة:

إن من مهام المربي تصحيح الأوضاع الخاطئة وتقويم السلوكيات المعوجة وإرشاد المتعلمين والمتربين إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

ونرى هذا الأسلوب بادياً في أحاديث الباب التي عالجت السفر وآدابه وتعديل ما يشوبه من أخطاء سلوكية وعادات خاطئة، ومن تلك الأخطاء ما كانوا يفعلونه من تفرق إذا نزلوا حال سفرهم في مكان للاستراحة والاستجمام فأرشدهم النبي ﷺ إلى أهمية الاجتماع وعدم التفرق، فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: «كانَ النَّاسُ إِذا نزَلوا منزِلاً تفرَّقوا في الشِّعابِ والأوديَةِ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ تفرُّقَكم في هذه الشعابِ والأوْديةِ إِنَّما ذلكم منَ الشيطانِ». فلم ينزلوا بعدَ ذلكَ منزلاً إلاَّ انضَمَّ بعضُهم إلى بعضٍ». وذلك لما في "تجمعهم من حسن التنظيم وتكتيل القوة والاستعداد للطوارئ، ثم إن هذا التفرق ليس إلا وسوسة شيطانية لإيذاء المسلمين، هكذا وصى النبي ﷺ أصحابه، وسرعان ما استجابوا لإشارته وانتفعوا بتوجيهاته[2].

إن على المسلم سواء كان متعلماً أم كان معلماً أو مُربياً أن يأخذ على عاتقه تغيير السلوكيات الخاطئة بأسلوب تربوي مناسب، فلا يتعامل في سُوقه معاملة جاهلية مبتعدة عن شريعة الله، ولا يسمح في بيته أو في حلقة درسه ومواطن تدريسه وتعليمه بأي

(١) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٢٠٣-٢١٢.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٢٦.

لون من ألوان الجاهلية من التبرج وإظهار المفاتن، أو تضييق الثياب أو الحفلات الحديثة النابية عن أخلاق وتقاليد الإسلام فضلاً عن الاختلاط المحرم(١)، وما شاكل ذلك.

إنَّ مهمة المربي السامية فضلاً عن التلقين العلمي والتثقيفي تغيير الأوضاع السيئة وتصحيح الأفكار الخاطئة والسلوكيات المنحرفة بأسلوب تربوي مناسب.

ثالثاً- اغتنام الساعات المناسبة:

إن لكل عمل ساعاته المناسبة له التي تزداد فيه نسبة النشاط وسهولة العمل وكثرة الإنتاج، فمثلاً أنسب الأوقات للأسفار الطويلة ساعات الليل وأول النهار إذ أن السير في الليل أسرع في الغالب منه في النهار نظراً لقلة الزحام وقلة اشتغال النظر بما حوله نتيجة إسدال الليل ستوره من الظلام إضافة إلى ما في هذه الساعات من تيسير الله تعالى للسائرين فيها لأنها أوقات لنزول الرحمات خاصة وما يصاحب هذه الساعات من طيب في الجو ولطف في المناخ، ولذا جاءت وصية رسول الله ﷺ في أحاديث الباب في توخي هذه الساعات واستثمارها، ومن ذلك ما جاء في صريح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُم بالدُّلْجَةِ، فَإنَّ الأرْضَ تُطْوَى باللَّيْلِ».

ويستفاد من ذلك في مجال التربية لا بقصد ساعات الليل في التحصيل والمذاكرة، فما من شك أن ساعات البكور أصفى ذهناً وأكثر تحصيلاً منها في الليل، ولكن المستفاد هو اغتنام الساعات المناسبة لكل عمل فالعمل الذهني غير العملي العضلي فلكل وقته ولكل احتياجاته، وملابساته.

فعن العمل الذهني وتحصيل العلوم والفنون "فقد أثبتت التجارب العلمية أن الإنسان يمتلك أعلى درجات طاقته وصفاء ذهنه عند الصباح الباكر شريطة أن تكون هذه الساعات خاصة بالشخص وحده وبعيدة عن كل المقاطعات وخارجة عن نطاق الأعمال اليومية الروتينية(٢)".

إن اغتنام الأوقات الفاضلة المناسبة للأعمال على اختلاف تنوعها يعني للمتربي شيئاً

---

(١) انظر: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، ٢/٤٠٦-٤٠٩.

(٢) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة ص ٤٠٨-٤١١.

آخر هو إنزاله عمله دائماً من الوقت الملائم له، فأجزاء الليل والنهار متفاوتة قيمة من حيث عطاء المرء، نوعه وقدره، فالحريص من ينزل كل عمل فيما يناسبه من وقت[1].

رابعاً- التربية بتنمية الشعور الإنساني:

إن من أبرز ما تميزت به التربية الإسلامية، أنها تُنمي في الإنسان الشعور الإنساني والرفق حتى بالحيوانات، وبكل ما من شأنه أن يعين الإنسان في حياته -بعد الله تعالى- ومن ثمَّ فقد جاءت التوجيهات النبوية التربوية التي تحث على الرفق بالإبل -التي كانت من أبرز وأهم وسائل النقل آنذاك- لأن ذلك أدعى لإنجاز المهمات ولاستمرار نشاط تلك الرواحل في الأسفار بدلاً من إجهادها وإنهاك قواها، مما يؤدي إلى تعطل المصالح.

لذا أمر رسول الله ﷺ الصحابة في أسفارهم بالمحافظة على سلامة دوابهم، وشاهد ذلك من أحاديث الباب ما ورد عن سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: « مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فقالَ اتَّقُوا اللهَ في هذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً». وذلك بغية المحافظة عليها وعلى قوتها حتى تتمكن من المواصلة والمسير، ويقاس على الدواب والرواحل وسائل النقل المختلفة باستخدامها الاستخدام المعقول، وصيانتها وإصلاح ما تلف وعطب منها، وعدم المغامرة بالسير بها وهي غير صالحة للسير مما يعرض حياة الإنسان للخطر.

ومما نستفيده من أحاديث الباب من الناحية التربوية والتعليمية تعويد الطلبة والتلاميذ على المحافظة على الثروات والمرافق التعليمية التي يتلقون فيها التعليم من مدارس ومؤسسات تعليمية وما يلحق بها من مكتبات وما تحتويه من أدوات، فإن المحافظة على تلك المرافق والمؤسسات لا تقل أهمية عن تأسيسها وتجديدها، ولو غرس في الطلاب حب هذه المؤسسات والمحافظة عليها، حتى تستمر عملية الانتفاع بها من قِبَل الآخرين، وهذه تربية إيمانية عالية أن المسلم يشعر وهو يتعامل مع المرافق العامة

(١) انظر: سوانح وتأملات في قيمة الزمن، خلدون الأحدب ص ٧٠.

وكأنها ملك خاص به فيحافظ عليها، ويعمل على صيانتها ويعمق هذا الشعور في الآخرين مما يخفف العبء عن الدولة في هذا البند وبالتالي يكون المسلم مسهماً في تنمية مجتمعه محافظاً على مؤسساته وممتلكاته، إنه ينبغي للقائمين على التربية والتعليم تعزيز انتماء المؤمن لوطنه ومنجزاته الحضارية ومدنه الصناعية ومشاريعه التنموية من خلال التنشئة على حب الوطن والمحافظة على مؤسساته والوقوف في وجه الإرهاب والتخريب وكل محاولة من شأنها النيل من المنجزات الوطنية.

إن التربية الإسلامية تربية شمولية تعمل على تعميق الحب والانتماء داخل الإنسان وتعمل على تعزيز العلاقة الوثيقة بين الإنسان والكون بكل ما فيه من مخلوقات وإنجازات.

خامسًا- التربية الوقائية:

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتهم في الجدب فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نقْبها، وإذا عرّستهم فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل، فلقد تضمن هذا الحديث بعض الأمور التي تندرج تحت نطاق التربية الوقائية، وذلك على التالي:

أ- المحافظة على وسيلة السفر من الدواب وهي في الأغلب الأعمّ من الإبل. وذلك بإعطائها حقها من الطعام وتركها ترعى وتأكل الأعشاب والنباتات في وقت الخصب، أما إذا كان الوقت وقت جفاف وندرة الطعام فإنه ينبغي الإسراع بها وعليها حتى لا تصاب بالضعف والهزال من قلة الطعام.

ب- اجتناب الطريق عند النزول بالليل لنوم أو راحة أو نحو ذلك، لأن ذلك يقي الإنسان من الخطر والأذى ويقيه الضرر والعَطَب، لكون هذه الطرق مسلوكة بالدواب والحيوانات، كما أنها مأوى الهوام التي قد تؤذي الإنسان.



١٦٩- باب إعانة الرفيق

في الباب أحاديث كثيرة تقدمت كحديث:

((وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أخِيهِ)) (١).

وحديث: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ)) (٢) وأشْبَاهِهِما.

الحديث رقم (٩٧٠)

٩٧٠- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ (٣) إذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً، فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ (٤) زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ))، فَذَكَرَ مِنْ أصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَهُ، حَتَّى رَأيْنَا، أنَّهُ لاَ حَقَّ لأحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ. رواه مسلم (٥).

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

فضل: زيادة (٦).

الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب (٧).

فيلعُدْ: فيُفضِل (٨)، وقيل: عاد بمعروفه: أحسن ثم زاد (٩).

---

(١) تقدم برقم ٢٤٥.

(٢) تقدم برقم ١٣٤.

(٣) عند مسلم زيادة: (مع النبي صلى الله عليه وسلم).

(٤) عند مسلم زيادة: (من).

(٥) برقم ١٨/١٧٢٨، وتقدم برقم ٥٦٦.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف ض ل).

(٧) المرجع السابق في (ظ هـ ر).

(٨) تاج العروس في (ع و د).

(٩) مقاييس اللغة في (ع و د).

الشرح الأدبي

قوله (فجعل يصرف بصره يميناً، وشمالاً) كناية عن البحث والحيرة التي تدل على الحاجة، مما استلزم الدعوة للتكافل وقد بنى الرسول ﷺ حديثه في الدعوة للتكافل على أسلوب الشرط، وأسلوب الشرط يعلق الجزاء على الفعل، ويتميز بشدة الاتصال مع التشويق الذي يثيره فعل الشرط لمعرفة جوابه واستخدام (مَنْ) كأداة للشرط وهي لعموم من يعقل، وكأنها تنادي من له أدنى عقل بالاستجابة، وقوله: (فضل ظهر) المقصود به الدابة، وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأنه عبر بالجزء وهو الظهر، وأراد الكل وهو الدابة، وفضل المجاز على الحقيقة أن لفظ (الظهر) يعين نوع الفائدة المرادة من الجنس ليوازي ما عطف على هذه الجملة من الزاد، وغيره، والظهر أيضاً أدل على شدة الحاجة إليه للركوب، أو الحمل، وتعبيره ﷺ بلفظ المعية (معه)، لأنه أعم من حروف الملكية والاختصاص، وأصدق وأولى في التآزر منها، وأشمل في بذل المنفعة، وأنفى للاستئثار، والشعور بالتملك في مواطن الإيثار، وتنكيره ﷺ لكلمة (ظهر) للتقليل إشارة إلى أن الشيء مهما قل ففيه المشاركة والتعاون، وتحقيق التكافل الذي أمر به الإسلام، وحتى لا يحقر إنسان فضل ما عنده، فيكون تنكيره أعود بالنفع على المؤمنين، فالتكافل شعور، وإحساس بحال الآخرين قبل أن يكون فعل، حتى يعم مبدأ التكافل بين الأغنياء، والفقراء، وبين الفقراء فيما بينهم كل بما يستطيع، وهو ذكاء شديد من النبي ﷺ وأسلوب عالٍ في تحقيق تماسك المجتمع بتعاون الجميع، وهذا ما حققه بأسلوبه حيث وضع كلمة (ظهر) و (زاد) وهما مركز الحديث، منكرتين لإفادة التقليل الذي يستوعب ما قل من فضل الظهر والزاد، حتى يشارك كل فرد في التكافل، ولا يَحْتجَّ أحد بقلة ذات اليد، والأمر في قوله ﷺ: (فليعد به) في الجملتين بالعودة يشعر بانصراف الطبع عما ينبغي من حب النفس، وإيثارها بالمال إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل في تماسك الفرد بالجماعة، وقد جعل الإسلام الضعيف أمير الركب حتى يحس بالعزة والكرامة فتقوى نفسه، ويزداد إيمانه بعدالة الإسلام ورحمة

المجتمع فيرتفع عن الحقد، ويسمو عن الحسد، ولا يعرف الشماتة[(١) (٢)].

فقه الحديث

١- مساعدة الرفقة: قال النووي: (يسن مساعدة الرفيق وإعانته؛ لقوله ﷺ: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))[(٣)] ولقوله ﷺ: ((كل معروف صدقة))[(٤)] وعن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر ... الحديث، وحديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو ... الحديث)[(٥)].

٢- جواز الاعتقاب: قال النووي: (يجوز الاعتقاب على الدابة، وهو أن يركب واحد وقتًا ثم ينزل ويركب الآخر وقتًا)[(٦)].

المضامين الدعوية[(٧)]

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية صـ ٣٠٤.

(٢) ينظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ٥٩

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٢١، ومسلم ١٠٠٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤ .

(٦) المرجع السابق ١٩٢/٤-١٩٣ .

(٧) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٦٦).

الحديث رقم (٩٧١)

٩٧١- وعن جابر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : أنَّهُ أرَادَ أنْ يَغْزُوَ، فَقَالَ: ((يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، إن مِنْ إخْوَانِكُمْ قَوْماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ، وَلاَ عَشِيرَةٌ، فَلْيَضُمَّ أحَدكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَو الثَّلاَثَةَ، فَمَا لأَحَدِنَا مِنْ ظَهْرٍ يَحْمِلُهُ إلاَّ عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ)) يَعْني: أحَدهِمْ، قَالَ: فَضَمَمْتُ إلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً، مَا لِي إلاَّ عُقْبَةٌ كَعقبة أحَدهِمْ مِنْ جَمَلِي. رواه أبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الظَهْر: الإبل التي يُحمل عليها وتُركب[2].

العُقْبة: النَّوبة، أو المرة الواحدة من الركوب[3].

الشرح الأدبي

قوله (يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ) نداء عام للفئة المذكورة بعد، والمعشر الجماعة التي تجمعها صفات مشتركة معينة، وتخصيص المهاجرين، والأنصار لأنهم عامة المسلمين يومئذ، وتوكيد الجملة بعدها ينبه على أهمية الأمر، وعناية المتكلم به، والتعبير بلفظ الأخوة، وإضافته إليهم تعميق لهذا الإحساس، ولفت إلى العمل بموجبه، ، والأمر في قوله (فَلْيَضُمَّ أحَدكُمْ إلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَو الثَّلاَثَةَ) أمر إرشاد، وتوجيه إلى ما يحقق التكافل، ويتغلب على المشكلة، ويقوي روح الاتحاد، وقوله: (أحدكم) شمول للجميع بالحكم، وقوله (فَمَا لأَحَدِنَا مِنْ ظَهْرٍ يَحْمِلُهُ إلاَّ عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ) أسلوب قصر لأن يكون لأحدهم من ظهر يحمله سوى العقبة، وهي النوبة على البعير، ومعناه أنهم

---

(١) برقم ٢٥٣٤. وقال الحاكم ٢/٩٠: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

(٣) المرجع السابق في (ع ق ب).

يتناوبون على البعير الواحد كل واحد يمشي مسافة، ويركب مسافة بالتبادل مع إخوانه، وقول الراوي (فَضَمَمْتُ إِلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً) تطبيق عملي لتوجيه النبي ﷺ يدل سرعتهم في امتثاله دلت على ذلك الفاء، والماضي الدال على التحقق، وأسلوب القصر (مَا لِي إِلاَّ عُقْبَةٌ كَعقبة أحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي) الدال على مساوته لهم في التناوب على جمله دون زيادة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد والأمر والتعليل.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: إعانة الرفيق في السفر.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: إشاعة روح التعاون والتكافل بين المدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء والتوكيد والأمر والتعليل:

أما النداء فقوله ﷺ: "يا معشر المهاجرين والأنصار"، والنداء لتنبيه المنادى لما يكون بعد النداء، وهو هنا الإخبار المؤكد "إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة" وبعد هذا الإخبار جاء الأمر "فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة". وهذا جاء تعليلاً للحاجة والشدة التي فيها الصحابة وقتئذ، "فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عقبة كعقبة يعني أحدهم".

فكان النداء والتوكيد والتعليل مقدماتٍ لأمره ﷺ وكل هذا يدعو إلى المسارعة إلى الامتثال، وهذا ما أخبر به جابر رضي الله عنهما راوي الحديث: فضممت إليّ اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: إعانة الرفيق في السفر:

هذا واضح من أمر النبي ﷺ أصحابه، بأن يضم كل واحد معه ظهر من الدواب، اثنين أو ثلاثة ممن لا يملكون ظهراً، كما أنه واضح كذلك من امتثال الصحابة لما أمر به النبي ﷺ. وقال النووي في المجموع عن آداب السفر: (يسن مساعدة الرفيق وإعانته لقوله ﷺ ((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) وهو

حديث صحيح مشهور في صحيح مسلم[١] وغيره وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))[٢])[٣].

ومن باب إعانة الرفيق الاعتقاب، قال النووي في المجموع أيضاً عن آداب السفر ومسائله: (الخامسة والعشرون: يجوز الاعتقاب على الدابة، وهو أن يركب واحد وقتاً ثم ينزل ويركب الآخر وقتاً. وجاءت فيه أحاديث كثيرة، منها حديث عائشة رضي الله عنها في قصة هجرة النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة قالت: ((فلمَّا خَرَجَا خَرَجَ مَعَهُ عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ يَعْتَقِبَانِ حتَّى أَتَى المدينةَ)) رواه البخاري[٤]. وعن ابن مسعود قال: ((كُنَّا يومَ بدرٍ اثنينِ على بعيرٍ، وثلاثةً على بعيرٍ، وكان زَمِيلَيْ رسولِ الله ﷺ عَلِيٌّ وأبو لُبَابَةَ الأنصاريُّ رضي الله عنهما، وكانتْ إذا حانَتْ عُقْبَتُهُمَا، قالاَ: يا رسولَ الله ارْكَبْ نَمْشِي عَنْكَ، قالَ: إنَّكُمَا لَسْتُمَا بأَقْوَى عَلَى المَشْيِ مِنِّي، ولا أَرْغَبُ عن الأجرِ مِنْكُمَا)) رواه النسائي والبيهقي[٥] بإسناد جيد)[٦]. وقد بوّب ابن حبان على حديث ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر إباحة تعاقب الجماعة البعير الواحد في الغزو عند عدم القدرة على غيره[٧].

وقال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أمر أن يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد حتى يكون الناس كلهم سواء)[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٢١، ومسلم ١٠٠٥.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٣/٤.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن ٢٥٨/٥ ثم قال: رواه البخاري في الصحيح. لكن لم نعثر عليه إلى الآن في صحيح البخاري فلينظر.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى ٣٩٠١ والبيهقي في السنن ٢٥٨/٥ كما أخرجه أحمد ٤١١/١ رقم ٣٩٠١، وقال محققو المسند: إسناده حسن. وقد توسعوا في تخريجه فلينظر ١٧/٧.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٢/٤-١٩٣.

(٧) صحيح ابن حبان ٣٥/١١ الحديث ٤٧٣٣.

(٨) شرح رياض الصالحين ١٢٢١/٢.

ثالثاً- من أهداف الدعوة: إشاعة روح التعاون والتكافل بين المدعوين:

هذا واضح من الحديث ومن فعل الصحابة ﷺ، قال العظيم آبادي عن قول جابر: ("فضممت إليّ اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي". قال: والمعنى لم يكن لي فضل في الركوب على الذين ضممتهم إليّ، بل كان لي عُقْبة من جملي مثل عقبة أحدهم)[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٢].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إنّ الأشْعَريينَ إذا أرمَلوا في الغَزو أو قلّ طعامُ عيالهم بالمدينةِ جَمعوا ما كان عندَهم في ثوبٍ واحد، ثمّ اقتَسَموهُ بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسّويّةِ، فهم مِنّي وأنا منهم))[٣].

ومعنى أرملوا في الغزو (نفد زادهم وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل، كما قيل للفقير: الترب)[٤].

قال النووي: (في هذا الحديث فضيلة الأشعريين، وفضيلة الإيثار والمواساة، وفضيلة خلط الأزواد في السفر، وفضيلة جمعها في شيء عند قلتها في الحضر ثم يقسم)[٥].

وقال النووي كذلك: (قوله ﷺ "فهم مني وأنا منهم" معناه: المبالغة في اتحاد طريقتهما واتفاقهما في طاعة الله تعالى)[٦].

ومن هذا القبيل ما رواه عبدالله بن واقد الليثي رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الضحايا [الأضاحي] بعد ثلاث ثم قال: ((إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ. فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا))[٧].

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠٩٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر م ل).

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨/١٦/٦٠، .

(٦) السابق ٨/١٦/٢٦، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/١٣٠.

(٧) أخرجه مسلم ١٩٧١.

قال النووي: (قال أهل اللغة: الدافة -بتشديد الفاء- قوم يسيرون جميعاً سيراً خفيفاً ودافة الأعراب من يرد منهم المصر. والمراد هنا: من ورد من ضعفاء الأعراب للمواساة)[١].

ونقل النووي عن بعض العلماء أنه (لو وقع مثل تلك العلة اليوم فدفت دافة واساهم الناس)[٢].

وقال ابن القيم: (المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم. وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له. ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم)[٣].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: (من المواساة جبر خاطر المسلم وإدخال السرور على قلبه: لما كانت المواساة تقتصر على مشاركة المسلم لأخيه في المال والجاه أو الخدمة والنصيحة. أو غير ذلك، فإن من المواساة مشاركة المسلم في مشاعره خاصة في أوقات حزنه، وعند تعرضه لما يعكر صفوه، وهنا فإن إدخال السرور عليه وتطييب خاطره بالكلمة الطيبة، أو المساعدة الممكنة بالمال أو الجاه، أو المشاركة الوجدانية، هو من أعظم المواساة وأجل أنواعها، وقد كان ﷺ يواسي بالقليل والكثير، وقد علمنا أن من أقال مسلماً من عثرته أقال الله عثرته، وأن الله عز وجل لا يزال في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه.

إن حاجة المسلم تتنوع وتختلف من موقف إلى آخر، فهناك من تكون حاجته إلى المال، وهناك من تكون حاجته إلى عملٍ أو وظيفة، وهناك من تكون حاجته إلى كلمة

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٤١/١٣/٧، .

(٢) السابق ١٤٠/١٣/٧.

(٣) الفوائد ٢٤٦-٢٤٧.

طيبة وهناك من تكون حاجته إلى دفع الظلم عنه، وهناك من تكون حاجته إلى مشاركة الناس له في أتراحه أو أفراحه، وهناك من تكون حاجته في وضع الدين عنه أو إرجائه، إلى غير ذلك من الحاجات، وكل ذلك يدخل في إطار القاعدة العامة للمواساة، وهي أن يكون المسلم في حاجة أخيه، وعلى المسلم أن يعرف أن فائدة هذه المواساة لا ترجع إلى صاحب الحاجة "المواسى" فقط، وإنما تشمل أيضاً المواسي، لأن الله عز وجل يكون في حاجته، هذا في الدنيا، ويجازيه عليها أفضل جزاء يوم القيامة.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن من لقي أخاه بما يحب ليسره بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة، لقد حفلت سير أعلام النبلاء بنماذج مشرقة من المواساة، ومن تأمل هذه الصفحات المشرقة التي حفلت بها سير هؤلاء، يتبين أن مجالسة المساكين والتحدث معهم، فيه جبر خاطرهم وإدخال السرور عليهم، وإذا كان الإنسان واجداً فإنه يتكفل بنفقة هؤلاء وإعالتهم، مع المحافظة على كرامتهم، وتقديم المعونة لهم سراً)[1].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٨/٣٤٦٠. وانظر فيها: نصوص الأحاديث المذكورة في النص وتخريجها.

الحديث رقم (٩٧٢)

٩٧٢- وعنه، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي المَسير، فَيُزْجِي الضَّعِيف، وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُ[1]. رواه أَبُو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

فيزجي: يسوق[3].

يُرْدِفُ: يركب خلفه[4].

الشرح الأدبي

في الحديث مثال ماثل على الدهر يعلم القادة في كل زمان، ومكان رعاية أمتهم، وتفقد الضعفاء، والمرضى، وبذل الطاقة في سبيل راحة الجميع، وقول الصحابي (كان رسول الله ﷺ يتخلف) يشير إلى أنه اعتاد على فعل ذلك في كل خروجه، والفعل المضارع يصور رسول الله، القائد الأعظم يترك مركز القيادة في المقدمة ليعود إلى ضعيف فيسوق بعيره حتى يتقدم، ولا يتركه فيتأخر عن الركب، ويتعرض للأخطار، وهذا بذل لجهده كما أنه يبذل ماله يدل على ذلك الفعل (ويردف) أي يحمله خلفه على بعيره، بل إنه يبذل مهجته، وتضرعه إلى ربه دعاءً لهم، وهو ما صوره الفعل المضارع (ويدعو له)، وحذف مفعول الفعل (يردف) للتعميم فيردف الضعيف، وربما يردف غيره، وهذا الصنيع يجعل القائد، وجنده على قلب رجل واحد، وهو عامل نفسي، ومادي من أكبر عوامل النفس.

---

(١) لفظ أبي داود: (لهم).

(٢) برقم ٢٦٣٩. وقال الحاكم ١١٥/٢: صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ز ج ى).

(٤) اللسان والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر د ف).

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب لكبير الركب أن يسير في آخره، وإلا فليتعهد آخره فيحمل المنقطع أو يعينه، ولئلا يطمع فيهم ويتعرض اللصوص ونحوهم لحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته))[١] وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو له. وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يفعله)[٢].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تعهد الراعي رعيته.

ثالثاً: من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من الحديث، فقد صُدِّر بلفظ "كان رسول الله ﷺ..." وهذا الإخبار يكون لنقل أفعاله ﷺ للمدعوين ليقتدوا به، ولهذا بوّب البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ[٣] وساق تحته حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ((اتخذَ النبيُّ ﷺ خاتماً من ذهبٍ فاتخذَ الناس خَوَاتيم من ذهب، فقال النبيُّ ﷺ: إني اتخذتُ خاتماً من ذهبٍ فنَبَذَه وقال: إني لن ألبَسَهُ أبداً، فنَبَذَ الناسُ خواتيمهم))[٤].

قال ابن حجر: (قوله "باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ" الأصل فيه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥])[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٤ .

(٣) الباب برقم ٤ من كتاب الاعتصام رقمه ٩٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٢٩٨، ومسلم ٢٠٩١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٧٤.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تعهد الراعي رعيته:

وهذا واضح من فعل النبي ﷺ في السفر مع أصحابه، وقال النووي في المجموع: (يستحب لكبير الركب أن يسير في آخره وإلا فليتعهد آخره، فيحمل المنقطع أو يعينه ولئلا يطمع فيهم ويتعرض اللصوص ونحوهم لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين: ((كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ))[1] وعن جابر قال: ((كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي المَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ)) رواه أبوداود[2] بإسناد حسن، وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يفعله)[3].

قال الخطابي: (وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في رجل سافر وحده: أرأيتم إن مات من أسأل عنه؟)[4].

وقال د. مصطفى السباعي عن يقظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إدارة الدولة وتفقده لرعيته وعماله: (كان عمر شديد المراقبة لعماله، دقيق الاختيار لولاة الأمصار، وكانت الكفاءة عنده هي أساس تولية العمل، من غير نظر إلى شيء آخر من عبادة أو زهد، كان يقول: أريد رجلاً، إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم، كان كأنه رجل منهم، كان يستعمل رجالاً مثل عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير، لأن أولئك كانوا أقدر على العمل، وأحسن قياماً به، وأكثر هيئة له من هؤلاء. وكان إذا استعمل رجلاً على عمل، كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار. وإذا بعث عماله إلى الأمصار قال لهم: إني لم أبعثكم جبابرة، ولكن بعثتكم أئمة، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم "أي لا تطيلوا أمد إقامتهم في الحرب بعيدين عن أهلهم ونسائهم" ولا تمنعوهم فتظلموهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٩٨٣، ومسلم ١٨٢٩.

(٢) أخرجه أبوداود ٢٦٣٩ وهو حديث الباب.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٤/٤.

(٤) معالم السنن ٤١٣/٣.

ومن قوله رضي الله عنه: إني لأتحرج أن أستعمل الرجل، وأنا أجد أقوى منه. وكان يعقد في كل سنة مؤتمراً لعماله في موسم الحج ليسألهم عن أحوال البلاد وشؤونها، وسير الإدارة فيها.

وكان علمه بمن بَعُدَ عنه من عماله ورعيته، كعلمه بمن قرب منهم، حتى إن عماله وأمراءه وقضاته، كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن عين عمر لا تفارقهم، وأنه يعلم من أخبارهم صغيرها وكبيرها.

وكان له مفتشون ينزلون الأمصار على غير علم من ولاتها، فيستقصون سيرة الولاة وأحوالها من أفواه الشعب ويرونه بأعينهم. وبذلك استقام الأمر في الدولة الإسلامية في عهد عمر، على خير ما يرجو عمر، من عدل ونصفةٍ وسعادة للناس أجمعين)[١].

ثالثاً- من صفات الداعية: الرفق بالمدعوين:

هذا واضح من فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في السفر كما في الحديث، وقال النووي كذلك عن أدب المسافر في السفر: (ينبغي له أن يستعمل الرفق وحسن الخلق مع الغلام والحمال والرقيق والسائل وغيرهم، ويتجنب المخاصمة والمخاشنة ومزاحمة الناس في الطرق ومواردة الماء إذا أمكنه ذلك، وأن يصون لسانه من الشتم والغيبة ولعنة الدواب وجميع الألفاظ القبيحة، ويرفق بالسائل والضعيف، ولا ينهر أحداً منهم ولا يوبخه على خروجه بلا زاد وراحلة، بل يواسيه بما تيسر، فإن لم يفعل رد رداً جميلاً، ودلائل هذه المسائل مشهورة في القرآن والأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين)[٢].

وقد ذكر جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مثالاً تطبيقياً لرفق الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته، قال جابر: ((غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَتَلَاحَقَ بِي، وَتَحْتِي نَاضِحٌ[٣] لِي قَدْ أَعْيَا وَلَا يَكَادُ يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي «مَا لِبَعِيرِكَ؟» قَالَ قُلْتُ: عَلِيلٌ، قَالَ: فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ فَزَجَرَهُ وَدَعَا لَهُ، فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ؟ قَالَ قُلْتُ:

---

(١) عظماؤنا في التاريخ ١٣٩-١٤٠.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٤.

(٣) الناضح: البعير يستقى عليه الماء، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ض ح).

بِخَيْرٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ، قَالَ: أَفَتَبِيعُنِيهِ؟ فَاسْتَحْيَيْتُ، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا نَاضِحٌ غَيْرُهُ، قَالَ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَبِعْتُهُ إِيَّاهُ، عَلَى أَنَّ لِي فَقَارَ ظَهْرِهِ[١] حَتَّى أَبْلُغَ الْمَدِينَةَ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَرُوسٌ فَاسْتَأْذَنْتُهُ، فَأَذِنَ لِي، فَتَقَدَّمْتُ النَّاسَ إِلَى الْمَدِينَةِ، حَتَّى انْتَهَيْتُ، فَلَقِيَنِي خَالِي فَسَأَلَنِي عَنِ الْبَعِيرِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فِيهِ، فَلَامَنِي فِيهِ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ لِي حِينَ اسْتَأْذَنْتُهُ: مَا تَزَوَّجْتَ؟ أَبِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟ فَقُلْتُ لَهُ: تَزَوَّجْتُ ثَيِّباً، قَالَ: أَفَلَا تَزَوَّجْتَ بِكْراً تُلَاعِبُكَ وَتُلَاعِبُهَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُوُفِّيَ وَالِدِي -أَوِ اسْتُشْهِدَ- وَلِي أَخَوَاتٌ صِغَارٌ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ إِلَيْهِنَّ مِثْلَهُنَّ، فَلَا تُؤَدِّبُهُنَّ وَلَا تَقُومُ عَلَيْهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّباً لِتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبَهُنَّ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ، غَدَوْتُ إِلَيْهِ بِالْبَعِيرِ، فَأَعْطَانِي ثَمَنَهُ، وَرَدَّهُ عَلَيَّ))[٢].

قال ابن حجر: (قال الإسماعيلي: الغرض الذي سيق الحديث لأجله بيان كرمه ﷺ وتواضعه وحنوه على أصحابه، وبركة دعائه وغير ذلك). ثم قال ابن حجر: (وفي الحديث تفقد الإمام والكبير لأصحابه، وسؤاله عما ينزل بهم، وإعانتهم بما تيسر من حال أو مال أو دعاء، وتواضعه ﷺ)[٣].

وقال ابن عثيمين: (والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يكون مع رفقائه في السفر محسناً إليهم، قاضياً لحاجتهم، معيناً لهم، فإن هذا من الآداب النبوية التي جاءت بها سنة النبي ﷺ)[٤].

---

(١) أي ركوبه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٧١٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٦٧، ومسلم ١٠-٧١٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥/٣٢١.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- ترسيخ قيم التعاون وأخلاقها:

إن من أهداف التربية الإسلامية الأصيلة ترسيخ قيم التعاون والاندماج مع الجماعة، واستشعار هموم وحاجات الآخرين من أفراد المجتمع الإسلامي، لأن الإسلام يربي المسلم على التعاون والبذل، ويرسخ في نفسه أنه لم يخلق ليعيش لنفسه وأهله وذويه بل هو مطالب بالبذل والعطاء من خلال تلمس احتياجات إخوانه ومشاركته الإيجابية لهم ومعاونة الضعيف وحمل الكَلِّ، وهذه الأخلاق ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم حسب موقعه وإمكاناته التي منحه الله تعالى إياها، وقد أكد رسول الله ﷺ هذه المعاني العظيمة في توجيهاته وأفعاله، كما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ».

لذا كان من الأهمية بمكان في المجال التربوي تعميق روح التعاون في نفس المتربي والانخراط في الجماعة والقيام بالمهام والواجبات المترتبة على ذلك من البذل والعطاء واستشعار هموم وحاجات الآخرين والسعي في إعانتهم والأخذ بأيديهم وانتشالهم مما ينزل بهم من مِحَن، فالتربية على التعاون والانخراط في الجماعة والقيام بالواجبات تلعب دوراً بالغ الأهمية في إكساب الناشئ قِيَماً وخبرات معينة قد لا يمكن اكتسابها داخل الأسرة إضافة إلى أن الجماعة أداة من أدوات توفير الأمن والاطمئنان الجسمي والنفسي.

لهذه الأهمية فقد حظيت الجماعة باهتمام خاص من توجيهات الإسلام ومفكريه ورجالات التربية الإسلامية، ففي صلاحها صلاح الفرد، وصلاح الفرد صلاح لها، ونجد توجيهات إسلامية واضحة تدعو الآباء والأمهات والمربين إلى العناية بتوجيه أبنائهم إلى اختيار رفقائهم من الأخيار الصالحين ديناً وخلقاً وسلوكاً حتى يقتدوا بهم ويكتسبوا منهم الصفات الحميدة والخلال الفاضلة وأن يجنبوهم مخالطة الأشرار حتى لا يقلدوهم

ويسلكوا طريقهم المعوج[١].

ثانياً- التربية بالقدوة:

ويعني بالقدوة أن يكون المربي أو الداعي والقائد مثالاً يُحتذى به في أفعاله وتصرفاته ونموذجاً حياً لما ينادي به ويوجه غيره إليه، وقد أشاد القرآن بهذه الوسيلة فقال عز مِنْ قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣]. وقد كان المصطفى ﷺ -ولا يزال- قدوة للمسلمين جميعاً والقدوة الحسنة التي يحققها الداعي وكذا المربي والقائد المسلم بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام[٤] وتعاليمه الغراء وآدابه الفاضلة.

ولما كان للقدوة من أثر إيجابي فعال لا ينكر في عملية التربية وخاصة في مجال الاتجاهات والقيم، كان الرسول ﷺ قدوة للمسلمين، وقد استطاع من خلال القدوة أن يحمل معاصريه على فهم وتطبيق قيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه، وذلك من خلال السلوك العملي الواقعي الحي، وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على تتبع صفاته وحركاته ورصدها والعمل بها حرصاً منهم على تمثل أفعاله ﷺ[٥].

ومن ذلك ما نراه واضحاً في القدوة في الأعمال القيادية والقيام بمهامها في أحاديث الباب ومن ذلك:

أ- إرشاده ﷺ كقائد، لمن معه في سفر أو غزوة، الواجدين والقادرين، بإعانة غير القادرين، وتيسير سبل الحمل، والانتقال، ومهام السفر، كما في قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ

---

(١) انظر: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، عبدالحميد السيد الزنتاني ص ٧٧٦.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٤) انظر: مبادئ ونماذج في القدوة، د. صالح بن حميد، بدون ذكر للطبعة وتاريخها ص ٨.

(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٤٣/١.

لاَ زَادَ لَـهُ». حتـى وإن أدى الأمـر، أن يُشْرِك القـادرُ، العـاجزَ في دابتـه يتعاقبـان ويتاوبـان الركوب عليها كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزوا فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ إِنَّ مِنْ إِخْوَانِكُمْ قَوْماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ وَلا عَشِيرَةٌ، فَلْيَضُمَّ أَحَدُكُمْ إِلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَوَ الثلاثة، فما لأَحَدِنا مِنْ ظَهْرِ جَمَلِهِ إلا عَقَبَةٌ كَعَقَبَةِ أَحَدِهِمْ» قال: فضممت اثنين أو ثلاثة إلي وما لي إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي.

ب- مباشـرته بنفسه لأحـوال مَـنْ تحـت يـده خاصـة العجـزة والـضعفاء كمـا في الحديث الثالث من الباب « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ». فأنعم بالرسول ﷺ مِنْ قائد كان لا ينسى الضعفاء والعاجزين ومن لا يملكون وسائل السفر أثناء سفره معهم فيتأخر ليلحقوه ويسوق الضعاف ويحمل المحتاجين[1].

ومن هنا كان غرس روح القيادة في نفس المتربي وحثه على القيام بمهامها من مهام المربي، لاسيما أن أي مجتمع في حاجة ملحة لشخصيات قيادية تسهم في قيادة الأعمال على تنوعها واختلاف مشاربها لاسيما الأعمال الدعوية والتربوية، فبات من المهم الاعتناء بالتربيـة علـى القيـادة وغـرس مهاراتهـا وتنميتهـا لـدى المتربـين خاصـة الناشـئة منهم والشباب[2].

ثالثاً- من صفات المربي والمعلم: الفطنة وسرعة البديهة:

إن مـن جميـل الـصفات الـتي ينبغـي تحلـي المـربين والمعلمـين بهـا، الفطنـة وسـرعة البديهة، وشاهد ذلك من أحاديث الباب ما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَميناً وَشِمَالاً. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لاَ زَادَ لَهُ». إن هذا الرجل الذي جاء على راحلة جعل ينظر يميناً وشمالاً ينظر من يتوسم فيه أن يعينه فلم يلجئه الرسول ﷺ إلى الكلام أو

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٢٨.

(٢) انظر: تربية الشباب، الأهداف والوسائل، محمد بن عبدالله الدويش ص ١٣٤.

تعريضه للإحراج، وإنما أرشد الصحابة عامة بمعاونة المحتاج دون تخصيص أو حتى مجرد التعريض بهذا المحتاج، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ».

لذا يجدر بالمربي والمعلم أن يتصف بالفطنة وسرعة البديهة مما يعمل على إثراء العملية التعليمية، بل ليس ذلك فحسب وإنما يحرص المربي والمعلم على تفعيل تلك الصفات التي لا تخفى آثارها العملية على مستوى الفرد والمجتمع مما يعمل على إكساب المتربي الفطانة وسرعة البديهة وإعمال العقل وتدريب وتنشيط قواه العقلية في الفهم والتحصيل.

وما يسمى في المصطلحات التربوية بالقراءة الذكية: فإذا كان على المربي أن ينمي في الطالب الرغبة في القراءة، فليس هذا وحده بكافٍ بل لابد من تنمية مهارة القراءة الذكية لدى الطالب حتى تكون قراءته أكثر ثمرة وأبلغ أثراً في بناء شخصية المتعلم.

ومما تشمله مهارات القراءة الذكية:

أ- القدرة على الاختيار المناسب لما يقرؤه.

ب- تعلم مهارات القراءة السريعة.

ج- تنمية القدرة على فهم المقروء وبالأخص استيعاب الفكرة العامة التي يريد المؤلف إيصالها والتفريق بين الفكرة العامة وبين الشواهد والأمثلة والتفريعات.

د- تنمية القراءة الناقدة التي تجعل الطالب يفكر ويُقوِّم ما يقرؤه دون التلقي المجرد، وينبغي أن يلحظ هذا التدرج، ومراعاة قدرات الشاب وثقافته وأنه يحتاج إلى مرحلة يعتاد فيها القراءة ومرحلة يفهم فيها وتبني ملكاته العلمية، ومرحلة ينتقل فيها إلى القراءة الناقدة، ومن المناسب أن يوجه في بداية المرحلة إلى كتابات مناسبة وكتّاب مناسبين.

هذه المهارات يمكن أن تُعلَّمَ للطالب من خلال برامج منظمة للقراءة، أما مجرد إلقاء دروس وتوجيهات حول القراءة وأساليبها فهذا محدود الجدوى قليل الفائدة[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد بن عبدالله الدويش ص ٨٦، ٨٧.

١٧٠- باب مَا يقول إذا ركب دَابَّة للسفر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإنَّا إلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[الزخرف: ١٢-١٣].

الحديث رقم (٩٧٣)

٩٧٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ إذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً إلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلاثاً، ثُمَّ قَالَ: ((**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإنَّا إلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللّهُمَّ إنا نسألكَ في سفرنا هذا البرّ والتَّقوى، ومنَ العملِ ما ترضى، اللّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ في الأهْلِ. اللّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ وَالأهْلِ وَالوَلَدِ**[١])) وَإذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: ((**آيبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)) رواه مسلم[٢].

معنى "مُقْرِنِينَ": مطيقين. "والوَعْثَاء" بفتح الواو وإسكان العين المهملة وبالثاء المثلثة وبالمد، وهي: الشدة. "والكَآبة" بالمد، وهي تغير النفس من حزن ونحوه، "والمُنْقلَب": المرجع.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

استوى: استقر[٣].

---

(١) (والولد) لا توجد عند مسلم، وهي عند ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٦ وإسناده صحيح.

(٢) برقم ١٣٤٢/٤٢٥.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ي).

مقرنين: مطيقين[١].

البر: الطاعة والعبادة[٢].

واطو: قربه لنا وسهله[٣].

الوعثاء: الشدة[٤].

الكآبة: تغير النفس من حزن ونحوه[٥].

المنقلب: المرجعُ[٦].

آيبون: راجعون[٧].

الشرح الأدبي

السفر قطعة من العذاب يفارق الإنسان أهله، وماله، وولده، ووطنه الذي درج فيه مما يحدث في الوجدان حالة من الضيق، والحزن، والهم الناشيء عما هو قادم عليه فاحتاج فيه إلى سكن نفسي، ومدد روحي، ولا يتحقق ذلك إلا خلال الدعاء النبوي الذي خصه النبي ﷺ بهذه المناسبة، وقد تكون من عناصر تعالج في النفس هذه الأحاسيس منها: تنزيه الله تعالى المتضمن للاعتراف بحوله، وقدرته في تيسير السبل، والوسائل، (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) وقوله: (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) استشعار للأمان باليقين بأن الرجوع إليه يريح النفس من القلق من الأخطار المحدقة بالمسافر، العنصر الثاني، التوجه بالدعاء، والخضوع لله للنجاة من أخطار السفر، وتخفيف تبعاته (اللَّهُمَّ هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ)، العنصر الثالث:

---

(١) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

(٣) المرجع السابق، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ي).

(٤) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) لسان العرب، ابن منظور في (أ و ب).

يتضمن تأمين الغرض المقصود من السفر وتأمين الأخطار على الأهل، والولد (اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ) والتعبير بالوعثاء يوحي بالشدة، والمشقة، والعناء، وبإضافتها للسفر تتخذ أبعاداً إيحائية جديدة تنبع من طبيعة السفر، والتعبير بالكآبة يوحي بمختلف أشكال المخاوف التي تعتري النفس، وتسيطر عليها، ومن الملاحظ في هذا الدعاء تكرار صيغة النداء الخاصة (اللهم) تهالكاً في الخضوع، وبياناً لكمال الاستسلام، كما تضمن الدعاء بصيغة الجمع في كل مراحله ليجاب للشخص بدعاء غيره من الصالحين، كما ثبر الدعاء غور النفس البشرية في كل ما يعتريها بسبب السفر.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة إذا خرج من بيته وأراد ركوب دابته أن يقول: بسم الله فإذا استوى عليها قال: الحمد لله ثم يأتي بالتسبيح والذكر والدعاء الذي ثبت في الأحاديث)[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: شكر الله وتمجيده عند استعمال نعمه سبحانه وتعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: التضرع إلى الله ودعاؤه وقت السفر.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه.

خامساً: من آداب المدعو: الحرص أن يكون حاله في استقامة وزيادة.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من قول ابن عمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر...".

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/ ١٩٠ .

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٧٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٧٤).

وكذلك قول عبدالله بن سَرْجِس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعثاء السفر....

والإخبار هنا ينقل فعلاً من أفعال النبي ﷺ المتكررة، وذلك ليعرفه المدعوون ومن ثم يقع منهم الاقتداء به ﷺ والامتثال لفعله ﷺ. ولا أدل على ذلك من كثرة المطبوعات التي تحمل دعاء السفر، وذلك في وسائل المواصلات المختلفة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: شكر الله وتمجيده عند استعمال نعمه سبحانه وتعالى:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عندما يستوي على البعير خارجاً إلى سفر، فإنه ﷺ قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون".

وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1].

قال الطاهر بن عاشور: (إن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها، أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها، وأجدر بعدم الذهول عنها، أي جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكر بالفكر لا الذكر باللسان، وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلّبوا في نعم الله وشكروا غيره، إذ اتخذوا له شركاء في الإلهية وهم لم يشاركوه في الإنعام، وذكر النعمة كناية عن شكرها، لأن شكر المنعم لازم للإنعام عرفاً، فلا يصرف عنه إلا نسيانه، فإذا ذكره الشكر النعمة. وعطف على "تذكروا نعمة ربكم" قوله: "وتقولوا سبحان الله الذي سخر لنا هذا" أي لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا الشكر بألسنتكم، فلقنهم صيغة شكر، عناية به كما لقنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة، وصيغة الدعاء في آخر سورة البقرة، وافتتح الشكر اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء، إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدل ضمناً على إثبات الكمالات لله في المقام

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٢-١٤.

الخطابي، واستحضار الجلالة بطريق الموصولية، لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح، حتى يصير الحمد الذي أفاده التسبيح شكراً لتعليله بأنه في مقابلة التسخير لنا...

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحاً لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف[1]، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية. ولهذا عقب بقوله "وما كنا له مقرنين" أي مطيقين أي بمجرد القوة الجسدية، أي لولا التسخير المذكور... أي سخرها لنا في حال ضعفنا بأن كان تسخيره قائماً مقام القوة... وختم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأن مرجعنا إلى الله، أي بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء. وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث. وفيه تعريض بسؤال إرجاع المسافر إلى أهله، فإن الذي يقدر على إرجاع الأموات إلى الحياة بعد الموت، يرجى لإرجاع المسافر سالماً إلى أهله)[2].

وقال ابن هبيرة: (إنما تكبيره ثلاثاً، فإنه عليه السلام لما كبر ثلاثاً شرع التكبير لكل مسافر عند توجهه إليه، ليصرم بقوله: "الله أكبر" ما يتهجسه في سره من هذه المشقة، وحوادث السفر، وأخطاره والبعد عن الوطن وإنهاره[3]، فاستعان على ذلك كله بتكرير التكبير، فإنه إذا قال: "الله أكبر" عندما يتهجسه من مخاوف السفر، صغر كل ذلك وكل كثير عند قول المؤمن: "الله أكبر"، ولذلك إذاذكر ما وراءه من الأهل والوطن، ورأى أن سفره لله في سبيله، فقال: "الله أكبر مما نزلت وأرى، والله أكبر مما أخاف من بين يدي" فقد تدرع بدرع حصينة في ذلك، فأما تكريره التكبير ثلاثاً: فواحدة لما بين يديه، وواحدة لما وراءه، وواحدة لحاله في نفسه.

---

(١) هكذا بالذال وهو صحيح في اللغة ويقال كذلك مجداف بالدال، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي في (ج ذ ف).

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ١٠/٢٥/١٧٤-١٧٥.

(٣) هكذا في المطبوع.

وقوله: "سبحان الذي سخر لنا هذا" أي ذلل لنا هذا الركوب، وذلك أن أول نعم الأسفار أن ذلل الله تعالى حيواناً ذا أبد[١] يحمل نقل الآدميين ولا يتجاوز أبده إلى الحد الذي يقهر راكبه، فجعل الله عز وجل ما سخر من الدواب بقوة تنفع راكبها، ولا تبلغ إلى الحد الذي يقهره عن إذلاله.

وقوله: "مقرنين" مطيقين، "وإنا إلى ربنا لمنقلبون" أي راجعون في الآخرة، ومعناه إنه لما توجه إلى السفر، كان من أعظم الأشياء خطورة في قلبه، ذكر انقلابه إلى أهله في الغالب، فأنزل الله عز وجل ما أنزل في هذه الآية من ذكره.

"وإنا إلى ربنا لمنقلبون" يعني أن المؤمنين إذا ذكروا منقلبهم إلى ربهم، كان ذلك متلاشياً معه ذكر ميلهم إلى أهلهم وأوطانهم في هذه الدنيا، ولذلك فلم يقل الله: فإنا إلى مواطننا في الآخرة لمنقلبون؛ لأن تلك المواطن مخلوقة أيضاً فأنزل الله سبحانه، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، أي حالتنا، إذ لامساواة بين الخالق والمخلوق عند المؤمن في حال)[٢].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: التضرع إلى الله ودعاؤه وقت السفر:

هذا واضح من الحديثين، فوقت السفر وقت شدة وكرب وهمٍّ، ولذلك تضرع النبي ﷺ إلى الله ودعاه. قال ابن القيم عن فوائد الذكر، وقد جعلها أكثر من مائة فائدة قال: (التاسعة والخمسون: أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذُكِر اللهُ عز وجل على صَعْب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم، يوضحه (الستون): [أي الفائدة الستون]: أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى

---

(١) يقال: أبد أبوداً: توحش وانقطع عن الناس. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ب د).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٨٢/٤-٢٨٣.

حسنٌ قد جرّب هذا وهذا)[١].

(وقد دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء في سفره[٢]: فقال: "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى" (البر فعل الطاعات، والتقوى ترك المعاصي والذنوب، هذا عند اجتماعهما في الذكر، كما في هذا النص، وأما إذا ذكر كل واحد منهما منفرداً فإنه يتناول معنى آخر، وقوله "اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده" أي يسره لنا وقصر لنا مسافته. وقوله "اللهم أنت الصاحب في السفر" المراد بالصحبة المعية الخاصة التي تقتضي الحفظ والعون والتأييد، ومن كان الله معه فممّن يخاف؟

وقوله "الخليفة في الأهل" الخليفة من يخلف من استخلفه فيما استخلف فيه، والمعنى: أني أعتمد عليك وحدك يا الله في حفظ أهلي[٣].

وقوله "اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر" أي من مشقته وتعبه. وقوله "وكآبة المنظر" أي سوء الحال والانكسار بسبب الحزن والألم[٤]. وقوله "وسوء المنقلب" أي الانقلاب والقفول من السفر بما يحزن ويسوء، سواء في نفسه أو في ماله وأهله)[٥].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه:

وهذا واضح من تعوذ النبي ﷺ من دعوة المظلوم كما في حديث عبدالله بن

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٣٤٩-٣٥٠ مجموعة الحديث.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٤٥٣-٤٥٥.

(٣) قال ابن العربي: (والصاحب يرجع إلى العالم والحافظ بمعنىً، وإلى اللطيف بآخر، وبالجملة فإن من كان الله معه لم يعدم فائدة ولا تطرقت إليه آفة، والصاحب اسم شريف وخطة رفيعة، سمى الله تعالى بها نفسه على لسان نبيه. وسمى بها رسوله ﷺ فقال عز من قائل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم: ٢]، والخليفة يرجع معناه إلى معنى الوكيل ويرجع إلى الآخر، وإلى الباقي من أقسام الآخر، لأن الخلافة هي عمل بعد ذهاب المستخلف، والباري سبحانه وتعالى آخر بعد كل أحد بدوام الوجود، كما هو أول قبل كل أوّل بعد ابتداء الوجود. القبس شرح الموطأ ٢٣/٢٧٥-٢٧٦، موسوعة شروح الموطأ.

(٤) قال ابن الأثير في تفسير "كآبة المنظر": تغيير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن، المعنى أن يرجع من سفره بأمر يحزنه إما أصابه في سفره وإما قدم عليه، مثل أن يعود غير مقضي الحاجة، أو أصابت ماله آفة أو يقدم على أهله فيجدهم مرضى أو قد فقد بعضهم. النهاية في غريب الحديث ٧٨٧.

(٥) فقه الأدعية والأذكار، عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، ط/١، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، القسمان الثالث والرابع ص ٢٧٢.

سَرْجِس رضي الله عنه. قال النووي: (أي أعوذ بك من الظلم، فإنه يترتب عليه دعاء المظلوم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ففيه التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه)[1].

وقد حذّر النبي ﷺ أمته من الظلم، فقال ﷺ: ((اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ. فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))[2].

قال عبدالله البسام: (الحديث فيه التحذير من الظلم، والأمر باجتنابه والبعد عنه، فإنه خطر العاقبة، ذلك أنه ظلمات يوم القيامة، فالمؤمنون مستضيئون بنور إيمانهم، ويقولون ربنا أتمم لنا نورنا، وأما الظالمون لربهم بالشرك أو لأنفسهم بالمعاصي أو لغيره في الدماء والأموال أو العرض، فهؤلاء يمشون في دياجير الظلم فلا يهتدون سبيلاً. ويدل الحديث على التحذير من الشح والبخل، فإنه صار سبب هلاك الأمم السابقة، حملهم الحرص على المال على الاعتداء على أموال غيرهم، فصارت الحروب والفتن التي صارت سبب هلاكهم، واستحلال محارمهم، وهذا هلاك في الدنيا.

كما أنه سبب للهلاك الأخروي، فإن الاعتداء على مال الغير، والاعتداء على محارمه وسفك دمه من أكبر الظلم وأشد الإثم، وهذه المعاصي هي سبب الهلاك في الآخرة وعذاب النار)[3].

وقال رسول الله ﷺ: ((الظُّلمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ))[4].

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٩/٩/٥، .

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٣٠٥/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٩.

بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)[١].

خامساً- من آداب المدعو: الحرص أن يكون حاله في استقامة وزيادة:

هذا يستفاد من تعوذ الرسول ﷺ من الحور بعد الكور، ورواية الترمذي[٢]: "ومن الحور بعد الكور" وقال الترمذي: (ويروى: الحور بعد الكون" أيضاً، ومعنى قوله "الحور بعد الكون" أو "الكور" وكلاهما له وجه، إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطاعة إلى المعصية، إنما يعني من رجوع شيء إلى شيء من الشر)[٣].

وقال النووي: (وكذا قال غيره [أي غير الترمذي] من العلماء معناه؛ بالراء والنون جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها، ورواية النون مأخوذة من الكون مصدر كان يكون كوناً، إذا وجد واستقر.

قال المازري[٤] في رواية الراء: قيل أيضاً: إن معناه: أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا فيها، يقال: كار عمامته إذا لفها، وحارها إذا نقضها. وقيل: نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها، كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس.

وعلى رواية النون. قال أبو عبيد: سئل عاصم، عن معناه فقال: ألم تسمع قولهم: حار بعد ما كان؟ أي أنه كان على حالة جميلة فرجع عنها)[٥]. أي أن المقصود من هذا الدعاء، هو التعوذ من أن يعقب الشرُّ الخير، والنقصُ الزيادةَ، ولاشك أن هذا يدل على أن المدعو يحرص أشد الحرص على أن يستغل ساعاته وأوقاته وأنفاسه في إصلاح حاله والعمل على زيادة ذلك، وفي ذلك يقول ابن القيم: (لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة. فإن قام لله في ذلك

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠٠/٥، وانظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٣٦/١٦/٨ .

(٢) سنن الترمذي ٣٤٣٩.

(٣) سنن الترمذي ص ٧٨٦.

(٤) المعلم بفوائد مسلم ٣٧١/١.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٨/٩/٥-١١٩ .

العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به. وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه في كل وقتٍ من أوقاته عبوديةٌ، تقدمه إليه وتقربه منه؛ فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر. فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق ألبتة. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[1])[2].

(١) سورة المدثر، آية: ٣٧.

(٢) الفوائد ٢٧٤.

الحديث رقم (٩٧٤)

٩٧٤- وعن عبد الله بن سَرجِسَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ، وَسُوءِ المَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ. رواه مسلم[1].

هكذا هُوَ فِي صحيح مسلم: (الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ) بالنون، وكذا رواه الترمذي والنسائيُّ[2]، قَالَ الترمذي: وَيُرْوَى (الكَوْرُ) بالراء، وَكِلاهما لَهُ وجه.

قال العلماء: ومعناه بالنون والراء جميعاً: الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص. قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها، ورواية النون، من الكَون، مصدر "كان يكون كَونًا" إذا وُجد واستقر.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن سرجس: وهو عبدالله بن سَرْجِس المُزَنيّ، وقيل المخزومي، حليفٌ لبني مخزوم، وعداده في البصريين، ذكره الإمام ابن سعد في كتابه الطبقات في طبقة من نزل بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ.

له صحبة، وقال عاصم الأحول: عبدالله بن سرجس رأى النبيَّ ﷺ ولم يكن له صحبة، وقال أبو عمرو: لا يختلفون في ذكره في الصحابة، ويقولون له صحبة على مذهبهم في اللقاء والرؤية والسماع، وأما عاصم الأحول فأحسبه أراد الصحبة التي يذهب إليها العلماء، وأولئك قليل.

روى عن النبي ﷺ وعن عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما، وروى له الجماعة سوى البخاريُّ.

صحَّ أنه رأى النبي ﷺ وأكل معه خبزاً ولحماً، واستغفر له رسول الله ﷺ، فروى مسلم بسنده عن عاصم عن عبدالله بن سرجس قال: رأيت النبي ﷺ وأكلت

---

(١) برقم ١٣٤٣/٤٢٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٣٩، والنسائي في المجتبى ٥٤٩٨.

معه خبزاً ولحماً، أو قال: ثريداً، قال: فقلت له: أستَغْفَرَ لك النبي؟ قال: نعم ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾[1] قال: ثم دُرْتُ خلفه، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند ناغض كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خِيْلان كأمثال الثآليل[2].

نزل البصرة وعاش بها إلى أن توفي فيها سنة نيّف وثمانين، في دولة عبدالملك بن مروان[3].

غريب الألفاظ:

يتعوَّذ: يستجير ويلوذ بالله[4].

وعثاء السفر: شدته ومشقته[5].

كآبة المنقلب: الكآبة: تغيُّر النفس بالانكسار من شدة الحزن والهمِّ، والمنقلب: المرجع[6].

الحَوْرُ: أصلُه نقض العمامة بعد لفها، ومعناه: النقصان، وقيل: فساد الأمور، وقيل: الرجوع عن الجماعة[7].

---

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٤٦. وقوله: ناغض كتفه يعني أعلى كتفه، وهي العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، وأما قوله جُمْعاً: أي كجُمْع الكف وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها، وأما الخِيلان بكسر الخاء وإسكان الياء مع خال وهو الشامة في الجسد، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ٨٠، ٨١.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٨/٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٨، ٤٣٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٥٧/٣، ٢٥٨، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ٧٧٩، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٤٢٦/٣، ٢٧)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ١٤٥/٤، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٤٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع و ذ).

(٥) المرجع السابق في (و ع ث).

(٦) المرجع السابق في (ك أ ب).

(٧) المرجع السابق في (ح و ر) ورياض الصالحين ٣٨٠.

الكور: أصله تكوير العمامة أي لفها، ومعناه هنا: الاستقامة، أو الزيادة، أو صلاح الأمور[1].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن دعاء السفر السابق مع بعض الاختلاف، وقد بدأه الراوي بما يدل على أن ذلك صار عادة في سفره حيث بدأ بكان، وتبعها بأسلوب الشرط الذي يربط السفر بهذا الدعاء، وقد زاد عن الدعاء السابق قوله (وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ) وهوكناية عن المخاوف التي يخشى أن تعتريه في منقلبه، وقوله (وَالْحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ) كناية عن الرجوع عن الاستقامة، أو تبدل الحال إلى الأسواء، وقوله (دعوة المظلوم) هو استعاذة من الظلم ابتداءً، وقد جاء على سبيل المجاز الإرسالي بإطلاق المسبب، وإرادة السبب وهو الظلم، وتتجلى بلاغة هذا المجاز بأنه يذكر بالعاقبة التي يؤدي إليها الظلم، وهي دعوة المظلوم التي ليس بينها، وبين الله حجاب، واستعاذة الرسول منها تحذير من خطرها، وتعليم لأمته كيفية الدعاء، وإلا فهو أبعد الخلق عن الظلم.

المضامين الدعوية[2]

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك و ر)، ورياض الصالحين ٣٨٠.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٧٥)

٩٧٥- وعن عَلِي بن ربيعة، قَالَ: شهدت عليَّ بن أَبي طالب ﷺ، أُتِيَ بدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَلَمَّا استَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: الحَمْدُ للهِ [1]... الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإنَّا إلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثُمَّ قَالَ: الحمْدُ للهِ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أكْبَرُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقيلَ: يَا أمِيرَ المُؤمِنِينَ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأيتُ النبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فقُلْتُ: يَا رسول اللهِ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: **((إنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَعْجَبُ مِنْ عَبدِهِ إذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي))** رواه أَبُو داود والترمذي [2]، وقال: (حديث حسن)، وفي بعض النسخ: (حسن صحيح). وهذا لفظ أَبي داود.

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٦٨).

غريب الألفاظ:

الركاب: حلقة أو نحوها تُعلّق بالسرج يجعل الراكب فيها رجله، وهما ركابان [3].

استوى: استقر [4].

مقرنين: مطيقين [5].

لمنقلبون: لراجعون [6].

---

(١) عند أبي داود والترمذي زيادة: (ثمَّ قال: سبحان).

(٢) أخرجه أبو داود واللفظ له ٢٦٠٢، والترمذي ٣٤٤٦ وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصحّحه أيضًا ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٨، وقال الحاكم ٩٩/٢: هذا حديث صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٠٢، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ك ب).

(٤) لسان العرب، ابن منظور في (س و ى).

(٥) رياض الصالحين ٣٧٩.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ل ب).

الشرح الأدبي

هذا الحديث تطبيق عملي لأدعية السفر التي علمها الرسول ﷺ لأصحابه، وقد دارت الأحداث حول الإمام علي كرم الله وجهه، وقوله (اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا) كناية عن استقراره فوقها، وقوله (بسم الله) فيه إيجاز بالحذف أي أبدأ بسم الله وتكرار (الحمد لله، والله أكبر) تقريراً لمعناها في النفس، وتلذذاً بذكر الله، وتعظيماً للثواب، وقبل كل ذلك توجيه نبوي لأن العدد في الذكر توقيفي، وقوله (سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) تنزيه لله يتلوه هضم للنفس بالاعتراف بالذنب، ثُم أسلوب القصر الذي يقصر المغفرة على الله، وينفيها عن من سواها، وقوله (إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ)، وتأمل دقة المتابعة حتى في الأفعال التي تبدو عفوية مثل الضحك اقتدى فيها الإمام بالرسول ﷺ (ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟) والاستفهام للتعجب لرؤيتهم لضحكه دون معرفة سببه فعلله بقوله (قَالَ: رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ) فشبه فعله بفعله، وضحكه بضحكه، وضحك الرسول كناية عن الرضا، ودليل على خير عظيم أطلعه الله عليه، وقد رأى الإمام ضحك الرسول ﷺ بعد هذا الحدث فسئل السؤال نفسه له (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟) استفهام تعجب وقوله (إِنَّ رَبَّكَ تَعَالَى يَعْجَبُ مِنْ عَبدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي) يشير إلى عظمة الاستغفار من حيث أن المستغفر معترف ذليل مستغرق في المذلة معترف بالله، وقدرته على أخذه بذنبه، وشاهد بنعمته عليه بستره فنشأت من هذه الحالة عبودية عظيمة كان لها هذا الأثر.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: ذكر الله وشكره عند استعمال النعمة.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عظم فضل الله على عباده.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

هذا واضح من فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو تعليمٌ بالفعل، فقد أُتى بدابة

ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله. فلما استوى على ظهرها، قال: الحمد لله. ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[1] ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات... ثم ضحك فقال له بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟

فلا يستبعد أن يكون من أهداف علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فعله هذا تعليم من كان معه، بدليل أن أحدهم سأله عن سبب ضحكه بعد أن قال ما قال فأجابه بقوله: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك. ولاشك أن هذه الوسيلة الدعوية التعليمية لها تأثير كبير في نقل المضمون الدعوي إلى المدعوين.

ولقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يحرصون على تعليم غيرهم بالأفعال، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد رأى حمران مولى عثمان ((عُثمانَ بنَ عَفّانَ دَعا بإناءٍ فأفْرَغَ على كفَّيهِ ثَلاثَ مِرارٍ فغَسلَهُما ثمَّ أدْخَلَ يَمِينَهُ في الإناءِ فَمَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ، ثمَّ غَسل وَجْهَهُ ثَلاثاً، ويَدَيه إلى المِرْفَقَينِ ثَلاثَ مِرارٍ، "ثمَّ" مَسحَ رأْسهِ ثمَّ غَسلَ رِجلَيهِ ثَلاثَ مِرارٍ إلى الكَعْبَينِ، ثمَّ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منْ تَوضَّأ نَحوَ وُضوئي هذا، ثمَّ صلَّى رَكعَتَينِ لا يُحدِّثُ فيهما نَفْسَهُ، غُفِرَ لهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))[2].

قال ابن حجر: (وفي الحديث التعليم بالفعل لكونه أبلغ، وأضبط للمتعلم)[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: ذكر الله وشكره عند استعمال النعمة:

هذا واضح من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه إخباراً عن النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله، لما وضع رجله في الركاب، والحمد لله و"سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات والله أكبر ثلاث مرات...

فواضح أن ذلك ذكر لله عند ركوب الدابة، وهي نعمة من الله عظيمة، وهذا الذكر شكر للمنعم سبحانه، قال ابن القيم: (إن الذكر رأس الشكر، فما شكر

---

(١) سورة الزخرف، آية: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣١٣/١.

الله تعالى من لم يذكره. وذكر البيهقي عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: رب قد أنعمت علي كثيراً، فدلني على أن أشكرك كثيراً، قال: اذكرني كثيراً، فإذا ذكرتني كثيراً فقد شكرتني كثيراً، وإذا نسيتني فقد كفرتني. وقد ذكر البيهقي أيضاً في شعب الإيمان عن عبدالله بن سلام قال موسى عليه السلام: "يا رب، ما الشكر الذي ينبغي لك؟ فأوحى الله تعالى إليه أن لا يزال لسانك رطبًا من ذكري، قال: يا رب، إني أكون على حال أُجِلُّك أن أذكرك فيها. قال: وما هي؟ أكون جنباً أو على الغائط أو إذا بلت. فقال: وإن كان، قال: يا رب فما أقول؟ قال: تقول سبحانك وبحمدك وجنبني الأذى وسبحانك وبحمدك فقني الأذى".

قلت [أي ابن القيم]: قالت عائشة رضي الله عنها: ((إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله في كل أحيانه))[1] ولم تستثن حالة من حاله، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى في حال طهارته وجنابته. وأما في حال التخلي فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها. وكذلك شرع للأمة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم: ((بسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وَجَنِّبِ الشيطانَ ما رَزَقتَنا))[2].

وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل فلا ريب أنه لا يكره بالقلب، لأنه لابد لقلبه من ذكر، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شيء إليه...، ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه الحالة، وهي من أجل الذكر، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها، واللائق بهذه الحال التقنع بثوب الحياء من الله تعالى، وإجلاله وذكر نعمته عليه، وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له، الذي لو بقي فيه لقتله، فالنعمة في تيسير خروجه كالنعمة في التغذي به. وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه وقال: يا لها من نعمة، لو يعلم الناس قدرها، وكان بعض السلف يقول: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في منفعته،

---

(١) أخرجه مسلم ٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري ١٤١، ومسلم ١٤٣٤.

وأذهب عني مضرته، وكذلك ذكره حال الجماع، ذكر هذه النعمة التي منَّ بها عليه وهي من أجل نعم الدنيا، فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها، هاج من قلبه هائج الشكر. فالذكر رأس الشكر. وقال النبي ﷺ لمعاذ: ((وَاللهِ يامُعَاذُ إنِّي لأُحِبُّكَ، فلا تدعن في دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))[1]. فجمع بين الذكر والشكر، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح)[3].

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: عظم فضل الله على عباده

هذا واضح من سؤال علي بن أبي طالب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن سبب ضحكه فقال له النبي ﷺ: "إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري" فهذا من فضل الله ومنّه أنه يغفر ذنوب عباده ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4].

قال ابن عثيمين: (وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيان سعة مغفرة الله ورحمته، وأنه عز وجل يفرح من عبده إذا استغفر وتاب إليه... فعليك - أخي المسلم-أن تتوب إلى الله وترجع وتستغفر، وتعلم أنك متى استغفرت الله تعالى بصدق وإخلاص، فإن الله تعالى يغفر لك ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[5])[6].

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٣٤٧).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٢/٣٢٧-٣٢٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٦) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٥.

وما يدل كذلك على عظم فضل الله على عباده هذا الحديث القدسي: قال رسول الله ﷺ ((قالَ اللهُ تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ منكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))[(١)].

وقد جعل النووي هذا الحديث من الأحاديث الكلية، فجعله في كتابه الأربعين النووية[(٢)].

قال ابن رجب الحنبلي: (وأفضل أنواع الاستغفار، أن يبدأ العبدُ بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل المغفرة كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ سَيِّدَ الاِسْتِغْفَار أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ)) أخرجه البخاري[(٣)]... قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار. قال بعضهم: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه أكثر لها من الاستغفار)[(٤)].

وقال ابن القيم عن فضل الله في مغفرة الذنوب: (العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده، ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد. وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم، وإظهار عزِّ الربوبية وذلِّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى: كالعفوِّ، والغفور، والتوّاب، والحليم - لمن جاء تائباً نادماً؛ والمنتقم،

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٤٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨٠٥).

(٢) وهو برقم ٤٢، انظر جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٠٠-٤١٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٠٦.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤١٢-٤١٥.

والعدل، وذي البطش الشديد- لمن أصرَّ ولزم المجرَّة. فهو سبحانه، يريد أن يري عبده تفرُّده بالكمال ونقص العبد، وحاجته إليه. ويشهده كمال قدرته وعزّته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال برِّه وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة. فلله كم في تقدير الذنب من حكمة، وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة)[١].

وقال د. عائض القرني عن سماحة الشريعة الإسلامية وكثرة الأسباب المؤدية إلى مغفرة الذنوب: (مما يفرح العبد المسلم، ما في الشريعة من الثواب الجزيل والعطاء الضخم، يتجلّى ذلك في المكفرات العشر، كالتوحيد وما يكفره من الذنوب. والحسنات الماحية، كالصلاة، والجمعة إلى الجمعة، والعمرة إلى العمرة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة. وما هناك من مضاعفة الأعمال الصالحة، كالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومنها التوبة تجُبُّ ما قبلها من الذنوب والخطايا. ومنها المصائب المكفّرة، فلا يصيب المؤمن من أذى إلا كفّر الله به من خطاياه. ومنها دعوات المسلمين له بظهر الغيب. ومنها ما يصيبه من الكرب وقت الموت. ومنها شفاعة المسلمين له وقت الصلاة عليه. ومنها شفاعة سيد الخلق ﷺ ورحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[٢]، ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾[٣])[٤].

(١) الفوائد ١٠٢.
(٢) سورة النحل، آية: ١٨.
(٣) سورة لقمان، آية: ٢٠.
(٤) لا تحزن ٢٨٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- الدعاء:

إن الدعاء باب عظيم، فإذا فُتح للعبد تتابعت عليه الخيرات وانهالت عليه البركات، فمن رجي الخير وطمع في الفضل فليلجأ إلى ربه وليرفع إليه أكف الضراعة[1]، وإذا نظرنا إلى أحاديث الباب نجدها مفعمة بالدعوات المباركات التي سن الرسول ﷺ الدعاء بها من قِبَلِ المسافرين والضاربين في الأرض فهي تجمع كل رغبات المسافر من سؤال الخير، وبعد عن الشر والعون على صالح العمل، وعدم التعب، والاستعانة بالله في متطلبات السفر وحاجات الأهل، وسؤال الحفظ من الله في المال والأهل والولد، ومن هذه الأدعية التي كان يدعو بها رسول الله ﷺ في سفره: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى. وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا. وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ....» وهكذا ينبغي على المسلم بصفة عامة سواء أكان مربياً أم متربياً أن يستعين بالله تعالى في كافة أحواله في حله وترحاله.

إن الدعاء من الأركان الرئيسة التي يجب أن يحرص عليها كل مسلم ومسلمة خاصة الوالدين لأن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقوداً، وتتمكن الرحمة والرأفة من قلب الوالدين، فيتضرعان إلى الله تعالى ويبتهلان إليه في إصلاح الذرية، وهذه سنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام[2].

إن اللجوء إلى الله تعالى والابتهال إليه ودعائه في السراء والضراء يُشعر المسلم بالعزة ويربيه على القوة والاعتزاز بربه ودينه "فالدعاء هو سبيل القوة الحقة فلا يقضي على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق، وهو سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة من كثرة حوادث الانتحار وضحايا القلق والصرع والجنون رغم ما تنعم به من متعة وراحة مادية في الحياة.

---

(١) انظر: رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥، ٨٦.

إن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج، إنه إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة المطلقة والرضا[١].

ثانياً- من مصادر التربية: القرآن الكريم:

إن المصدر الأول والرئيس للتربية الإسلامية هو القرآن الكريم، وتأتي السنة النبوية المطهرة في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، حيث يشكلان معاً النبع الصافي للتربية الإسلامية، فالقرآن الكريم حافل بالقصص والأمثلة والدروس والعبر والوسائل والأساليب التربوية التي تعد زاداً عظيماً للقائمين على أمور التربية في شتى مجالات الحياة.

إنه المنهج السديد والطريقة المستقيمة الموصلة إلى الغاية المنشودة والهدف المأمول، إن الرسول ﷺ حرص دائماً على ربط المسلمين بالقرآن الكريم في حلّهم وترْحالهم وفي جميع أحوال حياتهم، ومن دلائل ذلك ما جاء في أحاديث الباب من ابتدائه ﷺ أدعية السفر بآيتين من كتاب الله عز وجل: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[٢].

إن للقرآن أسلوبه التربوي الفريد ومنهجه التربوي المتكامل، وحسبنا هنا أن نبين أن أول ما نزل من القرآن الكريم كان حافلاً بالدروس التربوية والحكم البالغة التي تُعد زاداً تربوياً عظيماً، مما يؤكد عناية القرآن الكريم بتربية الإنسان بأسلوب علمي متميز عن طريق الاطلاع والقراءة والتعليم والملاحظة العلمية لخلق الإنسان منذ كان علقة في رحم الأم فقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٣]. وأن الله تعالى

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

أقسم أحد عشر قسماً ليقرر أن النفس الإنسانية قابلة للتربية والتزكية والتسامي، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1][2].

وخلاصة القول أن القرآن الكريم هو "المصدر الأساسي الأول للتربية الإسلامية والذي تستمد منه أهدافها ومادتها وطرقها ووسائلها، فهو كلام الحق تبارك وتعالى ومنهجه الشامل للحياة بكاملها، فللقرآن الكريم تطبيقاته وآثاره التربوية العظيمة التي تتسع باتساع مجالات الحياة ومن هذه المجالات والآثار ما يلي:

أ- آثاره في تربية (الفرد) تربية شاملة ومتكاملة: جسمياً، وعقلياً، واعتقادياً، وروحياً، وخلقياً، واجتماعياً، ونفسياً، وإرادياً، وجنسياً، وجمالياً.

ب- آثاره في تربية (الجماعة) وتنظيم الحياة في داخلها، أياً كانت هذه الجماعة: جماعة الأسرة، أو جماعة السكن والجوار، أو جماعة الرفاق والصحبة، أو جماعة الشركاء في تجارة أو عمل، أو غير ذلك من جماعات. وله آثاره في تربية كل من هذه الجماعات وتنظيم حركة الحياة فيها، ومن جميع جوانبها: الاجتماعية، والإنسانية، والخلقية، وغير ذلك من جوانب.

ج- آثاره في تنمية وبناء (المجتمع) و(الأمة)، مع إمكانية اتساع الأمة لتشمل البشرية بكاملها، ومن جميع جوانب شخصية المجتمع والأمة: دينياً، وسياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وأخلاقياً، وعسكرياً، وحضارياً[3].

ثالثاً- كمال الامتثال والاقتداء بالنبي ﷺ:

إن المربي القدوة ينبغي أن يتمثل أخلاق الرسول الكريم ﷺ ابتداءً ويترجمها إلى

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١-١٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣- ٢٥.

(٣)انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٦٥- ٦٧.

سلوك عملي أصيل بحيث يكون نابعاً من ذاته، ولا مكان للتكلف فيه لأن الناشئ أو الشخص المستهدف بالتربية يدرك مدى صدق المربي وقناعته بسلوكه[١].

وقد ضرب لنا الصحابة رضي الله عنهم أرفع المثل الحية في كمال الاقتداء والتأسي بسنة رسول الله ﷺ، ومن تلك النماذج ما ورد في أحاديث الباب من حديث علي بن ربيعة رضي الله عنه الذي نقل لنا فيه ما صنعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نقل سنة رسول الله ﷺ في السفر لدرجة أنه نقل تلك الضحكة التي ضحكها رسول الله ﷺ فعن علي ابن ربيعة رضي الله عنه قال: «شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرات. ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرات. ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت: ...».

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المعلم والمربي القدوة من كمال الامتثال لأمر الله عز وجل والاقتداء بالرسول ﷺ، وذلك هو أول شرط وأعظمه لكي يحقق المعلم وظيفته التي كلف الله بها الرسل وأتباعهم، فإذ امتثل وانقاد انقياداً تاماً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال الله: "ولكن كونوا ربانيين" أي تنتسبون إلى الرب عز وجل بطاعتكم إياه وعبوديتكم له واتباعكم لشريعته ومعرفتكم لصفاته، كما يجب عليه أن يكون صادقاً فيما يدعو إليه، ويعلم غيره، وعلامة الصدق أن يطبق على نفسه، فإذا طابق عَمَلُه عِلْمَه اتبعه الطلاب وقلدوه في كل من أقواله وأفعاله، أما إذا خالف عمله لما يعلم ويدعو إليه فإن طلابه يشعرون بعدم عزمه على تحقيق ما يقول أو بعدم إيمانه بما يقول أو بعدم جدية أقواله[٢].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي ص ١٨٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي ص ١٤١، ١٤٠.

رابعاً- الرحلات العلمية:

من الموارد والوسائط التربوية المفيدة الرحلات العلمية، ومن دلائل ذلك ما جاء في الحث على الأسفار سواء أكانت لأغراض دينية كالجهاد والحج أم كان لأغراض الكسب ورفع المستوى المعيشي، وكذلك السفر لطلب العلوم واكتساب الفنون، ويمكن لنا أن نستنبط ذلك ضمنياً من أحاديث الباب، حيث وردت في الحديث عن مقام الأسفار وما ينبغي لها من آداب تُراعى.

إن للرحلات العلمية أكبر الأثر في تقويم شخصية الإنسان وسلوكياته فضلاً عن اكتسابه المهارات والعلوم واتساع أفقه وتجدد نشاطه العلمي والحياتي.

إن من آمن بالعلم وأثره في تثقيف العقول ونمائها وتهذيب النفوس وصقلها طلبه في مظانه مهما بعدت الشقة وقل الزاد وتعذرت الراحلة.

ولقد سجلت لنا كتب الرحلات وكتب الأدب أخبار أعداد ضخمة ممن قطعوا المسافات الطويلة وتحملوا قسوة الحياة في سبيل تحصيل زادٍ علمي أو تحقيق مسألةٍ طال فيها الجدل أو لقاءَ عالمٍ مشهور ذاع صيته.

إن الرحلة في طلب العلم حقيقة واقعة، وإن ما بذل لها وأنفق فيها قد حدث فعلاً، وإن الذين وضعوا المعالم على الطريق كانوا رجال الحديث، ومما شجع على رحلات العلم، حبه، والرغبة في الاغتراف من منابعه من جهة، وما أوقفه الخيرون ورصده الأوفياء لطلاب العلم حثاً عليه وتشجيعاً لضبط مسائله من جهة أخرى.

لقد انتشرت في العالم الإسلامي منذ الرعيل الأول الرحلات العلمية وإنفاق المال والجهد في سبيل علم نافع، وقد دعا إلى هذه الرحلات العلمية:

أ- حب الناس للعلم وإقبالهم عليه واحتفاؤهم به ورغبتهم في التزود منه والتفوق في أفانينه وفنونه بعد أن استشعروا اللذة في تحصيله ورغبوا في أن ييسروا سبيله للطالبين حسبة لوجه الله تعالى.

ب- الأمانة العلمية فرضت على العلماء الرحلات العلمية رغبة في توثيق الحديث والتأكد من صدقه وسلامته، والدين يدعو للوفاء بالأمانة والوازع الديني من أقوى الدوافع.

ج- في الرحلة متعة، يرى المرتحل أماكن جديدة، ويزداد رصيده من الخبرة، ومن الصحبة، ومن المعرفة، وإن تحمل في سبيل ذلك الأهوال.

د- كان التنافس بين المشرق والمغرب في سبيل السبق العلمي لما يحفز الهمة.

هـ- المجد الأدبي، في أكثر الحالات، والمكسب المادي في بعض الحالات.

و- كان الناس يُقَوِّمون العالم، بمقياس ما قام به من رحلة، وما تيسر له من قراءة، وما حصله من معرفة، ومَنْ جلس إليهم من علماء.

ز- دراسة الحديث، وتوثيقه، حتى يكون قوي السند، صادق الرواية.

ح- ما كان يقدم للمرتحلين من أسباب العون العلمي، والمادي.

وقد اتجهت الرحلات:

أ- إلى البادية، ليستمعوا إلى اللغة في أنقى أساليبها، وإلى الأدب في أرقى صوره، وإلى التاريخ في أصح رواياته.

ب- حيث يقيم الصحابة في البلاد المفتوحة، ليفقهوا المسلمين في أمور دينهم.

ج- إلى الأماكن المقدسة للحج، والتزود من حلقات العلم، وقد يطول المقام بها.

د- إلى مواطن الثقافة - أنَّى كانت- في بلاد المشرق، مصر، وبغداد، ودمشق، وفي بلاد المغرب قرطبة، وطليطلة، وقد تمتد الرحلة إلى ما وراء النهر، والهند.

هـ- إلى المدارس المختلفة، بعد أن ظهرت إلى الوجود، وبعد أن اتسعت مناهجها، واختير العلماء المبرزون للتدريس فيها، وامتلأت المكتبات بكتبها، ثم تكفلت لطلاب العلم بما يغنيهم، ويحفز هممهم.

و- وهناك رحلة الباحثين عن إشباع ميولهم في الدراسات الدينية، أو الأدبية، أو اللغوية، أو العلمية، أو الفلسفية، أو الاجتماعية[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح ص ٢٩٤-٢٩٧.

١٧١- باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها

وتسبيحه إذا هبط الأودية ونحوها

والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

الحديث رقم (٩٧٦)

٩٧٦- عن جابر رضي الله عنه ، قَالَ: كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا ، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا. رواه البخاري[(١)].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

من يتفقد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أن له عند كل حركة ذكراً ، وعند كل سكنة ، وقد صارت هذه الأذكار سنة من بعده لأمته في كل مكان ، وزمان تربطهم بربهم ، وتحميهم من شياطينهم ، وتغسل قلوبهم من الحزن على الماضي ، ومن الغم بالحاضر ، و من الهم بالمستقبل ، وهذا الحديث يعرض شكلا من أشكال التقلب مع ذكر الله يرويه جابر رضي الله عنه بقوله (كنا) الذي يدل على اعتيادهم ذلك ، وناء الفاعلين تقرر أنه فعل جماعة لا فعل فرد مما يؤكد الفعل ، وقد قابل بين صعدنا ، ونزلنا ليستوعب حركة المسير انخفاضاً ، وارتفاعاً مع ذكر الله بين التكبير ، والتسبيح.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للمسافر أن يكبِّر إذا صعد الثنايا وشبهها ، ويسبح إذا هبط الأودية ونحوها ، ويكره رفع الصوت بذلك لأحاديث الباب)[(٢)].

---

(١) برقم ٢٩٩٣.

(٢) المجموع شرح المهذب ، الإمام النووي ١٩٤/٤ ، بتصرف.

وقال النووي: (السنة أن يقول إذا رجع من سفره ما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قَفَل من الحج أو العمرة... الحديث)[١].

وقد بوّب النووي على الحديث (٩٧٩) في كتاب الأذكار: باب استحباب طلبه [أي المسافر] الوصية من أهل الخير[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التكبير والتسبيح في السفر.

ثالثاً: من آداب المدعو: الانشغال بذكر الله تعالى.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

ورد أسلوب الإخبار بما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في السفر من التكبير والتسبيح، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في الحديث "كنا إذا صعدنا كبرنا...".

وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: "كان النبي صلى الله عليه وسلم وجيوشه إذا علَوا الثنايا كبروا...".

قال د. محمد ساداتي الشنقيطي: (شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هي الشخصية الأولى في حياة المسلمين، وهي المثل والقدوة، والكشف عن حقائقها مما يحقق الاستجابة لدعوة الحق... ولئن كانت الاستجابة للدعوة تتأثر إلى حد كبير بعناصر شخصية الداعية، فإن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قد جمعت الفضائل الخلقية والمكارم الإنسانية الرفيعة. وهي قبل ذلك شخصية متعبدة خاشعة متصلة بالله آناء الليل وأطراف النهار، وقد كشف الإخبار عنها في أبعادها النبوية والبشرية... وهو أيضاً يحقق الإقبال على سيرته العطرة)[٤]. وكذلك الإخبار عن أفعال الصحابة رضي الله عنهم في اقتدائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم يزيد

(١) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٩ .

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٧٧).

(٤) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام ٣٧٣-٣٧٥.

من فاعلية الدعوة إلى الاقتداء بالنبي ﷺ، فإن الصحابة رضي الله عنهم ما حققوا فلاحاً أو صلاحاً أو فوزاً إلا وكان طريقهم في ذلك الاقتداء به ﷺ.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التكبير والتسبيح في السفر:

وهذا واضح من الحديثين[١]، فالتكبير عند صعود الثنايا وما يشبهها، وقول سبحان الله عند الهبوط.

قال ابن حجر: (قال المهلب: تكبيره ﷺ عند الارتفاع، استشعار لكبرياء الله عز وجل، وعند ما يقع عليه العين من عظيم خلقه أنه أكبر من كل شيء، وتسبيحه في بطون الأودية مستنبط من قصة يونس، فإن بتسبيحه في بطن الحوت نجاه الله من الظلمات، فسبّح النبي ﷺ في بطون الأودية لينجيه الله منها. وقيل مناسبة التسبيح في الأماكن المنخفضة، من جهة أن التسبيح هو التنزيه، فناسب تنزيه الله عن صفات الانخفاض كما ناسب تكبيره عند الأماكن المرتفعة)[٢].

وقال ابن عثيمين: (من آداب السفر أنه إذا صعد الإنسان شيئاً مرتفعاً، كالجبل وكذلك الطائرة إذا صعدت فإنه يكبّر يقول: "الله أكبر" إما مرة أو مرتين أو ثلاثاً. وإذا نزل سبح قال سبحان الله مرة أو مرتين أو ثلاثاً، ووجه ذلك أن الإنسان إذا علا فإنه يرى نفسه في مكان عال، فقد يستعظم نفسه، فيقول: الله أكبر، يعني: لو علوتِ أيتها النفس فإن فوقك من هو أعلى منك، وهو الله عز وجل. أما إذا نزل فالنزول سفول ودنو وذل. فيقول: سبحان الله يعني أُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن السفول والنزول، لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وإن كان -جل وعلا- ثبت عن رسول الله ﷺ أنه ينزل إلى السماء الدنيا[٣] هذا نزول يليق بجلاله وعظمته ولا يلزم منه السفول، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء)[٤].

---

(١) حديث رقم (٩٧٥)، (٩٧٦).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٦/٦.

(٣) أخرجه البخاري ١١٤٥، ومسلم ٧٥٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر..." الحديث.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٢٢٥/٢.

ثالثاً- من آداب المدعو: الاشتغال بذكر الله تعالى:

هذا واضح من الحديثين، فالرسول ﷺ وصحابته الأكرمون لم يشغلهم السفر - وفيه ما فيه من المشقة والجهد- لم يشغلهم عن ذكر الله تعالى. وهكذا ينبغي أن يكون حال المدعو مع ربه. قال ابن عثيمين: (من الآداب المستحبة التي من هدي الرسول ﷺ وأصحابه أنك إذا صعدت تقول: الله أكبر، وإذا نزلت وادياً تقول: سبحان الله كذلك الطائرة عند ارتفاعها تكبر، وعند نزولها المطار تسبح، لأنه لا فرق بين الصعود في الهواء والنزول منه أو على الأرض)[١]. قال ابن هبيرة: (إن رسول الله ﷺ لم يكن ليغفل عن ربه في حال سفره، ولا في حال قدومه، ولا مقامه ولا ظعنه؛ ولا ليله ولا نهاره، وكان في كل حال من حاله له ذكر يخصه، وهكذا ينبغي لكل مسلم؛ فإن الله تعالى هو الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، والسلامة في السفر منه سبحانه)[٢].

قال النووي في الأذكار (قال العظيم العزيز الحكيم: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] فعلم بهذا أن من أفضل، أو أفضل حال العبد حال ذكره رب العالمين، واشتغاله بالأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ سيد المرسلين)[٥].

وقال كذلك: (اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال، أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً بل يأتي بما تيسر منه، لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: ((فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٥-١٢٢٦.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/٢٨٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) مقدمة الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ١٧.

(٦) أخرجه البخاري ٧٢٨٨، ومسلم ١٣٣٧.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾[1])[2].

قال القاسمي ("الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم" أي فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله، المفيد صفاء الظاهر، المؤثر في تصفية الباطن، فالمراد تعميم الذكر للأوقات وعدم الغفلة عنه تعالى، وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر، ليس لتخصيص الذكر بها، بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً)[3].

قال ابن القيم في مدارج السالكين: (ومن منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" منزلة الذكر، وهي منزلة القوم، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال.

والذكر جلاء القلوب وصقالها، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته، وهو روح الأعمال، فإذا خمل العبد عن الذكر، كان كالجسد الذي لا روح فيه.

والذكر ثلاثة أنواع:

ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده وهو بالدرجة الثانية، وذكر باللسان المجرد وهو بالدرجة الثالثة.

وأنواع الذكر ثلاثة: ثناء ودعاء ورعاية، والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء، ومتضمنة لكمال الرعاية ومصلحة القلب، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب تعلقاً وتضرعاً واستعطافاً، وغير ذلك من أنواع المناجاة)[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

(٢) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢١.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣٢٢/٤.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٥٨/٣-٢٨٣ ملخصاً وقد استفدنا هذا التلخيص من عبدالله البسام في كتابه توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٩٧/٦.

(وذكر العبد لربه يكون بالإخبار المجرد عن ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، او بإفشاء الثناء عليه بتقديسه وتمجيده، وتوحيده وحمده، وشكره وتعظيمه)[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٢٠/٢١ وانظر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، الصنعاني ص ٩٩٢-٩٩٤، الدولية، الرياض.

الحديث رقم (٩٧٧)

٩٧٧- وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ وجيُوشُهُ إذَا عَلَوا الثَّنَايَا : كَبَّرُوا ، وَإذَا هَبَطُوا : سَبَّحُوا. رواه أَبُو داود[١] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الثنايا : جمع ثنية : الطريق في الجبل[٢].

الشرح الأدبي

يروي الحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دون مؤكدات لأنه ينقل خبراً مجمعاً عليه فهو فعل للنبي وجيوشه فلم يحتج إلى توكيد ، وقوله: (كَانَ النَّبيُّ ﷺ وجيُوشُه) يشير إلى ذلك وجمع الجيوش زيادة في التوكيد ، وإشارة إلى عموم الخبر، وأسلوب الشرط يعطيه صفة العموم، والتكرار علواً مع التكبير، وهبوطاً مع التسبيح، وقد جاءت الصلاة على هيئة فعلهم تكبير في ارتفاع وتسبيح في الركوع، والسجود.

المضامين الدعوية[٣]

(١) برقم ٢٥٩٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ث ن ي).

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (٩٧٨)

٩٧٨- وعنه، قَالَ: كَانَ النَّبي ﷺ إذَا قَفَلَ مِنَ الحَجِّ أَوْ العُمْرَةِ، كُلَّمَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلاثاً، ثُمَّ قَالَ: ((لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

وفي رواية لمسلم[2]: إذَا قَفَلَ مِنَ الجيُوشِ أَو السَّرَايَا أَو الحَجِّ أَو العُمْرَةِ.

قوله: "أَوْفَى" أي: ارتفع، وقوله: "فَدْفَدٍ" هو بفتح الفاءين بينهما دال مهملة ساكنة، وآخره دال أخرى وهو: الغليظ المرتفع من الأرض.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

قفل: رجع[3].

أوفى: ارتفع[4].

الثنية: الطريق في الجبل[5].

الفَدْفَدِ: الغليظ المرتفع من الأرض[6].

آيبون: جمع آيب أي راجع، وزنه ومعناه[7].

الأحزاب: هم قريش ومن معها من القبائل الذين تجمعوا لقتال النبي ﷺ في شوال

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٨٥، ومسلم بعد حديث ١٣٤٤/٤٢٨ بدون رقم ولم يسق لفظه، كلاهما عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر.

(٢) برقم (١٣٤٤/٤٢٨) من حديث عبيد الله بن عمر، عن نافع.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٣/١١، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤٢.

(٤) رياض الصالحين ٣٨١.

(٥) القاموس والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ث ن ي).

(٦) رياض الصالحين ٣٨١.

(٧) فتح الباري، ابن حجر ١٩٣/١١، شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٨٤٢.

٥هـ، وحاصروا المدينة قريباً من شهر، وردهم الله خائبين وتسمى غزوة الأحزاب بغزوة الخندق كذلك، لأن المسلمين حفروا خندقاً شمالي المدينة منع الأحزاب من اقتحامها(١). وقال ابن حجر: والأصل في الأحزاب أنه جمع حزب، وهو القطعة المجتمعة من الناس، فاللام إما جنسية والمراد كل من تحزب من الكفار، وإما عهدية والمراد من تقدم وهو الأقرب(٢).

السرايا: جمع سرية أي قطعة من قطع الجيش، أقلها تسعة أشخاص، وأقصاها أربعمائة شخص، وعددها اليوم مائة وخمسة أشخاص(٣).

الشرح الأدبي

قوله: (إِذَا قَفَلَ مِنَ الحَجِّ أَوْ العُمْرَةِ) أسلوب شرط جوابه جملة شرط أخرى (كُلَّمَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلاثاً) يربط القفول من الحج أو العمرة بالتكبير عند كل ثنية، وأسلوب الشرط يعطي الخبر صفة العادة بالنسبة إلى الرسول ﷺ، وصفة السنة لأمته، وقوله (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ) بني على التوكيد، والتخصيص فهو أسلوب قصر حقيقي تحقيقي لصفة الألوهية على الله، ونفيها عن كل من سواه، ولفظ، وحده توكيد يستغرق أعماق النفس بمعنى التوحيد، وقوله (لا شريك له) أسلوب نفي يؤكد مضمون كلمة التوحيد، وقد فصلت عنها لكمال الاتصال بين الجملتين؛ لأن الثانية مؤكدة لمضمون الأولى، وقوله (، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ) أسلوبي قصر لصفة الملك، وصفة الحمد على الله، ونفيهما عن كل من سواه، وقوله: (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ) بين الكلمتين الأوليين جناس بديع يجذب السمع، وتطرب له النفس، وكذلك بين الكلمات الثلاثة الأخيرة كما أنه يجمعها جميعاً جرساً عذباً مصدره السجع في آخرها، وقوله: (صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ) فيه سجع بديع يجعل العبارة كنشيد عودة الصالحين من رحلة الطهر يسهل على الجميع حفظه، ويتلذذون بترديده.

---

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٦٤، أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل ١٣.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٩٤.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٢٧.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الدعاء عند الرجوع من السفر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تمجيد الله والثناء عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الدعاء عند الرجوع من السفر:

هذا واضح من الإخبار عن النبي ﷺ: "كان إذا قفل من الحج أو العمرة" وفي رواية لمسلم: "إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة". وفي رواية عند البخاري(١): "كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة" وبوب عليه البخاري في كتاب الدعوات: باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع(٢).

قال ابن حجر: (قوله "من غزو أوحج أو عمرة" ظاهره اختصاص ذلك بهذه الأمور الثلاثة، وليس الحكم كذلك عند الجمهور، بل يشرع قول ذلك في كل سفر إذا كان سفر طاعة، كصلة الرحم وطلب العلم، لما يشمل الجميع من اسم الطاعة، وقيل يتعدَّى أيضاً إلى المباح، لأن المسافر فيه لا ثواب له فلا يمتنع عليه فعل ما يحصل له الثواب. وقيل يشرع في سفر المعصية أيضاً، لأن مرتكبها أحوج إلى تحصيل الثواب من غيره. وهذا التعليل متعقب، لأن الذي يخصه بسفر الطاعة، لا يمنع من سافر في مباحٍ ولا في معصية من الإكثار من ذكر الله، وإنما النزاع خصوص هذا الذكر في هذا الوقت المخصوص، فذهب قوم إلى الاختصاص، لكونها عبادات مخصوصة شرع لها ذكر مخصوص. فتختص به كالذكر المأثور عقب الأذان وعقب الصلاة، وإنما اقتصر الصحابي على الثلاث، لانحصار سفر النبي ﷺ فيها ولهذا ترجم بالسفر)(٣).

فكان الدعاء عند الرجوع من السفر إعلاناً من العبد أنه عبدٌ ذليل خاضع لله عز وجل، فهو عبده في جميع الأوقات والأحوال والأزمان، فهو في حالة السلامة عبدٌ، كما كان في حالة الخوف، وهو في حالة ملاقاة الأهل والأوطان والرجوع إليها عبده، كما

---

(١) صحيح البخاري ١٧٩٧، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥.

(٢) الحديث رقم ٦٣٨٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٨٩.

كان في حالة مفارقتها، وهو عبده بالليل، كما هو عبده بالنهار، وهو عبده بالنهار، كما هو في الليل، وهو عبده وهو يصعد الجبال والمرتفعات، كما هو عبده وهو ينزل السفوح والأودية. وهكذا العبد يعلن في كل لحظة أنه فقير إلى الله عز وجل، يطلب مدده وعونه وحفظه وعنايته. قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث ما يدل من الفقه أن رسول الله ﷺ كان إذا آب من سفر، لم يُلْهه فرح الأوبة، ولا دهشة الداخل، ولا سرور القادم على الأهل بعد طول الغيبة، عن شكر الله وحمده والثناء عليه، فكان يعلن بذلك على كل شُرُف، وهو المكان العالي)[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تمجيد الله والثناء عليه:

هذا واضح من كون الرسول ﷺ كبر الله ثلاثاً ثم يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده".

قال أبو العباس القرطبي: (وتكبيره ﷺ في هذه المواضع المرتفعة إشعار بأن أكبرية كل كبير إنما هي منه، وأنها محتقرة بالنسبة إلى أكبريته تعالى وعظمته)[2].

قال ابن حجر: (قوله "ثم يقول: لا إله إلا الله... إلخ" يحتمل أنه كان يأتي بهذا الذكر عقب التكبير وهو على المكان المرتفع، ويحتمل أن التكبير يختص بالمكان المرتفع، وما بعده إن كان متسعاً أكمل الذكر المذكور فيه، وإلا فإذا هبط سبّح كما دل عليه حديث جابر[3]، ويحتمل أن يكمل الذكر مطلقاً عقب التكبير، ثم يأتي بالتسبيح إذا هبط. قال القرطبي[4]: وفي تعقيب التكبير بالتهليل، إشارة إلى أنه المتفرد بإيجاد جميع الموجودات، وأنه المعبود في جميع الأماكن.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ١٣٥/٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٩٩٣.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٦/٣.

قوله "آيبون" جمع آيب أي راجع وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: نحن آيبون، وليس المراد الإخبار بمحض الرجوع فإنه تحصيل الحاصل، بل الرجوع في حالة مخصوصة، وهي تلبسهم بالعبادة المخصوصة، والاتصاف بالأوصاف المذكورة. وقوله "تائبون" فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع أو تعليماً لأمته، أو المراد أمته. وقد تستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة، فيكون المراد أن لا يقع منهم ذنب. قوله "صدق الله وعده" أي فيما وعد به من إظهار دينه في قوله ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾[1]. وقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] وهذا في سفر الغزو، ومناسبته لسفر الحج والعمرة قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[3]. قوله "ونصر عبده" يريد نفسه، قوله "وهزم الأحزاب وحده" أي من غير فعل أحد من الآدميين)[4].

وقال النووي: (والمراد بالأحزاب الذين اجتمعوا يوم الخندق وتحزبوا على رسول الله ﷺ، فأرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وبهذا يرتبط قوله ﷺ "صدق الله" تكذيباً لقول المنافقين، والذين في قلوبهم مرض ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[5]. هذا هو المشهور أن المراد أحزاب يوم الخندق. قال القاضي[6]: وقيل: يحتمل أن المراد أحزاب الكفر في جميع الأيام والمواطن)[7].

وقال القرطبي: (ويحتمل أن يكون هذا الخبر بمعنى الدعاء، كأنه قال: اللهم افعل ذلك وحدك)[8].

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٠.

(٢) سورة النور، آية: ٥٥.

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/١٨٩-١٩٠.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ١٢.

(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤/٤٥٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/٩/١١٩-١٢٠، ، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/١٩٠، .

(٨) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٤٥٧.

وقال ابن هبيرة: (وقوله: "تائبون" بعد قوله: "آيبون"؛ فإن التوبة تتضمن معنى الأوبة، إلا أنها فيها زيادة تخليص لمعنى الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فكان قوله ﷺ: "تائبون" عند قفوله من عبادة كالغزو والحج بعد قوله: "آيبون" على أثر ذلك نافياً للعجب من كل عبادة، ليدحض العجب بالكلية.

وقوله: "ساجدون" الإشارة بذلك إلى الصلاة. وقوله: "لربنا حامدون" كان الوقوف على ربنا: إنا ساجدون لربنا، ثم عاد فابتدأ حامدون، ويكون هذا خبر أيضاً والمبتدأ محذوف؛ أي: ونحن حامدون.

وقوله: "صدق الله وعده" أي الذي وعد به، وهذا وإن كان في حج ولم يجر فيه حرب يقتضي ذكر النصر، فإنه يُذكر ﷺ بالنعمة المتأخرة النعمة المتقدمة، وهذا يتعين على كل منعم عليه، أن تذكره النعمة المتقدمة ولا يكون سبباً في نسيانها؛ فإنه ﷺ إنما دخل المسجد الحرام آمناً لا يخاف شيئاً من نصر الله له وإعلاء كلمته، فلم تنسه هذه المتأخرة النعمة المتقدمة، بل كانت مذكرة بها)[1].

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤/١٣٥ -١٣٦.

الحديث رقم (٩٧٩)

٩٧٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رجلاً قَالَ: يَا رسول الله ، إنّي أُريدُ أنْ أُسَافِرَ فَأوْصِني ، قَالَ: ((عَلَيْكَ بتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبيرِ عَلَى كلِّ شَرَفٍ)) فَلَمَّا[1] وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ: ((اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ البُعْدَ[2]، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ)) رواه الترمذيُّ[3] ، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شرف: مكان عال[4].

وَّلى: أدبر وذهب[5].

اطوِ لَهُ: قربه له وسهل له[6].

الشرح الأدبي

قول الرجل (أوصني) أمر استرشاد ، ونصح ، يخفي وراءه رغبة في مباركة الرسول ﷺ لهذا السفر، ودعائه له، وهو ما أسفر عنه الحديث حيث حقق له ما طلب صراحة بقوله (عَلَيْكَ بتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبيرِ عَلَى كلِّ شَرَفٍ) وهو أمر بمعنى الزم، وتقوى الله اسم جامع لمعاني الخشية ، والخوف، والمراقبة، والحياء، وصفات كثيرة ، وكذلك حقق له الرسول ﷺ ما يتمنى مما لم يطلبه فدعا له (اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ البُعْدَ ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ)

---

(١) عند الترمذي زيادة: (أن).

(٢) لفظ الترمذي: (الأرض) والمثبت لفظ مشكاة المصابيح ٢٤٣٨ ، وعند أحمد في المسند ٨٣٨٥ بلفظ: (البعيد).

(٣) برقم ٢٧٧١. وصحّحه ابن خزيمة ٢٥٦١ ، وابن حبان، الإحسان ٢٦٩٢ ، وقال الحاكم ٩٨/٢: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ر ف).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (و ل ى).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط و ي).

وصيغة اللهم نداء بغرض الدعاء فيه مزيد تذلل، وخضوع يؤذن بالإجابة، والأمر (اطو) مقصود به الدعاء بتيسير السير، والتعبير بالطي على سبيل الاستعارة شبه الأرض بما يطوي من الثياب، وغيرها لقطع المسافات، وهذه الاستعارة توحي بسرعة قطع الأرض مع الخفة، والسهولة، وتقديم الجار، والمجرور (له) يفيد الاختصاص به.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حِرْص الصحابة رضي الله عنهم على طلب الوصية من الرسول ﷺ.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ للمسافر بتقوى الله والتكبير على كل شرف.

ثالثاً: من آداب الداعية: الدعاء للمسافر بتيسير السفر وتسهيله عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حِرْص الصحابة رضي الله عنهم على طلب الوصية من الرسول ﷺ:

هذا واضح من قول الرجل: "يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني: قال: عليك بتقوى الله والتكبير على كلِّ شرف". فهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم الشديد على طلب الوصية من رسول الله ﷺ قبل سفرهم، ليرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، لأنه رسول رب العالمين الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن هذا القبيل ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسُولِ الله فقالَ يا رسولَ الله إنّي أُرِيدُ سَفَراً فَزَوِّدْنِي، قالَ: زَوَّدَكَ الله التَّقْوَى. قالَ زِدْنِي. قالَ وَغَفَر ذَنْبَكَ. قالَ زِدْنِي بِأبي أنْتَ وأمِّي. قالَ ويَسَّر لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُما كُنْتَ))[1].

قال المباركفوري: (قوله "فزودني" أمر من التزويد وهو إعطاء الزاد، والزاد طعام يتخذ للسفر يعني: ادع لي دعاءً يكون بركته معي في سفري كالزاد. "زودك الله بالتقوى" أي الاستغناء عن المخلوق، أي امتثال الأوامر واجتناب النواهي. "قال زدني" أي من الزاد أو من الدعاء "ويسر لك الخير" أي سهل لك خير الدارين حيثما كنت" أي في أي مكان حللت، ومن لازمه في أي زمان نزلت.

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٤٤، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٣٩).

قال الطيبي[1]: يحتمل أن الرجل طلب الزاد المتعارف، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه على طريقة أسلوب الحكيم: أي زادك أن تتقي محارمه وتجتنب معاصيه. ومن ثم لما طلب الزيادة قال: "وغفر ذنبك"، فإن الزيادة من جنس المزيد عليه، وربما زعم الرجل أنه يتقي الله، وفي الحقيقة لا يكون تقوى لا تترتب عليها المغفرة، فأشار بقوله "وغفر ذنبك" أن يكون ذلك الاتقاء بحيث يترتب عليه المغفرة. ثم ترقى إلى قوله "ويسر لك الخير" فإن التعريف في "الخير" للجنس، فيتناول خير الدنيا والآخرة)[2].

إذن فما أجدر أن يقتدي المدعوون بالصحابة رضي الله عنهم في طلبهم الوصية من النبي ﷺ وعملهم بما وصّاهم به النبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، فإن سنته بيننا تنادي علينا صباح مساء، أن اقتدوا بصاحبي خير الخلق محمد ﷺ كما اقتدى صحابته وهم خير القرون، فتفوزوا كما فازوا، وتفلحوا كما أفلحوا، وتنشروا الخير بينكم وفي أرجاء العالم كما نشروا، وتحملوا إليهم العدل والإصلاح كما حملوا. فكانوا خير أمة أخرجت للناس، فإن فعلتم هذا كنتم متصفين بهذه الخيرية.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: وصية النبي ﷺ للمسافر بتقوى الله والتكبير على كل شرف:

هذا واضحٌ من قول النبي ﷺ للمسافر: "عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف".

قال المباركفوري: (قوله "عليك بتقوى الله" أي بمخافته والحذر من عصيانه "والتكبير" أي قول الله أكبر، ومناسبة التكبير عند الصعود إلى المكان المرتفع، أن الاستعلاء والارتفاع محبوب للنفوس، لما فيه استشعار الكبرياء، فشرع لمن تلبس به أن يذكر كبرياء الله تعالى، وأنه أكبر من كل شيء، فيكبره ليشكر له ذلك، فيزيده من فضله. قاله الحافظ)[3].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٧٤/٥.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٥٥/٢-٢٤٥٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٥٦/٢.

وقد قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال القاسمي: (ويقال في معنى الآية: وتزودوا من التقوى للمعاد، فإن الإنسان لابد له من سفر في الدنيا، ولابد فيه من زاد، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة، لابد فيه من زاد أيضاً، وهو تقوى الله والعمل بطاعته واتقاء المحظورات. وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإن زادالدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة. وثمة وجه آخر: وهو أن قوله تعالى "وتزودوا" أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر، وقوله "فإن خير الزاد التقوى" إرشاد إلى زاد الآخرة وهواستصحاب التقوى إليها، بعد الأمر بالزاد للسفر في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع)[3].

وربما قد يظهر تساؤل: ما الحكمة من جمع النبي ﷺ في وصيته بين تقوى الله والتكبير على كل شرف؟

والإجابة على هذا السؤال قد تكمن في معرفة العلاقة بين تقوى الله والتكبير، فتقوى الله تعني إتيان أوامره واجتناب نواهيه، وهذا من إجلال الله وتعظيمه، كما أن التكبير من إجلال الله وتعظيمه، فكان التكبير إظهاراً لما التزم به المسافر من تقوى الله وخشيته، فكان في تكبيره هذا أربع رسائل:

الرسالة الأولى يتوجه بها إلى الله ويتضرع إليه، ويقرّ أمامه أنه عبدٌ ذليل لرب عظيم.

والرسالة الثانية يوجهها إلى نفسه أنه مهما علا وارتفع في هذه الدنيا، فإنه لن يعدو مقداره، ولن يتخطى قدره، وهو أنه عبدٌ لله، وأنه لن يحيا ولن يموت إلا في مقام العبودية والتذلل لرب العالمين.

والرسالة الثالثة يوجهها إلى العالم المحيط حوله أنه عبدٌ لله، معظّم له، حافظ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٣/١٥٤-١٥٥.

لحرماته، لا يتعداها ولا ينتهكها، ومن ثم فإنه لن يظلم ولن يجور، بل سيكون العالم منه في أمان وسلام.

والرسالة الرابعة يوجهها إلى المعتدين والمتكبرين الذين قد يلحقون به الأذى، إنه يبعث إليهم: أن الله معه بحفظه وعنايته، وأنّ من كان في حفظ الله وعنايته، فلن يضره شيء ويدافع الله عنه.

ثالثاً- من آداب الداعية: الدعاء للمسافر بتيسير السفر وتسهيله عليه:

هذا واضح من قول النبي ﷺ عند تولي الرجل "اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر".

قال المباركفوري: (قوله "اللهم اطو له البعد" أمر من الطي أي قربه له وسهل له، والمعنى: ارفع عنه مشقة السفر بتقريب المسافة البعيدة له حساً أو معنى "وهون عليه السفر": أي أموره ومتاعبه وهو تعميم بعد تخصيص)(١).

وقد قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ))(٢).

وقد وقع لجابر نفسه حظ من دعاء النبي ﷺ وهو في السفر فقال: ((غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، فَتَلاَحَقَ بِي، وَتَحْتِي نَاضِحٌ لِي قَدْ أَعْيَا وَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي مَا لِبَعِيرِكَ؟ قَالَ قُلْتُ: عَلِيلٌ، قَالَ: فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللهِ فَزَجَرَهُ وَدَعَا لَهُ، فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ؟ قَالَ قُلْتُ: بِخَيْرٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ)). الحديث(٣).

فكان دعاؤه ﷺ للصحابة دليلاً على شفقته ورأفته بأمته وعنايته بها أفراداً وجماعات، كما أنه ﷺ لم يدعُ للصحابة فحسب، بل دعا أيضاً لأمته من بعده، كما أنه ﷺ صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، فهذاكله يوضح كمال عناية

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢٤٥٦/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٦٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٩٨).

(٣) أخرجه البخاري ٢٧١٨، ومسلم ١١٠-٧١٥.

النبي ﷺ بأمته في الدنيا والآخرة.

وما أجمل أن يقتدي الداعية به ﷺ، فيحرص أن يدعو للمدعوين بكل خير ونفع لهم في الدنيا والآخرة، ففي فعل الداعية ذلك تقريب له من نفوس المدعوين، فيسهل قبولهم لدعوته والإقبال عليها. كما أنه في دعائه لهم، دعوة لأن يزدادوا إذعاناً وخضوعاً لله رب العالمين، فهو هو ذا الداعية أمامهم يرفع أكف الضراعة ويتوجه لله سبحانه، وهو أعلمهم وأقربهم له عز وجل، فكان في ذلك توجيه رسالة دعوية لهم، أنه كلما ازداد المرء علماً وقرباً، ازداد تضرعاً وتذللاً لله رب العالمين.

الحديث رقم (٩٨٠)

٩٨٠- وعن أَبي موسى الأشعريِّ ﷺ، قَالَ: كنّا مَعَ النبيِّ ﷺ (فيَ سَفَرٍ) [(١)]، فَكُنَّا إِذَا أشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا وَارتَفَعَتْ أصْوَاتُنَا، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: ((يَا أيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أنفُسِكُمْ، فَإنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إنَّهُ مَعَكُمْ، إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)) متفقٌ عَلَيْهِ[(٢)].

"ارْبَعُوا" بفتح الباء الموحدة أي: ارفقوا بأنفسكم.

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

أشرفنا على وادٍ: اطلّعْنا عليه من فوق، أي: أقبلنا عليه[(٣)].

هللنا: قلنا: لا إله إلا الله[(٤)].

اربعوا: ارفقوا بأنفسكم[(٥)].

الشرح الأدبي

((ارْبَعُوا)) بفتح الباء الموحدة أيْ: ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ.

الفعل الماضي (كان) عودة إلى سراديب الماضي للتذكير بحدث من العصر المعلم لكل العصور، وإضافته لناء الفاعلين يشير إلى كثرة العدد، وأنه كان بمشهد فهو مؤكد، وقول الرسول ﷺ (يَا أيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ) قوله (أربعوا) أمر نصح، وإرشاد سبقه نداء عام، وغالباً ما يتصدر الأمور العظام، وهو خطاب للصحابة،

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم ٦٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٩٢، ومسلم ٢٧٠٤/٤٤.

(٣) الصحاح في (ش ر ف).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (هـ ل ل).

(٥) رياض الصالحين ٣٨١.

ومن بعدهم يطرد باطراد الزمان لهذه الأمة قال الطيبي (والخطاب العام: وهو ما يخاطب به غير معين للإيذان بأن الأمر لعظمه، وفخامته، حقيق بألا يختص بأحد دون أحد، وقوله (فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً) جملة تعليلية لتحقيق الامتثال للأمر السابق، والجملة بعده مؤكدة له، وبين قوله: (أصم، وسميع) طباق يؤكد المعنى، ويوضحه، وكذلك بين قوله (غائب، وقريب) لأن الغائب كالبعيد فقابل به القريب ليؤكد معنى قربه، وسمعه لمن جهر، ومن أسر على السواء.

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم في العبادة في موضع الرفق.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: خفض الصوت عند ذكر الله.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: إثبات صفة القرب والسمع والبصر لله عز وجل.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النداء والأمر والتعليل.

أولاً- من مهام الداعية: تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم في العبادة في موضع الرفق:

هذا واضح من قوله ﷺ: "يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم" حينما جهروا بالتكبير. قال النووي: (معناه: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة)[1].

فلما امتثل الصحابة رضي الله عنهم لذلك دلهم على كَنْز من كنوز الجنة. قال أبو موسى راوي الحديث ((ثمَّ أتى عليَّ وأنا أقولُ في نفسي: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، فقال: ياعبدَالله بن قيْس، قل لاحولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنها كَنزٌ مِنْ كنوز الجنة. أو قال: ألا أدلك على كلمةٍ هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله))[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٧/٢٧، .

(٢) أخرجه البخاري ٦٣٨٤، ٧٣٨٦، ومسلم ٢٧٠٤. وانظر كلاماً ماتعاً في بيان فضل قول لا حول ولا قوة إلا بالله ولماذا وصفها النبي ﷺ بأنه كنز من كنوز الجنة. انظر: شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩/١٧/٢٨-٢٩ وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/٧٧-٧٨.

ومن قبيل تنبيه المدعوين إلى الرفق بأنفسهم ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: ((قال لي رسولُ الله ﷺ: ياعبدَ الله، ألم أُخبَرْ أنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ فقلتُ: بلى يا رسولَ الله. قال: فلا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَيْنِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَورِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ بحَسْبِكَ أن تصُومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ. فإنَّ لكَ بكلِّ حسنةٍ عَشرَ أمثالِها، فإذن ذلكَ صِيامُ الدَّهرِ كلِّه)) الحديث[١].

قال النووي: (وحاصل الحديث بيان رفق رسول الله ﷺ بأمته، وشفقته عليهم وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثه على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق والإكثار من العبادات، التي يخاف عليهم الملل بسببها، أو تركها أو ترك بعضها)[٢].

وقال ابن عثيمين: (والحاصل أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادة، متى تسهّلت فليحمد الله، إن بعض الناس في أيام الشتاء يكون عنده الماء الساخن والبارد، يتوضأ بالبارد ويترك الساخن، يعذب نفسه، والله عز وجل يقول ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[٣] نعم إذا لم يكن عندك إلا الماء البارد واستعملته وشق عليك فلك أجر، أما أن تعدل عن السهل إلى الصعب طلباً للأجر فهذا ليس بصواب، متى تسهل الأمر فافعله، كذلك بعض الناس مثلاً يقول: أمشي على رجلي للحج لأنه أصعب من المشي بالسيارة. قلت: هذا خطأ، إذا سهل الله لك العبادة فافعل، أو أنك تقرأ على نور ضعيف، ولا تقرأ على نور قوي، لأن القراءة على النور الضعيف أصعب، هذا أيضاً خطأ، كلما تسهلت العبادة فافعل ما تيسّر ولكن لا تقصر، أما إذا لم يكن إلا مع تعب فهذا الأمر إلى الله، ومتى تعبت في العبادة فلك أجر)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٤/٨/٤٣، .

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٢٧.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: خفض الصوت عند ذكر الله:

هذا واضح من قوله ﷺ: "يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم، إنه سمع قريب".

قال النووي: (فيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت الحاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به أحاديث)(١).

وقال ابن حجر: (قال الطبري: فيه كراهية رفع الصوت بالدعاء والذكر، وبه قال عامة السلف من الصحابة والتابعين)(٢).

وقال ابن تيمية: (إن الدعاء هو ذكر للمدعو -سبحانه وتعالى- متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه. فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه للطلب... والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه)(٣).

وقال كذلك: (في إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدهما: أنه أعظم إيماناً لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفيَّ.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم(٤)، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مَقَتُوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفيَّ، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٢٧/١٧/٩ ومن الأحاديث التي وردت في رفع الصوت بالذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ، أخرجه البخاري ٨٤١، ومسلم ٥٨٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٥/٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٨.

(٤) بوّب القرطبي على هذا الحديث: باب يذكر الله بوقار وتعظيم وفضل لا حول ولا قوة إلا بالله. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢٥/٧.

وخشع صوتُه، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكنٌ وهذه الحالة لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص ... إلى آخر هذه الفوائد وقد أوصلها عشرة)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ينبغي أن يراعى مقدار رفع الصوت المأذون به في الذكر، فالأصل أن الذاكر يناجي ربه، والله تعالى قد وسع سمعه الأصوات، فينبغي أن لا يجهر بالذكر فوق ما يسمع نفسه، لأن ذلك أقرب للخشوع وأبعد من الرياء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[٢] وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣] قال بعض المفسرين: أي المعتدين برفع أصواتهم في الدعاء.

وقال النبي ﷺ: ((ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ))[٤].

قال في نزل الأبرار: الطريقة المثلى في هذا الباب، أن يجهر في الموضع الذي ورد فيه الجهر، ويسر في الموضع الذي ورد فيه الإسرار، وهذه المواضع مبينة في علم الحديث، والموضع الذي لم يرد فيه الدليل على الجهر أو السر، فالذاكر فيه بالخيار، ولكن لابد للذاكر فيه من ملاحظة قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٥] لئلا يتجاوز الحدود المضروبة له، ولذلك صرح الحنفية بكراهة رفع الصوت بالذكر مع الجنازة.

وقد اضطرب كلام الحنفية في هذا الأصل، فنقل عن القاضي أن الجهر بالذكر

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٣/٨-١٩.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٠٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٩٩٢، ومسلم ٢٧٠٤.

(٥) سورة الإسراء، آية: ١١٠.

في غير المواضع التي ورد فيها حرام، لما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أخرج جماعة من المسجد يهللون ويصلون على النبي ﷺ جهراً، وقال لهم: ما أراكم إلا مبتدعين. وقال في الفتاوى الخيرية: إن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالإسرار أفضل حيث خيف الرياء أو تأذي المصلين أو النيام، والجهر أفضل حيث خلا مما ذكر.

ويستثنى من هذا الأصل مواضع ينبغي فيها الجهر بالذكر ورفع الصوت به، لما في ذلك من المصالح التي قدرها الشرع في ذلك، فمنها:

١- ما قصد به الإسماع والتبليغ، كالأذان والإقامة، وتكبيرات الإمام وقراءته في الجهرية، وتكبيرات المبلغ، وإلقاء السلام وجوابه. ونحو ذلك، فيجهر في ذلك بالقدر الذي يحصل به المقصود.

٢- بعض أنواع أذكار الصلاة وردت السنة فيها بالجهر كالبسملة، والتأمين، والقنوت، والتكبير، والتسبيح، والتحميد بعد الصلاة، وتكبيرات العيد، والتلبية في الحج، وفي بعض ذلك خلاف يرجع إليه في مواضعه.

٣- بعض الأذكار التي يراد بها التنبيه أو التعليم، أو فائدة أخرى، كأن يرفع صوته بالتسمية على الطعام حتى ينبه غيره، أو بالقراءة في صلاة الليل ليسمع أهله. قال المالكية: ورفع صوت مرابط وحارس بحر بالتكبير في حرسهم، لأنه شعارهم ليلاً ونهاراً)[1].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: إثبات صفة القرب والسمع والبصر لله عز وجل:

ساق البخاري هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه بلفظ ((فإنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائباً تدْعون سميعاً بصيراً قَريباً))[2].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: في هذا الحديث نفي الآفة المانعة من السمع، والآفة المانعة من النظر، وإثبات كونه سميعاً بصيراً قريباً، يستلزم أن لا تصح أضداد هذه الصفات عليه)[3].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢١/٢٥٠-٢٥١ ومصادرها ومراجعها.

(٢) أخرجه البخاري ٧٣٨٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٣٧٥.

وقال ابن حجر: (قوله "باب وكان الله سميعاً بصيراً": قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال إن معنى سميع بصير: عليم قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر. فصح كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً، وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر، قال: وهذا قول أهل السنة قاطبة)[1].

قال ابن القيم عن صفة القرب المثبتة في هذا الحديث: (فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه؛ بل يجامعه ويلازمه؛ فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا؛ ولكنه نوع آخر، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه. كما قيل:

ألا رُبّ من يدنو ويزعم أنه   يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه، من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام، يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستوٍ على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله، خلي من محبته ومعرفته)[2].

وقال د. عمر سليمان الأشقر: (فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعلم سره

---

(١) المرجع السابق ٣٧٣/١٣.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٦١٣/٢.

ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته، ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يعلم السر وأخفى ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينـزلُ من السماء وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو سبحانه القريب في علوِّه، العلي في دنوه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن)[1].

(وقد وصف سبحانه نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2] وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3] ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[4] وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ﴾[5]. ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق فلله جل وعلا سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أنَّ للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه. وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة، كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق)[6].

وجاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: (وينتظم المنهج الحق في باب الأسماء والصفات في ثلاثة أصول، من حققها سلم من الانحراف في هذا الباب: وهي:

الأصل الأول: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين.

---

(١) العقيدة في الله ١٧١.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١.

(٣) سورة الشورى، آية: ١١.

(٤) سورة الإنسان، آية: ٢.

(٥) سورة مريم، آية: ٣٨.

(٦) العقيدة في الله ٢٠٣.

الأصل الثاني: الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته.

الأصل الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله تعالى، لأن إدراك المخلوق لذلك مستحيل.

فمن حقق هذه الأصول الثلاثة، فقد حقق الإيمان الواجب في باب الأسماء والصفات على ما قرره الأئمة المحققون في هذا الباب)[١].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النداء والأمر والتعليل:

أما النداء فقوله ﷺ: "يا أيها الناس" وقد جاء هذا النداء ليلفت انتباه المدعوين ويوضح لهم الحكم فيما فعلوا من رفع أصواتهم بالتكبير والتهليل. ولذا جاء الأمر بخفض أصواتهم فقال ﷺ: "اربعوا على أنفسكم" ثم أتبعه ﷺ بالتعليل "فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنه معكم إنه سميع قريب" ومن الملاحظ أن التعليل جاء مسبوقاً بـ"أن" المؤكدة، ليثبت الأمر ويرسخه في أذهان المدعوين ويزيده تقريراً على تقرير. وفي رواية عند البخاري "فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا تدعون سميعاً بصيراً قريباً" قال الطيبي: (فما فائدة الزيادة في قوله: "بصيرا"؟ قلت: السميع والبصير أشد إدراكاً وأكمل إحساساً من الضرير والأعمى)[٢].

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ٧٨.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/٧٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على ذكر الله تعالى:

لقد حرص الإسلام علي ربط قلوب أتباعه بالله عز وجل فشرع لهم العبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة، منها ما يتكرر في اليوم مراراً ومنها ما يتكرر كل عام ومنها ما تجزئ منه مرة في العمر.

ولكن الذكر لله يتصل في كل أحيان الإنسان وأحواله ويطيقه الكبير والصغير والصحيح والمريض، وهو يكفل دوام الصلة القلبية بالله عز وجل ويمنع قساوة القلب ويزيل ما يعتريه من الغفلة ويغسل عنه الران، ويملؤه بحب الله ورسوله وحب الإيمان، ويرغبه في التقرب إلى الله تعالى بشتى الطاعات.

لذا اهتمت التربية الإسلامية بحث المتربين على المداومة على ذكر الله تعالى في جمع الأوقات والأحايين، وعلى جميع الظروف والأحوال، خاصة وأن الذكر لا يكلف الإنسان جهداً ولا تعباً فيمكن للإنسان أن يأتي به حتى ولو كان متلبساً بعمل شاق كالسفر ونحوه، كما نرى ذلك في حث الرسول ﷺ وتعليمه الأمة أذكار السفر والحلّ والترحال ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا». وعنه أيضاً: قال: «وكَانَ النَّبيُّ ﷺ وَجُيُوشُهُ إذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا. وَإذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا».

ويبدو الأثر التربوي للأدعية والأذكار مع مراعاة الأدعية والأذكار حسب المناسبات والأحوال، في أنها تولد الترابط بين المؤمن وما حوله من أشياء وأحداث فتكون سبباً في تذكيره بعظمة الخالق وقدرته وحوله وقوته، وقد وصفت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها دوام ذكر رسول الله ﷺ لله تبارك وتعالى فقالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ الله عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»[1]، أي في حال قيامه ومشيه وقعوده واضطجاعه[2].

---

(١) أخرجه مسلم ٣٧٣.

(٢) انظر: التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري ص ٨٨، ٨٩.

لقد كان الرسول ﷺ يربي المؤمن على دوام اليقظة حتى لا يغفل عن نفسه ولا عن مقاومة هواه فيوصي بمداومة الوضوء وكثرة الذكر لله تبارك وتعالى، وليس المقصود بالتربية على الذكر مجرد ترديد ألفاظ دونما فهم أو إدراك، إنما الذكر هو يقظة النفس الدائمة وتطلعها المستمر إلى الله والتفكير في نعمه وآلائه والاستعانة به على كل أمر من أمور الدنيا والآخرة(١).

ثانياً- تربية المسلم على عقيدة التوحيد والإيمان بالله:

تنتظم عقيدة التوحيد حياة الإنسان في كافة مجالاتها حيث تعمل على استقامة تفكيره وأهدافه وتجعل كل عواطفه وسلوكه وعاداته قوى متضافرة متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده والشعور بألوهيته وحاكميته ورحمته وعلمه لما في النفوس وقدرته وسائر صفاته(٢).

لذا كان من الأهداف الأولى والرئيسة للتربية الإسلامية غرس الإيمان والاعتراف بوحدانية الله وقدرته في قلوب ونفوس الناشئة وتثبيت العقيدة وبيان التكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات ونحو ذلك(٣).

وقد جاءت أحاديث الباب حافلة بالأذكار والأدعية التي تُقَال في الأسفار وتعمل على ترسيخ توحيد الله في قلب المسلم واستسلامه لله تعالى وتفويض أمره لله تعالى.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما ورد في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قفل من الحج أو العمرة كلما أوفى على ثنية أو فدفد كبر ثلاثاً ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٤٦-٢٥٠.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٧٠.

(٣) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ١٨٦، ١٨٧.

لذا كان من المهم غرس عقيدة التوحيد والإيمان بالله تعالى في نفوس الناشئة وعدم إغفالها بأي حال من الأحوال، لما للتربية على عقيدة التوحيد والإيمان بالله من آثار تربوية لا تنكر منها:

أ- أن عقيدة التوحيد والإيمان بالله تربي عقل الإنسان على سعة النظر وحب الاطلاع على أسرار الكون والطموح إلى معرفة ما وراء الحس فكل ما في الكون مما نرى وما لا نرى من السماوات والكرسي والعرش والملائكة، كل ذلك من ملك الله تعالى، وكل كائن صغير أو كبير يسبح بحمد الله ويشهد بعظمته. وقد أمرنا القرآن أن نتأمل ذلك كله، نتأمل خلق السماوات والأرض، والبحار والأنهار، والإبل والدواب، والنحل، ويبين لنا أنه ما من شيء إلا يعلمه الله، من أصغر ذرة إلى أكبر جرم، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾(١).

ب- كما أن عقيدة التوحيد والإيمان بالله تربي عند الإنسان التواضع وعدم التطرف أو الغرور بأي صفة من صفاته الإنسانية، فإذا اغتر بقوته وأراد البطش أو الظلم ذكر قدرة الله عليه، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وإذا اغتر بماله وأسرف واستهتر وبطر وتكبر ذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال، فعاد إلى السخاء والبذل والتضحية والتودد إلى عباد الله.

وإذا اغتر بعلمه فظن أنه بلغ الكمال، نظر إلى الكون الكبير الذي هو جزء صغير من علم الله، فانقلب بصره خاسئاً وهو حسير، وعاد إلى نفسه صاغراً متواضعاً يطلب المزيد من المعرفة، بروية وصبر وأناة، وتدبّر وتفكّر ودأب واستمرار، وقس على هذا كل ما وهب اللهُ الإنسانَ من مواهب ونِعَم.

ج- كذلك فإن التربية على التوحيد والإيمان بالله تُبعد الإنسان عن التعلل بالآمال الكاذبة، فلا تنفع عند الله شفاعة الشافعين، إلا لمن يأذن الله ويرضى، وما من أحد يفيده قربه من الله، إلا عن طريق العمل الصالح، فليس لله قرابة رحم، ولا صلة أبوة،

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ولا صحبة سابقة لأحد من العالمين، الكل عباد الله، والكل محاسبون، مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

د- ويتسلح الإنسان، إذا آمن بالله حق الإيمان، بالطمأنينة، والرجاء مع السعي وعدم التواكل.

فهو مطمئن بعد أن عرف أن الله قريب، يجيب دعوة الداعين، ويتوب على التائبين، وينصف المظلومين، وقد وسعت رحمته كل شيء.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٢).

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٣).

وفي هذا توازن بين إبعاد الغرور عن النفس، والتسلح بالأمل والرجاء، فالمؤمن يخاف عذاب الله إن قصر ويرجو رحمته إن أخطأ.

وبهذا يصبح الإنسان أبعد ما يكون عن اليأس أو الانتحار، أو الهروب من الحياة، والانحراف بتعاطي المخدرات والمسكرات.

فقد صرح القرآن أن اليأس من صفات غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٤).

فإذا زلّ جدد عزمه بالتوبة والاستغفار واللجوء إلى رحمة الله تعالى، قال جل جلاله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٤) سورة يوسف، آية: ٨٧.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥٣.

هـ- كما أن التربية على توحيد الله والإيمان به توحيد المتربي والانتماء إلى الله والاعتزاز به، وموالاته والانضواء تحت لوائه، فالمؤمنون هم حزب الله وهو وليهم، والكافرون لا مولى لهم، وأي شيء أعظم من الانتماء والانتساب إلى خالق الكون ومذل الجبابرة، ومالك الموت والحياة، والبعث والنشور والجزاء. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[1].

وقال في وصف حزب الشيطان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[2].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3].

وهذا الولاء يربي النفس دائماً على أن تكون في حرب مع الشر والشيطان وأتباع الشيطان، أولئك الذين يزينون للناس معصية الله تعالى، ونسيانه واتباع الشهوات كما يربي الانتماء إلى الأمة الإسلامية والاعتزاز بها وتفقد شؤونها والتراحم والتعاون بين شعوبها، أي تربي وحدة كلمة الإنسانية على أساس الخير والإيمان، من غير تعصب عنصري، أو تحيّز مصلحي مادي استعماري، غايته استغلال الشعوب وامتصاص خيراتها[4].

ثالثاً- التربية بالوصية:

إن الوصية بالحق والتذكير به والإرشاد إليه من أهم الأساليب التربوية التي حث عليها القرآن الكريم، والتي يتحقق بها الهدف من التربية، لأنها تذكر وتحث المؤمن على تقوى الله تعالى وتجعله حريصاً على مرضاة الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رَجُلاً قالَ يا رسولَ الله إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فأَوْصِنِي، قَالَ عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله، ...».

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥٦.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٩.

(٣) سورة محمد، آية: ١١.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٧٢، ٧٣.

إن التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق من أهم ما يعني به القائمون على التوجيه والتربية لتنمية القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية في نفس المسلم[١]، ولأهمية الوصية بالحق والخير والتواصي بهما جعل الله تبارك وتعالى التواصي بالحق من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢].

إن الوصية من الأساليب التربوية التي لا غناء عنها في مجال التربية الإسلامية لما لها من وقع في النفس وتأثير في القلب، إذ أن الوصية أشبه ما تكون بالعهد الذي يؤخذ على الأفراد والجماعات وهي قليلة التكرار مما يجعلها بعيدة النسيان، لاسيما إذا صدرت من مُحِب له في القلب مكانة وفي النفس قبول، كما أنها كثير ما تقع بطلب المُوصِي وأنها ترتكز على أمور جوهرية لها علاقة بطبيعة المُوصِي ومحتملة الوقوع في المستقبل، كما أن الوصية تمتاز بكونها مختصرة ومتعددة الجوانب وتميل إلى الطابع الخاص أكثر من العام[٣].

رابعاً- الدعاء:

جاءت الإشارة إلى استخدام الدعاء كوسيلة تربوية تعليمية في أحاديث الباب خاصة ما جاء في دعاء رسول الله ﷺ لذلك الرجل الذي استوصاه قبل أن يسافر قائلاً: «اللهُمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وهوِّنْ عليه السفَر».

وفي ذلك إشارة إلى استخدام الآباء والمربين الدعاء لأولادهم وطلابهم كوسيلة من الوسائل التربوية، فالدعاء من الأركان الرئيسة التي يخاطب بها الوالدان والمربون للالتزام به، وتحين لحظات الإجابة التي بينها رسول الله ﷺ إذ أن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقوداً وتتمكن الرحمة والرأفة

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٤١/١.

(٢) سورة العصر، الآيات: ١-٣.

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٧٣-٢٧٧.

من قلبيْ الوالدين فيتضرعان إلى الله تعالى ويبتهلان إليه في إصلاح الطفل ومستقبله، وهذه سنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على الدعاء لمن تربوا على يده سواء أكانوا من أطفاله وأهل بيته أم كانوا من عامة المؤمنين وسواء الأمة، وفي ذلك عبرة وعظة لأهمية هذا الأسلوب النبوي الذي تفتقده الأساليب غير الإسلامية[1].

إن دعاء الوالد لولده والمربي لمربيه يشعر الولد والمتربي بمدى قوة العلاقة بينه وبين والده ومعلمه ويستشعر بما يكنه والده وأستاذه له من محبة وصدق في سَوْق النفع والصلاح إلى الولد وكذلك الطالب، كما أن في دعاء المربي والمعلم لتلميذه تربية عملية للمتعلم للدعاء وحمله على المداومة عليه وغرس روح الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه، وتكمن أهمية الدعاء في التربية في حياة المسلم بأنه ثمرة المعرفة والإيمان بالله وشعور المسلم العميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله تعالى، كما أن في الدعاء واللجوء إلى الله ضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء، ففي غفلة النفس عن حقيقة عبوديتها لله وحاجتها إليه سبيل طغيانها واعتدائها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2].

إن في الدعاء تذكيراً للنفس بحقيقة فقرها إلى الله وصلتها به، ومن ثَمَّ كانت حياة الرسول ﷺ دعاءً دائماً يدعو مع كل عمل وكل حركة بالليل أو النهار وله في ذلك دعوات مأثورة كان يدعو بها ويعلمها لأصحابه[3]، ومنها ما جاءت في أحاديث الباب في أذكار وأدعية السفر ومنها «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا . وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ...».

بل وكان يدعو بهذه الأدعية لغيره إذا أراد سفراً، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في دعائه ﷺ لذلك الرجل الذي استوصاه قبل سفره بقوله: «اللهُمَّ اطوِ لَه البُعْدَ، وهوِّنْ عليه السفَر».



(١) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥-٨٨.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢، ٢٢٣.

١٧٢- باب استحباب الدعاء في السفر

الحديث رقم (٩٨١)

٩٨١- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((ثلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَات لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن). وليس في رواية أَبي داود: ((عَلَى وَلَدِهِ)).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

في الحديث براعة استهلال نبعت من البداية بالعدد المفسر بما بعده، وهو ما يحقق التشويق؛ لأن فيه نوعا من الإبهام يتلوه توضيح، وقوله (ثلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَات) جملة تشويقية تحقق ترقب المخاطب، وانتباهه لما يسفر عنه العدد، وتجد ذلك في نفسك إذا سمعت هذه الجملة أسرك شوق لا ينفك حتى تعرف ما هي، وقول الرسول ﷺ (لا شك فيهن) يصعِّد هذا الشوق لشغف النفس بكل ما يحقق لها النفع، فإذا جاءت توضيحها كان لها في النفس فضل تمكن، وقوله (دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ) فيه إيجاز بالحذف، أي هي: دعوة كذا، وتكرار المسند (دعوة) يشير إلى استقلال كل، واحدة منهن بالحكم، وفيه عناية بها، واهتمام.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب للمسافر أن يدعو في سفره في كثير من الأوقات؛ لأن دعوته مجابة)[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥٣٦، والترمذي واللفظ له ١٩٠٥، وفي ٣٤٤٨ وقال: حديث حسنٌ. وصحّحه ابن حبان، الإحسان ٢٦٩٩. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤٦٢.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٩٥/٤، وانظر: الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٥٢.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: من الدعوات المستجابة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضح من الحديث: "ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".

وهذا الإخبار ينقل رسالة دعوية إلى المدعوين، فهو في الحقيقة إخبار بمعنى الترهيب والترغيب، الترهيب من الظلم، والترهيب من عقوق الوالدين، والترغيب في الدعاء في السفر، لأن المدعوين علموا أن هذه الدعوات مستجابة، ومن ثم يحصل عندهم الخوف من الظلم وعقوق الوالدين، كما تحصل لهم الرغبة في الدعاء في السفر.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من الدعوات المستجابة:

هذا واضح من الحديث: فقد أخبر النبي ﷺ أن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده مستجابة.

أما دعوة المظلوم، فقد قال النبي ﷺ: ((ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، ويَقُولُ الرَّبُّ وعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))(١).

قال الطيبي: (قوله: "ودعوة المظلوم" قطع هذا القسم عن أخويه لشدة الاعتناء بشأنه قال البيضاوي: استأنف بهذه الجملة الكلام لفخامة شأن دعاء المظلوم واختصاصه بمزيد قبول، ورفعها فوق الغمام، وفتح أبواب السماء لها، مجاز عن إثارة الآثار العلوية وجمع الأسباب السماوية على انتصاره، بالانتقام من الظالم وإنزال البأس عليه، قوله

---

(١) أخرجه أحمد ٣٠٥/٢ رقم ٨٠٤٣، وقال محققو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده ٤١٠/١٣.

"ولو بعد حين" يدل على أنه سبحانه وتعالى يمهل الظالم ولا يهمله، قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[(١)])[(٢)].

قال ابن الجوزي: (الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)[(٣)].

وأما دعوة المسافر فقال الطيبي: (قوله: "ثلاث دعوات مستجابات" وإنما قال في الحديث السابق "ثلاثة" وفي هذا "ثلاث دعوات" لأن الكلام على الأول في شأن الداعي وتحريه في طريق الاستجابة، وما هي منوط به من الصوم والعدل بخلاف الوالد والمسافر، إذ ليس عليهما الاجتهاد في العمل. وقال هناك: "لا ترد دعوتهم" وهنا "مستجابات" وقيدها بقوله: "لاشك فيهن" ليتفقا في التقرير، لأن "لا ترد" كناية عن الاستجابة، وقدتقرر عند علماء البيان، أن الكناية أبلغ من التصريح، فجبر التصريح بقوله "لاشك فيهن")[(٤)].

ولعل سبب استجابة دعوة المسافر، هو حالة الانشغال والاضطرار التي هو عليها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[(٥)].

قال أبو حامد الغزالي عن حال المسافر: (إن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٥٨.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ٣١٥/٤.

(٣) نقلاً عن فتح الباري، ابن حجر ١٠٠/٥.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣١٦/٤.

(٥) سورة النمل، آية: ٦٢.

فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته، وإن لم يكن معه مال يخاف عليه، فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع، ثم الشغل بالحط، والترحال، مشوس لجميع الأحوال)[١].

وقد بوب ابن حبان في صحيحه على حديث الباب: ذكر البيان بأن دعوة المسافر لا ترد مادام في سفره[٢].

وأما دعوة الوالد على ولده، فقال الطيبي: (قوله "دعوة الوالد" مطلق يحتمل للولد وعليه، ليسعى في مراضيه حتى يدعو له، ويجتنب عما يسخطه لئلا يدعو عليه، وإنما لم يذكر الوالدة، على أن حقوقها أكثر، فيكون دعاؤها أقرب إلى الإجابة، لما علم ذلك بطريق الأولوية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[٣]، حيث أوقع "حملته أمه" إلى قوله "في عامين"، اعتراضاً بين المُفَسَّر أعني "أن اشكر لي" والمُفَسِّر أي "وصينا"، وفائدة الاعتراض التوكيد في التوصية في حقهما، خصوصاً في حق الوالدة، لما تكابد من مشاق الحمل والرضاع)[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التفصيل بعد الإجمال:

هذا واضح من قوله ﷺ "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن"، فهذا إجمال فَصَّله بقوله ﷺ: "دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".

ولا شك أن استخدام الإجمال أولاً يجعل المدعوين متشوقين إلى تفصيل هذا الإجمال ومن ثم يقع منهم الانتباه واليقظة إلى ما يقوله الداعية.

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٠٩٤/٢.

(٢) صحيح ابن حبان، الحديث ٢٦٩٩، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٢٢٧/٢-١٢٢٨.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٣١٦/٤.

ومن أمثلة التفصيل بعد الإجمال قوله ﷺ: ((كَلِمَتَانِ حَبِيْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمن خَفِيْفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيْلَتَانِ فِي المِيْزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ))[1].

(١) أخرجه البخاري ٧٥٦٣، ومسلم ٢٦٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الحرص على الدعاء:

إن الدعاء من أهم الأسس التربوية التي ينبغي أن تبني عليها شخصية المتربي بل والمجتمع بصفة عامة، وذلك لما في الدعاء من تربية المسلم على الارتباط بالخالق سبحانه وتعالى، ودوام الرجوع والالتجاء إليه، كما أن "الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب شريطة أن يكون الدعاء في إطار القالب الشرعي الذي حدده لنا الله تعالى، كأن يكون دعاء مباحاً لا اعتداء فيه، قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]، بأن يبتعد عن موانع إجابة الدعاء كأكل الحرام والظلم والغفلة والسهو واللهو وغير ذلك"[2].

قال ﷺ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَ فِيهِنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ».

إن للدعاء آثاره التربوية التي لا تُنْكر:

- فهو من أبرز الطرق التي تزكي النفوس وتهذب السلوك، فالدعاء كجهاز الشحن الذي يشحن القلب دائماً بالقوة والرقة، وهو جزء من الذكر الذي يذكر الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى، واللجوء إليه وبضعفه البشري وبأعدائه الذين بين جوانحه ومن بينهم هذه النفس الأمارة بالسوء[3].

- كذلك فإن الدعاء هو ثمرة المعرفة والإيمان بمنهج القرآن وفكرته عن الكون وشعور عميق بالعبودية والفقر والحاجة إلى الله وضمان للنفس من الغفلة والطغيان والاعتداء.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٥.

(٢) انظر: التوبة، ابن القيم، تحقيق صابر البطاوي، ط/١، مكتبة السنة، القاهرة: ١٤١٠هـ ص ٢٢.

(٣) انظر: منهج التابعين في تربية النفوس، عبدالحميد البلالي ص ٨١.

- الدعاء هو سبيل القوة الحقة، فإن في إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته وأنه يستمع إليه إذا شكا ويجيبه إذا دعا ويأخذ بيده إذا كبا ويمده إذا ضعف ويعينه إذا احتاج إحساس يملأ النفس سكينة وراحة ويخلق فيها القوة الحقة والعزم والثقة والرضا[1].

ثانياً- التحذير:

إن التحذير من أساليب التربية الإسلامية الرئيسة، وقد ورد أسلوب التحذير في القرآن الكريم كأسلوب تربوي في آيات كثيرة، ومنها قوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾[2]. وقوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

- كذلك ورد التحذير على لسان الرسول ﷺ كأسلوب تربوي وتوجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع[4] والأفراد على حد سواء.

ويستنبط التحذير من حديث الباب حيث أكد النبي ﷺ استجابة دعوات ثلاث، فقال ﷺ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَ فِيهنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ، ودَعْوَةُ المُسافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ على وَلَدِهِ».

ففي هذا تحذير من الوقوع في الظلم أو الجَوْر على أحد، وفي الحديث تحذير من عقوق الوالدين، ومن دعوة الوالد على ولده إذا فرط في حقه أو أساء إليه، إنها دعوات مستجابة.

لذا ينبغي على الأولاد أن يحذروا عقوق الآباء والأمهات، كما أن على الآباء الحذر

---

(١) انظر: منهج القرآن في التربية، محمد شديد ص ٢٢٢-٢٢٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٧١.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٤٩-٢٥٠.

من الدعوة على أولادهم، فإن دعوة الوالدين على أولادهم من الخطورة بمكان، فهذا عمل خطير جداً يُشْقى الإنسان في الدنيا والآخرة.

- وقد نهى رسول الله ﷺ الآباء والأمهات عن الدعاء على أولادهم لأن هذا منافٍ للخلق الإسلامي ويخالف التربية النبوية ويبتعد عن منهج النبوة.

لهذا نجد النهي النبوي للآباء في الدعاء على الأبناء، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يسأل عطاء فيتسجيب لكم»[(١)].

فبدلاً من أن يكون الوالد سبباً في هلاك أولاده وفشلهم بصفة عامة بالدعاء عليهم، فليكن سبباً في صلاحهم واستقامة أمورهم بالدعاء لهم، كما فعل رسول الله ﷺ فدعا للأطفال فبارك الله في مستقبلهم بالعمل والمال والولد، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضَمني رسول الله ﷺ إلى صدرهِ وقال: اللّهمَّ علِّمْهُ الحكمةَ». وفي رواية: «علِّمه الكتاب» وفي رواية: «اللَّهمَّ فَقهْهُ في الدِّينِ»(٢)، وبفضل دعوة رسول الله ﷺ أصبح ابن عباس في كبره حَبْر الأمة وترجمان القرآن[(٣)].

ثالثاً- التربية على اغتنام الأوقات والأحوال الفاضلة:

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن خصص بعض الأوقات والأماكن والأحوال فضاعف فيها الأجر والثواب على الأعمال، ومن ذلك ما جاء في الحديث من بيان استجابة الله تعالى المؤكدة إذا دعا المسلم ربه وهو على حال سفر مباح، فإن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده يجبر ضعفهم ويستر عجزهم ويستجيب دعاءهم، فجاء في حديث الباب «ثلاث دعوات لاشك فيهن ... ودعوة المسافر»، فليغتنم المسافر هذا الحظ[(٤)] وليكثر من الدعاء وهو موقن باستجابة دعوته إن كانت دعوة صالحة لا

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٩، ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٧٥٦.

(٣) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ٨٥-٨٨.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٣٣.

اعتداء فيها ولا تجاوز.

ومن ثمَّ فإن على المربين توجيه أنظار المتربين ولفت انتباههم إلى اغتنام الأوقات الفاضلة المباركة وعدم إهدارها وعدم تضييع فضل الله تعالى، وما ينعم به على عباده في أوقات معلومة وأحوال مخصوصة يستجاب فيها الدعاء ويضاعف فيها الأجر والثواب "كتفضيل صوم رمضان على صوم سائر الشهور، وكذلك يوم عاشوراء وعشر ذي الحجة ويومي الاثنين والخميس، وبعض الأوقات كالثلث الأخير من الليل، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي فيه من إجابة الدعوات والمغفرة وإعطاء السائل مالا يعطيه في الثلثين الأولين من الليل"[1]، ومن الأحوال الفاضلة إذا تلبس المسلم بسفر مباح فدعوته مستجابة لاشك فيها كما نلحظ ذلك صريحاً جلياً في حديث الباب.



---

(١) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد ٣٦/١، ٣٧.

١٧٣- باب مَا يدعو بِهِ إِذَا خاف ناساً أَوْ غيرهم

الحديث رقم (٩٨٢)

٩٨٢- عن أَبي موسى الأشعريِّ ﵁: أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْماً، قَالَ: ((اللَّهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)) رواه أَبُو داود والنسائيُّ[1] بإسنادٍ صحيحٍ.

ترجمة الراوي:

ابو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

نحورهم: النحر: أعلى الصدر. ويقال: جعلت فلاناً في نحر العدو أي قبالته وحذاءه ليقاتل عنك، ويحول بينك وبينه. والمعنى: نسألك أن تصد صدورهم وتدفع شرورهم[2].

الشرح الأدبي

الخوف شعور بشري يعتري الإنسان عندما يتوقع أذى لا يستطيع دفعه، والرسول ﷺ يعلمنا كيف نعالج في أنفسنا هذا الشعور حتى لا يصدنا عما يجب علينا، وقول الرسول ﷺ (اللهم) صيغة نداء تحقق الطمأنينة، وتجعل العبد في حوار مع الرب يشعر بنوع من الأمان في مثل هذه المواقف، وقوله (إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ) في العبارة سجع يجذب السمع، وييسر الحفظ ويقرر المعنى، وخص النحر بالذكر؛ لأن العدو يستقبل بنحره عند القتال، وللتفاؤل بنحرهم إلى قتلهم، و (ونعوذ بك من شرورهم)، والمعنى نسألك أن تصدر صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفي

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥٣٧، والنسائي في الكبرى ٨٥٧٧، و١٠٣٦٢. وصححه ابن حبان، الإحسان ٤٧٦٥، وقال الحاكم ١٤٢/٢: هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين، وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه. وسيكرره المؤلف برقم ١٣٢٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ح ر).

أمورهم، وتحول بيننا وبينهم وقيل المعنى نسألك أن تتولاني في الجهة التي يريدون أن يأتوا منها؛ فإنه لا حول، ولا قوة لنا وحاصله نستعين بك في دفعهم.

فقه الحديث

قال النووي: (إذا خاف ناسًا أو غيرهم فالسنة أن يقول ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم" ويسنّ أيضًا أن يدعو بدعاء الكرب وهو ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: ((لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم))[1] عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا كربه أمر قال: ((يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث))[2])[3].

وقال النووي في كتاب الأذكار تحت باب، ما يقول إذا رأى هزيمة في المسلمين والعياذ بالله الكريم، قال: (يستحبّ إذا رأى ذلك أن يفزع إلى ذكر الله تعالى واستغفاره ودعائه، واستنجاز ما وعد المؤمنين من نصرهم وإظهار دينه، وأن يدعو بدعاء الكرب، ويستحب أن يدعو بغيره من الدعوات المتقدمة، والتي ستأتي في مواطن الخوف والهلكة...)[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به والاستنصار به.

ثالثاً: من آداب الداعية والمدعو: ذكر الله عند الخوف والكرب.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٤٥، ومسلم ٢٧٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٦).

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٤ .

(٤) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٤٣ .

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من الحديث، فقد أخبر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم)، وهذا الإخبار رسالة للمدعوين أن يفعلوا مثل فعله صلى الله عليه وسلم في هذه الحالة، ويقتدوا بهديه، فهو صلى الله عليه وسلم قدوتهم وأسوتهم، ولقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١). فإذا خافوا من أحد أو من قوم، لجأوا إلى الله كما لجأ، وتضرعوا إليه كما تضرع، وابتهلوا إليه بهذا الدعاء كما ابتهل، حتى يبدل الله أمنهم خوفاً، وفزعهم ثباتاً، واضطرابهم سكينة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به والاستنصار به:

هذا واضحٌ من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم)، قال العظيم آبادي: "يقال جعلت فلاناً في نحر العدو، أي قبالته وحذاءه ليقاتل ويحول بينك وبينه، وخصّ النحر بالذكر، لأن العدو به يستقبل عند المناهضة للقتال. والمعنى: نسألك أن تصدّ صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفينا أمورهم، وتحول بيننا وبينهم"(٢).

ولقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر ما يستعين المرء به ربه جلّ وعلا على قتال أعداء الله الكفرة عند التقاء الصفين(٣).

ثم ساق حديثاً تحت باب: ذكر ما يستحب للإمام أن يستنصر بالله عز وجل عند قتال أعداء الله وإن كان في المسلمين قلة(٤).

والحديث هو: عن عِياضٍ الأَشْعريِّ قَالَ: ((شَهِدْتُ اليرموكَ وعليها خمسةُ أمراءَ: أبو

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ٦٩٢.

(٣) صحيح ابن حبان ٨٢/١١، رقم ٤٧٦٥.

(٤) المرجع السابق ٨٣/١١، رقم ٤٧٦٦.

عُبَيدةَ بنُ الجرَّاح، ويزيدُ بنُ أبي سفيان، وشُرَحْبيلُ بن حَسَنَةَ، وخالدُ بنُ الوَليدِ، وعِياضٌ ـ وليسَ عِياضٌ صاحبَ الحَديثِ الَّذي يُحَدِّثُ سِماكٌ عنهُ ـ قالَ عمرُ: إذا كانَ قِتالٌ، فَعَلَيْكُمْ أبو عبيدةَ، قالَ: فكتبنا إليه أنْ قد جَاشَ[1] إلينا المَوْتُ واستمددناهُ[2]، فكتبَ إلينا أنهُ قَدْ جاءَني كتابُكُمْ تستمدُّوني، وإني أَدُلُّكُمْ على ما هُوَ أعزُّ نَصْراً وأَحْصَنُ جُنْداً، اللَّهُ، فاستنصِرُوهُ، فإنَّ محمداً قد نُصِرَ بأقلَّ من عددِكُمْ، فإذا أتاكُمْ كتابي، فقاتلوهم، ولا تُراجعوني، قالَ: فقاتلناهم فهَزَمْنَاهُمْ، وقتلناهُمْ أربعَ فَراسِخَ، وأَصَبْنَا أموالا))[3].

وفي لجوء العبد إلى الله عند الخوف من قوم، إظهار لافتقاره إليه، وبيان لإقراره بأنه القاهر فوق عباده، وأنه القادر على كل شيء، وأنه المعين وأنه الناصر وأنه كافي عبده ومدافع عنه، كما أن بيده كل شيء، كما أن فيه طلباً ورجاءً إلى الله من العبد أن يكفيه شر هؤلاء، حتى يتفرغ لعبادته سبحانه ولا يُشغل بشيء آخر.

ثالثاً- من آداب الداعية والمدعو: ذكر الله عند الخوف والكرب:

هذا واضحٌ من قول النبي ﷺ: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شررهم)، قال ابن تيمية: "إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه. فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب كما قال النبي ﷺ: ((أفضل الدعاء الحمد لله))[4]، فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع

---

(١) أي: تدفق وفاض وامتد، كما في تحقيق صحيح ابن حبان ٨٤/١١.

(٢) أي: طلبنا من عمر أن يمدنا بمدد من الجنود.

(٣) أخرجه أحمد ٤٨/١ رقم ٣٤٤، وابن أبي شيبة ٣٤/١٢ - ٣٥، وابن حبان ٤٧٦٦، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤٢٢/١.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني. (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٥).

الطلب الذي هو دونه، والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾[(١)])[(٢)].

وقال النووي في المجموع: (إذا خاف ناساً أو غيرهم فالسنة أن يقول ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم، ويسن أيضاً أن يدعو بدعاء الكرب، وهو ما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: ((لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ. لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ))[(٣)]، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا كربه أمر قال: ((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))[(٤)]"[(٥)].

وقال ابن القيم: "إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا"[(٦)].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٤/٨ ١٩/١٥ ط/ ابن قاسم.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٤٥، ومسلم ٢٧٣٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٥٢٤، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ٢٧٩٦).

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٥/٤.

(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب ٢٤٩/٢ - ٢٥٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على الالتجاء إلى الله تعالى:

إن من المهام التربوية الملقاة على عاتق الآباء والمربين تربية الأولاد والبنات على مراقبة الله تبارك وتعالى والالتجاء إليه والاستعاذة والاستجارة به من شرور النفس والغير، فيجدر بالمربي الحاذق أن يحرص على ترسيخ قيمة المراقبة والمحاسبة في النفوس، وكذلك الالتجاء إلى خالق الأرض والسماوات ومناجاته[1] في جميع الأحايين وعلى جميع الأوضاع، ومن الشواهد على ذلك ما جاء في حديث الباب من التجاء العبد لربه إذا خاف شيئاً أو ألمَّ به مكروه، كما رأينا ذلك سلوكاً عملياً من رسول الله ﷺ في حديث الباب، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ».

وهكذا ينبغي أن يكون المربي والمعلم بلسان حاله ومقاله موصلاً للقلوب بالله ومرغباً لهم في رحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين فهو الخالق المعبود بحقٍ المتصفُ بصفات الكمال المنزه عن كل نقص، بيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله فهو رب العالمين القائم على شؤون خلقه المتكفل بما يصلحهم، وهو كاشف الضر عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[2]. وهو مجيب المضطر وكاشف السوء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[3].

إن غرس العقيدة في قلوب الناشئة وطبعهم على الالتجاء إلى الله تعالى والركون إليه تربي منهم رجالاً أقوياء في عقيدتهم أسوياء في سلوكياتهم مع أنفسهم ومع الآخرين وفي مواجهة الشدائد والمحن والعقبات في هذه الحياة، وتزرع في نفوسهم الإقدام وعدم الخوف إلا من الله تعالى.

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/ ١٦٠.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٧.

(٣) سورة النمل، آية: ٦٢.

ثانياً- التربية بالمواقف والأحداث:

إن التربية بالمواقف والأحداث تؤثر تأثيراً مباشراً وسريعاً وقوياً في النفوس، لأنه توجد شرائح اجتماعية غير قليلة تتأثر تأثراً بطيئاً بل وأحياناً يضعف التأثر من خلال الأقوال، إلا أن المواقف تهزها هزاً قوياً وعنيفاً من الداخل، خاصة إذا كان هناك تقصير لدى الإنسان، وكم من أناس تابوا وأنابوا إلى الله تعالى بسبب بعض المواقف أو موقف معين دون أي تعليق أو توجيه، فما بالنا إذا تم استثمار المواقف والأحداث في التربية، إنها ستكون عظيمة الأثر بعيدة المدى.

وقد ورد استخدام هذا الأسلوب في حديث الباب حيث بين النبي ﷺ ماذا ينبغي على الإنسان إذا خاف شيئاً أو فزعه أمر؟ لاشيء إلا اللجوء إلى الله تعالى والدعاء والابتهال إليه - مع مراعاة التماس الأسباب ورعاية السنن، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ».

إن التربية الإسلامية لا تقتصر على مجرد التلقين ونقل الثقافة والخبرات فحسب وإنما هي مع ذلك تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء، أو إلى خلق فاضل، أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام[(١)].

لقد كان ﷺ يغتنم فرصة التصرفات العملية التي تقتضي توجيهاً تربوياً أو عملياً ليأخذ منه المسلمون درساً إيجابياً فكان يدعو إلى قيمة أو يصحح سلوكاً أو ينفي هذا السلوك الخاطئ وهي طريقة فعالة لأنها ترتبط بالوقائع المشاهدة، وتتصل بما يعيشه الناس، ولذا ترسخ في الذهن وتثبت في القلوب، وبهذا ترتبط القيم بواقع الحياة، وهذا يعني أن غرس القيم لا يقتصر على مجرد التعلم والحفظ والتسميع وإنما يعتمد على واقع الحياة والخبرة المعيشية، وبالتالي يكون تأثيرها قوياً[(٢)].



(١) فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، د. عبدالجواد سيد بكر ص ٣٨٠.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١/١٥١.

١٧٤- باب مَا يقول إِذَا نزل منْزلاً

الحديث رقم (٩٨٣)

٩٨٣- عن خولة بنتِ حَكِيمٍ رضي الله عنها ، قالت: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

خولة بنت حكيم: وهي خولة بنت حكيم بن أمية ، تكنى أمّ شريك.

وكانت امرأة عثمان بن مظعون ، فمات عنها ، وكانت من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فأرجأها فيمن أرجأ من نسائه ، وكانت امرأة صالحة فاضلة ، روى عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في التعوذ بكلمات الله عند النزول في السفر[٢].

وهي التي قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إن فتح الله عليك الطائف فأعطني حُليَّ بادية ابنة غَيْلان بن سلمة أو حُليَّ الفارعة ابنة عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف فقال لها رسول الله ﷺ : ((وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خولة؟ فذكرت ذلك لعمر ، فأقبل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أما أُذن لك في ثقيف؟ قال لا))[٣].

وهي التي سألت رسول الله ﷺ ، عن المرأة ترى في المنام ما يرى الرجل: فقال لها رسول الله ﷺ ((ليس عليها غسلٌ حتى ينزل الماء ، كما أن الرجل ليس عليه غسلٌ حتى ينزل))[٤].

وقد دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ وكانت عند عثمان بن مظعون -فرأى

---

(١) برقم ٢٧٠٨/٥٤. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٨.

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة بغير إسناد.

(٤) أخرجه أحمد ٤٠٩/٦ رقم ٢٧٣١٢ ، وقال محققو المسند: حديث حسن ٢٩١/٤٥.

رسول الله ﷺ بذاذة هيئتها، فقال ما أبذُّ هيئة خويلة؟ فقالت: يا رسول الله امرأةُ لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل فهي كمن لا زوج لها فتركت نفسها وأضاعتها، فبعث النبي ﷺ إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال رسول الله ﷺ ((يا عثمان، أرغبة عن سنتي؟)) فقال لا والله، ولكن سنتك أطلب، فقال رسول الله ((إني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقاً))[1][2].

غريب الألفاظ:

التامات: معناه: الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب، وقيل: النافعة الشافية، وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن[3].

الشرح الأدبي

قوله (نزل منزلا) فيه جناس يؤكد المعنى، ويحقق الفعل، ومن اسم موصول متضمن معنى الشرط، وهو يعرض الجزاء مرتبطاً بالفعل، ويترك المؤمن ليختار مصيره، وداعي الله في قلبه يدعوه إليه، فيكون حرٌّ الاختيار بعد ظهور العاقبة، وقوله (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) خبر أريد به الدعاء أي: أعذني، وجمع الكلمات للتوكيد المفضي إلى ترسيخ الشعور بتحقق العوذ، ووصفها بالتامات إشارة إلى صلاحها لتحقيق العوذ مع كمالها بعكس ما كانوا يستعيذون به في الجاهلية من

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٨/٦ رقم ٢٦٣٠٨، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٣٥/٤٣.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١٥٨/٨، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٣، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. طه محمد الزيتي ١٦٧٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٩٤/٧، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٥٣٠/٨، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٧١/٤-٦٧٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١٦٤٠/٢، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٧٢١/١-٧٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٩٥.

الجن، والشياطين، وقوله (لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) جواب الشرط يقرر تحقق الأمن من الشرور، وتنكير (شيء) يفيد العموم فيشمل القليل، والكثير ويبين مدى الحفظ الذي تشمله هذه الاستعاذة، وقوله: (حتى يرتحل) بيان للغاية التي تستوعبها الاستعاذة من الزمان، وبذلك تتحقق له هذه الاستعاذة الأمان في المكان الذي ينزل فيه مهما كان فيه من الأخطار، وفي الزمان حتى يرتحل - طال إقامته أم قصرت -.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول إذا نزل منزلاً ما روته خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نزل منزلاً قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسلم إذا نزل منزلاً.

ثانياً: من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى فعل ما ينفعه.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسلم إذا نزل منزلاً:

هذا واضحٌ من الحديث، قال النووي: "قوله ﷺ: (أعوذ بكلمات الله التامات)، قيل: معناه الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب. وقيل: النافعة الشافية. وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن"[2].

وقال ابن تيمية: "وأما لفظ الكلمات، فقال في الكلمات الكونية، ﴿وَصَدَّقَتْ

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤ .

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣٣/١٧/٩، ، وهو موجود بنصه في إكمال المعلم، للقاضي عياض ٢٠٦/٨.

بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾[١]، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ نَزَلَ منزِلاً فقال: أعوذُ بكلِماتِ اللّهِ التَّامَّاتِ منْ شرِّ ما خلَقَ، لمْ يضرَّه شيءٌ حتى يرتحلَ منْ منزلِه ذلكَ))[٢]، وكان ﷺ يقول: ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ مِنْ شَرِ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِ كُلِ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمنُ))[٣].

و(كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)، هي التي كوّن بها الكائنات، فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته، وأما كلماته الدينية فكتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار، وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية، وإذنه الديني وإرادته الدينية. وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده، وجميع الكفار وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب. وأولياء الله المتقون، هم الذين فعلوا المأمور، وتركوا المحظور، وصبروا على المقدور فأحبهم وأحبوه، ورضي عنهم ورضوا عنه. وأعداؤه أولياء الشياطين وإن كانوا تحت قدرته، فهو يبغضهم، ويغضب عليهم، ويلعنهم ويعاديهم"[٤].

وقال ابن عثيمين: "قوله (نزل منزلاً)، يشمل من نزل منزلاً في السفر إذا كان مسافراً ثم نزل ليستريح لغداء أو عشاء أو نوم أو غير ذلك. فإنه إذا نزل يقول: (أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق)، وأعوذ، أي: أعتصم بكلمات الله التامات. وكلمات الله التامات تشمل كلماته الكونية والشرعية، فأما الكونية فهي التي

(١) سورة التحريم، آية: ١٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤١٩/٣ رقم ١٥٤٦٠، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ٢٠٠/٢٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥٠/٦، ٢٧٠/١١ - ٢٧١.

ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١)، فيحميك الله تعالى بكلماته الكونية، يدفع عنك ما يضرك إذا قلت هذا الكلام. كذلك الكلمات الشرعية وهي الوحي، فيها وقاية من كل سوء وشر. وقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله"(٢).

ثانياً- من مهام الداعية: إرشاد المدعو إلى فعل ما ينفعه من أساليب الدعوة:

هذا واضحٌ من الحديث، فقد أرشد ﷺ المدعوين إلى ما يقولونه إذا نزلوا منزلاً حتى لا يلحق بهم سوء أو أذى، ولا شك أن احتمال وقوع الأذى في السفر أكثر منه في الحضر.

قال ابن العربي: "وعلّم أيضاً ما يقوله إذا نزل: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، وضمن عدم الضرر بها، فوالله لقد جربتها أحد عشر عاماً فوجدتها"(٣).

وقال أبو العباس القرطبي: "قوله: (إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، قيل معناه: الكاملات اللاتي لا يلحقها نقص، ولا عيب، كما يلحقُ كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات - هنا - هي: القرآن؛ فإن الله تعالى قد أخبر عنه بأنه هُدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يُدفع به الأذى، ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغّب فيه. وعلى هذا فحقُّ المتعوِّذ بالله تعالى، وبأسمائه وصفاته أن يَصْدُقَ الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

وقوله: (فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه)، هذا خبرٌ صحيح، وقولٌ صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ

---

(١) سورة يس، آية: ٨٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٢٢٩/٢.

(٣) القبس شرح الموطأ ٢٨٣/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

بتلك الكلمات، فقلت لنفسي - ذاماً وموبخاً - ما قال ﷺ للرجل الملدوغ: ((أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ))[١][٢].

وإرشاد المدعو إلى ما ينفعه هو شأن الأنبياء جميعاً عليهم السلام، وهم قدوة الدعاة، فقد كانوا يرشدون المدعوين إلى ما فيه نفعهم، فضلاً عن تحذيرهم مما يضرهم، مصداق ذلك قول النبي ﷺ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ))[٣].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من قال لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شَريك له، لهُ الملك، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قَدير في يومٍ مائةَ مرَّة كانت له عَدْلَ عَشرِ رِقاب، وكُتبَت له مائةُ حسَنة، ومُحِيَت عنه مائة سيِّئة، وكانت له حِرزاً منَ الشيطان يومَهُ ذلك حتى يُمسيَ، ولم يَأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء، إلا رجلٌ عملَ أكثر منه))[٤].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

هذا واضحٌ من ذكر ما يلحق بمن يقول هذا القول عندما ينزل منزلاً، فإنه لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك، ولا شك أن هذا ترغيب يدفع المدعو أن يعمل بهذا الحديث حتى يتحصل على هذه الحماية وتلك الوقاية، وخاصة أن المسافر يكون في حالة أشد ما يكون إلى الإعانة والمساعدة وطلب العون، نظراً للانشغال الذي يحدث بسبب السفر وكثرة أعبائه.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٧٠٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٦/٧ - ٣٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٠٣، ومسلم ٢٦٩١.

الحديث رقم (٩٨٤)

٩٨٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إذَا سَافَرَ فَأقْبَلَ اللَّيْلُ، قَالَ: ((يَا أرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللهُ، أعُوذُ باللهِ مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ، وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ، أعُوذُ بالله مِنْ شَرِّ[1] أسَدٍ وَأسْوَدٍ، وَمِنَ الحَيَّةِ وَالعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ البَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)) رواه أَبُو داود[2].

"والأسْوَد": الشخص، قال الخطابي: "وسَاكن البلد": هم الجن الذين هم سكان الأرض. قال: والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان، وإن لم يكن في بناء ومنازل. قال: ويحتمل أن المراد "بالولد": إبليس "وما ولد": الشياطين.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

يدب عليك: يمشي ويتحرك من الحيوانات والحشرات مما فيه ضرر[3].

الأَسْوَد: الحيَّة[4]، وقال النووي: الشخص[5].

ساكن البلد: قال الخطابي: هم الجن الذين هم سكان الأرض. والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل[6].

والد وما ولد: قال الخطابي: ويحتمل أن المراد بالوالد: إبليس. وما ولد: الشياطين[7].

---

(١) (شر) لا توجد عند أبي داود.

(٢) برقم ٢٦٠٣، وصحَّحه ابن خزيمة ٢٥٧٢، وقال الحاكم ١/١٠٠: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١١٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س و د).

(٥) رياض الصالحين ٩٨٣.

(٦) رياض الصالحين ٩٨٣.

(٧) رياض الصالحين ٩٨٣.

الشرح الأدبي

يقول الراوي: (كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا سَافَرَ فَأَقْبَلَ اللَّيْلُ) دلالة إلى أنها إحدى عادات الرسول ﷺ في سفره، وإذا كانت كذلك فقد صارت سنة لأمته من بعده، وقول الرسول ﷺ (يَا أَرْضُ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللَّهُ) نداء الكائنات أمر يتكرر في القرآن، والسنة فقد نادي الله تعالى الأرض، والسماء أو الجبال، وهو نداء على حقيقته لطلاقة قدرة الله، أما نداء الرسول ﷺ فهو نوع من التجاوب مع الكون المسبح الذي يتجاوب معه بحول الله، وقدرته فتسمع، وتجيب حتى في أرق المشاعر الإنسانية، حيث أخبر عن جبل أحد (أحد جبل يحبنا ونحبه)[1]، وقوله (ربي، وربك الله) تفويض للأمر لصاحبه المصرف أمره بحوله، وقوته، وتكرار كلمة الشر ست مرات؛ لأنها أصل المعنى الذي يدور عليه الحديث، وهو مدار خشية النازل ليلا، وهي كلمة جامعة لكل مخاوف الإنسان، فتكرارها يستوعب كل أنواع الشرور، وكل مصادرها، وقد تدرج في الاستعاذة من العام إلى الخاص فالأخص، فذكر الاستعاذة من الشر عامة (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكِ) ثم خصص ما تشتمل عليه في داخلها (وَشَرِّ مَا فِيكِ) ثم خصص مما فيها المخلوق (وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ) وخص من المخلوق فيها ما تحرك على ظهرها؛ لأنه أقرب لبلوغه مما سكن (وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ) وخص مما يدب عليها ما ظهر خطره، وعرف أثره عندهم (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنَ الحَيَّةِ وَالعَقْرَبِ)، وبين أسد، وأسود جناس يؤكد الاختلاف بين النوعين المؤذيين، وبين هذه الأربعة المذكورة تناسب في المعاني، والألفاظ، ومراعاة نظير، وهي الجمع بين الشيء، وما يناسبه، والمناسبة في الجمع بين هذه الأنواع أنها تعيش في مكان واحد، وتشترك في صفة الإيذاء، وقوله (وَمِنْ سَاكِنِ البَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) فيه سجع بديع في قمة الوفاء بالمعنى حيث استوعب كل ما يمكن أن يتولد منه شر من مما ظهر كالحيوان، والهوام، وغيرها، وما خفي كالجن، والشياطين.

---

(١) البخاري: (٤٤٢٢).

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول إذا جن عليه الليل ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله ... الحديث)[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسافر إذا أقبل الليل.

ثالثاً: من آداب الداعية والمدعو: الاستعاذة بالله عز وجل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من قول ابن عمر رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر أقبل الليل قال: يا أرض...)، وهذا إخبار عن فعل من أفعال النبي ﷺ وهو مُشْعرٌ بأنه ﷺ كان يفعله كثيراً، كما أنه لنقل هدي النبي ﷺ إلى المدعوين، ليقتدوا به ويتأسوا بعمله. قال الدكتور القرضاوي: "ومن حسن حظ المسلمين أن الله جعل لهم قدوة يقتدون بها تتجسد في مكارم الأخلاق التامة، التي أخذت من ميراث جميع الرسل وزادت عليه، وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3]"[4].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: ما يقوله المسافر إذا أقبل الليل:

هذا واضحٌ من قول النبي ﷺ. قال الطيبي: "قوله: (يا أرض)، قال القاضي البيضاوي: خاطب الأرض وناداها على الاتساع وإرادة الاختصاص، وشرّ الأرض الخسف والسقوط عن الطريق والتحير في المهامة والفيافي، وما فيها من أحناش الأرض

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤.

(٢) سورة القلم، آية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب آية: ٢١.

(٤) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ٢٥٧.

وحشراتها، وما يعيش في النقب وأجوافها. قوله: (من شرك)، أي: من شر حصل من ذاتك، (ومن شرّ ما فيك)، أي: ما استقرّ فيك من الأوصاف والأحوال الخاصة بطباعك، (وشر ما خلق فيك)، من الحيوانات وغيرها. (وشر ما يدب عليك)، من الحيوانات. وهذا الأسلوب من عطف الكلام بعضها على بعض إلى قوله: (من أسد وأسود)، من باب الترقي في البيان.

قوله: (من أسد وأسود)، قال التوربشتي: الأسود الحية العظيمة التي فيها سواد وهي أخبث الحيات. وذكر أن من شأنها أن يعارض الركب ويتبع الصوت. فلذا خصّها بالذكر، وجعلها جنساً آخر برأسها. ثم عطف عليها (الحية)... وفي الغريبين قال ابن الأعرابي في تفسيره: يعني جماعات وهي جمع سواد أي جماعة. قال القاضي البيضاوي: هم الإنس سمّاهم بذلك، لأنهم يسكنون البلاد غالباً، أو لأنهم بنوا البلدان واستوطنوها. وقيل: الجن، والمراد بـ (البلد) الأرض. يقال: هذه بلدتنا أي: أرضنا[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[2]، قوله: (ووالد وما ولد)، قال الخطابي[3]: (والد) إبليس (وما ولد): نسله وذريته[4].

قال النووي في المجموع: "السنة أن يقول إذا جن عليه الليل ما رواه ابن عمر....، فذكر الحديث"[5].

ثالثاً- من آداب الداعية والمدعو: الاستعاذة بالله عز وجل:

وهذا واضحٌ من الحديث، جاء في الموسوعة الفقهية: "الاستعاذة لغة: الالتجاء، وقد عاذ به يعوذ: لاذ به ولجأ إليه واعتصم به، وعُذت بفلان واستعذت به، أي: لجأت إليه.

(١) قال الخطابي: "قوله: (ساكن البلد) يريد به الجن الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض: ما كان مأوى للحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنازل. معالم السنن ٣/٤١٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٨.

(٣) عبارة الخطابي: ويحتمل أن يكون أراد بالوالد: إبليس. وما ولد: الشياطين. معالم اسنن ٣/٤١٠.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/١٧٤ - ١٧٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٧.

ولا يختلف معناها اصطلاحاً عن المعنى اللغوي. فقد عرفها البيجوري من الشافعية بأنها: الاستجارة إلى ذي منعة على جهة الاعتصام به من المكروه. وقول القائل: أعوذ بالله.. خبر لفظاً دعاء معنى.. والدعاء أعم من الاستعاذة فهو لجلب الخير أو دفع الشر، والاستعاذة دعاء لدفع الشر. وحكمة تشريعها: طلب الله سبحانه من عباده أن يستعيذوا به من كل ما فيه من شرّ. وشرعها سبحانه عند القيام ببعض الأعمال كقراءة القرآن في الصلاة وخارجها وغير ذلك.

واستعاذ الرسول ﷺ من الشرّ كله فقال: ((اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ))[1]، بل إنه استعاذ مما عوفي منه وعصم، إظهاراً للعبودية وتعليماً لأمته"[2].

والحديث عند ابن ماجه وابن حبان وغيرهما بلفظ: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ، قَضَيْتَهُ لِي، خَيْراً)).

قال عبدالله البسام عما يؤخذ من الحديث:

(١) النبي ﷺ علّم عائشة رضي الله عنها هذا الدعاء الجامع، فكان ينبغي للمسلم أن يعلمه أهله وأولاده وأهل بيته، ومن يتصل به، يعلمهم الخير بما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم.

(٢) ففي الحديث سؤال الله تعالى الخير الذي يشمل منافع الدنيا والآخرة، مما لا يعد ولا يحصى، العاجل منها والآجل، والمتأخر المعلوم منها للداعي المجهول له، مما لا يعلمه إلا الله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٨٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣١٠٢).

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٥/٤.

(٣) كما يستعيذه ويلتجئ من شرور الدنيا والآخرة العاجل الحاضر منها والآجل المتأخر، مما علم به الداعي وما جهل.

(٤) ثم عمم السؤال من نوع آخر، وهو أن الداعي يسأل الله تعالى من خير ما سأله رسول الله ﷺ.

ويستعيذ مما استعاذ منه رسول الله ﷺ الذي علم مما عند الله من الخير والشر أكثر مما نعلم، فسأل أفضل سؤال، واستعاذ بربه من أسوأ معاذ، فنحن به مقتدون في الرغبة بالخير والبعد من الشر.

(٥) ثم سأل العبد من ربه الجنة وهي غاية المطلوب، وسأل الوسيلة إليها من الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة.

(٦) ثم سأل الله تعالى العبد أن يجعل كل قضاء قضاه أن يكون خيراً ولو ظاهره ومظهره الشر، إلا أنه في حقيقة الأمر هو خير، فإن تدابير الله تعالى كلها وفق الحكمة والمصلحة، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

فهذه الأدعية الشريفة علمها النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها ليكون علمها لأمته التي نصحها وبرها وأحسن إليها، وهي من أنفع الأدعية وأجمعها لخيري الدنيا والآخرة)[2].

وقد بوّب ابن حبان على هذا الحديث: ذكر الأمر للمرء أن يسأل ربه جل وعلا جوامع الخير ويتعوذ به من جوامع الشر[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٢) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٤٥١/٦ - ٤٥٢.

(٣) صحيح ابن حبان ١٥٠/٣ رقم ٨٦٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية العقدية:

من أبرز الأهداف للتربية الإسلامية التربية العقدية، حيث إن المهمة الرئيسة والأولى للتربية الإسلامية وصل القلوب بالله وتعريف الناس على ربهم وإحياء خشيته في قلوبهم فهو الخالق المعبود بحقٍ المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص.

لهذا ينبغي على المعلم والمربي التركيز على إحياء العقيدة في النفوس ليسمو الإنسان روحًا وفكرًا وخطوًا ويكون أداة نافعة في محيطه وفي مجتمعه[1].

وإذا ما استقرأنا أحاديث النبي ﷺ نجد أنها لا تغفل مقامًا ولا حالاً إلا ودعت إلى تثبيت العقيدة وتجديدها والتركيز عليها ومن دلائل ذلك ما جاء في أحاديث الباب من تركيز على العقيدة من خلال الأدعية والاستعاذة التي وردت في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله..."

"إن الإيمان بربوبية الله وألوهيته ووحدانيته هو أساس كل ما عداه، إن عقيدة التوحيد والإيمان بالله لها عظيم الأثر التربوي في حياة المسلم وتتضح هذه الآثار فيما يلي:

- تحرير الإنسان من الذل والمهانة لمغريات الحياة فلا يستعبده جاه ولا مال ولا يذل للطواغيت.
- تحرير الإنسان من العبودية إلا لله فلا يخضع ولا يستسلم بالعبادة لأي من بني البشر أو كائن آخر أو جماد.
- تربية عقل الإنسان على سعة الأفق والتأمل والرغبة في الاطلاع على أسرار الكون وذلك للاستدلال على قدرة الله في خلقه.
- أنها تسلح الإنسان بالطمأنينة والرجاء بقرب الله التواب والمجيب، قال تعالى:

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله "الرسالة - الوسيلة - الهدف"، د. توفيق الواعي ص ١١٨ - ١٢٢.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

- توفير الاستقرار النفسي والراحة النفسية للإنسان المسلم فيما يتعلق بتساؤل الإنسان دائمًا عن القوة التي هي أكبر منه تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله فهو يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها.
- تربي الإنسان على التواضع وعدم التطرف أو الغرور، فلا يغتر بقوته ولا يظلم ولا يبطش لأنه يتذكر قدرة الله عليه وإذا اغتر بماله أو أسرف وتكبر تذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال.. فيعود إلى الاعتدال... إلخ.
- عقيدة التوحيد توحد بين أفكار الأفراد ومشاعرهم ومناهجهم وتضبط تصرفاتهم وأوضاعهم وسلوكهم فيصبح المجتمع صالحًا يتميز بالثبات والاستقرار.
- تربي عقيدة التوحيد المؤمن على النفس الموحدة لله، وقد شبه الله النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فكل تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده وبهذا تهدأ نفسه وتستقيم حياته وتكون تصرفاته بنسق واحد خاليًا من الصراعات والاعتراضات، أما العبد الذي يملكه أكثر من فرد فإن تصرفاته تكون حائرة بينهم بسبب اختلافاتهم وتناقضاتهم، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2][3].

ثانياً- التربية على الاستعاذة بالله واللجوء إليه:

إن من دعائم وأسس التربية الإسلامية للنشء تربيتهم على اللجوء إلى الله تعالى

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٢٩.

(٣) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد محمد عطية ص ٦٥ - ٦٧.

والاعتصام به والتضرع إليه وتفويض الأمور له سبحانه وطلب النصر والعون منه، لأنه القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة والنصرة والحماية وهو الذي أمد الإنسان بالطاقات وزوده بالاستعدادات وهو وحده يملك الموت والحياة[١].

"إن اللجوء إلى الله تعالى أسلوب من أساليب الأخذ بالأسباب التي اعتمدها رسول الله ﷺ في مسيرته الدعوية الطويلة لأن بالأخذ به استشعار بمعية الله تعالى، وهو الحصن الحصين الذي يعتصم به، والقوة القاهرة التي تقف وراء المسلم فتبث بداخله الطمأنينة والثقة بنصر الله وعونه وتمده بالشجاعة والإقدام وتظهر أمامه قوى الأعداء مهما بلغت هزيلة ضعيفة ذليلة متداعية" [٢].

ومن مظاهر اللجوء إلى الله تعالى الاستعاذة به من جميع الشرور ما ورد في حديث الباب من الإرشاد استعاذة المسلم بالله إذا نزل منزلاً كما جاء في قوله ﷺ: (من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)، وفي فعله وتطبيقه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك.

فما أحرى بالمعلمين والمربين تحصين المتربين لا سيما الناشئة منهم بالأذكار الشرعية وذلك بإلقائها إليهم إن كانوا صغارًا وتحفيظهم إياها إن كانوا مميزين وبيان فضلها وتعويدهم الاستمرار عليها.

فإذا تدرب الولد على اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به وغير ذلك من الآداب والأخلاق والأمور المتحسنة منذ الصغر ألفها وأصبحت سجية له، فما دام أنه في الصبا فإنه يقبل التعليم والتوجيه[٣].

---

(١) انظر: الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام ص ٢٢.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) انظر: وسائل التربية والأخلاق والسلوك، محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٣٦-١٣٧.

ثالثاً- من وسائل التربية الاستماع:

تنقسم الوسائل تبعًا للحاسة التي تعتمد عليها في الاستخدام إلى وسائل سمعية ووسائل بصرية ووسائل حاسية مختلفة.

وقد وردت الإشارة إلى استخدام وسيلة السمع في أحاديث الباب في قول خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول...

وإن كانت خولة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اعتمدت على حاسة السمع المجردة فإن المنهج الإسلامي يستوعب كل وسيلة كريمة من الوسائل المعينة على التعليم والتعلم قديمة أو حديثة طالما أنها تسهل عملية التعلم، وتساعد على تنفيذ المنهج، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1].

ومنها: الوسائل السمعية وهي تلك التي تعتمد على الاستماع من حاسة السمع أكثر من اعتمادها على الحواس الأخرى، وذلك مثل "الراديو" وبرامج الإذاعة المدرسية والتسجيلات الصوتية كالشرائط والاسطوانات ومختبرات اللغات... إلى آخره.

لكن ينبغي أن تراعى في العملية التعليمية والتربوية الوسيلة المناسبة، ومن خصائص الوسيلة المناسبة ما يلي:

(أ) الوسيلة المناسبة هي تلك التي ينظر إليها بوصفها أداة مساعدة لبلوغ الهدف وليست هدفًا في حد ذاته.

(ب) أن تكوّن جزءًا من المنهج المراد تدريسه وأن يتم اختيارها عند التخطيط له بحيث تساعد في تحقيق أهدافه.

(ج) أن تكون مرنة بحيث يمكن استخدامها في أكثر من صف دراسي وأكثر من مرحلة.

(د) أن تكون مناسبة للمادة اللغوية ومتكاملة معها ومع طريقة التدريس المتبعة.

(هـ) أن لا تكون بديلاً للمدرس، بل تكتسب وظيفتها العملية حين يستخدمها

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

المدرس من أجل تحقيق هدف ما.

(و) أن تكون الوسيلة اقتصادية بحيث تحقق أهدافًا وتبرر الجهد والوقت والمال الذي أنفق عليها.

(ز) أن تكون مناسبة للاستخدام في الزمان والمكان الذي يجب أن تستخدم فيهما.

(ح) أن تكون الوسيلة بسيطة وغير معقدة وألا يتغلب شكلها على مضمونها.

(ط) أن تبعث في التلاميذ الرغبة في المعرفة والشوق إلى الإطلاع والملاحظة والاكتشاف والاستقصاء [1].

رابعاً - من خصائص التربية الإسلامية: الشمول:

من خصائص التربية الإسلامية ومميزاتها أنها تربية شاملة، تشمل جميع جوانب الحياة، الأولى والآخرة، "فإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شؤون الحياة والإنسان، نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور ويتجلى في العبادة والتقرب ويتجلى في الأخلاق والفضائل ويتجلى في التشريع والتنظيم" [2].

ومن مظاهر الشمول في أحاديث الباب ما جاء فيها من أدعية تشمل جميع الجوانب والميادين ومن أظهرها ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ بالله من شر أَسَدٍ وأَسْوَدٍ ومن الحية، والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)).

فنجد في هذا الدعاء استعاذة شاملة لكل ما يتوقع منه أو فيه من أذى، ففيه

(١) انظر: المعينات البصرية في تعليم اللغة، محمود إسماعيل وعمر الصديق عبدالله، عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٤، ٥، ومنهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٤٧٨ - ٤٨١.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١١٣.

استعاذة من شر الأرض وما فيها من المؤذيات، وشر ما خلق فيها من زلازل وبراكين وغيرها، وشر ما يدب عليها من إنسان أو آلة، وشر أسد أو حيوان مفترس وأسود الشكل أو الأثر والهوام والسُميَّات والجن وغيرهم من المؤذيات[١]، حيث شمل الدعاء الاستعاذة بالله من كل ما في الأرض وما عليها من مؤذيات سواء أكانت من إنس أو جان أو حيوان أو جماد.

وفي ذلك دلالة على ما تمتاز به التربية الإسلامية من شمول، "فالتربية الإسلامية تعنى بالجانب الدنيوي والجانب الأخروي على حد سواء، بحيث تعطي كل جانب حقه على أتم وجه، كما أن التربية الإسلامية تعنى بتربية الفرد وتربية الجماعة في آن واحد فتُولِي كل واحد منهما العناية الكفيلة بتحقيق الكمال المنشود ضمن إطار الأهداف العليا للتربية الإسلامية، وتشمل التربية الإسلامية النواحي الثلاث الرئيسة الجسدية والعقلية والوجدانية، وتسعى إلى إعداد الفرد والجماعة إعدادًا متوزانًا في كافة مجالات الحياة الإسلامية المختلفة، بحيث لا يطغى عنصر من العناصر على الآخر ولا تهمل جانبًا من الجوانب المتقدمة على حساب جانب آخر، قال سبحانه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٣][٤].



(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم ص ٥٣٤.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣.

(٤) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبولاوي ص ٣٧.

١٧٥- باب استحباب تعجيل المسافر في الرجوع إِلَى أهله إِذَا قضى حاجته

الحديث رقم (٩٨٥)

٩٨٥- عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى أحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ (مِنْ سَفَرِهِ)**[1]**، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أهْلِهِ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

نهمته: مقصوده[3].

الشرح الأدبي

قول النبي ﷺ (السفر قطعة من العذاب) تشبيه بليغ لما يشتمل عليه السفر من المشاق من الحزن على فراق الأحباب، والهم بما يمكن أن يعتريه من الأخطار بالإضافة إلى عناء السير، ومشقة الطريق بقطعة العذاب، وهذا التشبيه ينفر من إطالة السفر عن الضروري، وقد عرض لصورة من صور المعاناة في السفر (يَمْنَعُ أحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ) والجمع بين الطعام، والشراب يشير إلى الحرمان من جملة ملذات الإنسان لأنه يفهم ضمناً أنه يمنعه من شهوته، وأسلوب الشرط يضع الحل للخلاص من هذه الإشكالية بالاقتصار على الضروري من السفر، وسرعة العودة (فَإِذَا قَضَى أحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أهْلِهِ) والتعبير بالنهمة يوحي بشدة الحاجة بمعنى أنه قضى الحاجة الضرورية لسفره بادر

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري، وعند مسلم زيادة: (من وجهه)، والمثبت لفظ ابن ماجه برقم ٢٨٨٢.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٣٠٠١، ومسلم ١٧٩/١٩٢٧.

(٣) رياض الصالحين ٩٨٣.

بالعودة، يؤكد على ذلك فعل الأمر الواقع في جواب الشرط المقتضي بدلالته العجلة، والمتصل بالفاء التي تستصحب السرعة مع ربطها الجواب بالجزاء، وذكر الأهل، وإضافتهم إليه تذكير بما لهم عليه من حقوق يجب أن يؤديها حتى إذا رضي لنفسه البقاء في هذا العذاب رده عنه حقوق الناس التي يجب أن تؤدى.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة للمسافر إذا قضى حاجته الرجوع إلى أهله)(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من مهام الداعية: بيان الحقائق.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: استحباب تعجيل المسافر والرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: المحافظة على الأهل.

أولاً- من مهام الداعية: بيان الحقائق:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه)، قال النووي: "معناه: يمنعه كمالها ولذيذها لما فيه من المشقة والتعب ومقاساة الحرّ والبرد، والسُّرَى(٢)، والخوف ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش"(٣).

وقال أبو العباس القرطبي: "لما في من المشقات والأنكاد، ومكابدة الأضداد، والامتناع من الراحات واللذات"(٤).

وقال ابن حجر: "قوله: (السفر قطعة من العذاب)، أي جزء منه، والمراد بالعذاب:

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٧/٤، وانظر: التاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد ابن يوسف المواق ١٥٢/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٢٥٦/١، وشرح الزرقاني على الموطأ، الزرقاني ٥٠٧/٤.

(٢) السُّرَى: السير في الليل. انظر المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة سرى.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦/١٣/٧.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٦/٣.

الألم الناشئ عن المشقة، لما يحصل في الركوب والمشي من ترك المألوف، قوله: (ويمنع أحدكم)، كأنه فصله عما قبله بياناً لذلك بطريق الاستئناف كالجواب لمن قال: [لم] كان كذلك؟ فقال: (يمنع أحدكم نومه.. إلخ) أي وجه التشبيه الاشتمال على المشقة. وقد ورد التعليل في رواية سعيد المقبري ولفظه: ((السفر قطعة من العذاب، لأن الرجل يشتغل فيه عن صيامه وصلاته وعبادته، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل الرجوع إلى أهله))[1]. والمراد بالمنع في الأشياء المذكورة، منع كمالها لا أصلها. وقد وقع عند الطبراني بلفظ: (لا يهنأ أحدكم بنومه ولا طعامه ولا شرابه)، وفي حديث ابن عمر عند ابن عدي: (إنه ليس له داء إلى سرعة السير)"[2].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: استحباب تعجيل المسافر والرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته:

هذا واضحٌ من قول الرسول ﷺ: (فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله)، قال أبو العباس القرطبي: "أي يسرع بالرجوع إلى أهله ليزول عذابه، ويطيب له طعامه وشرابه وتزول مشقته"[3]، قال الخطابي: "فيه الترغيب في الإقامة لئلا تفوته الجمعات والجماعات والحقوق الواجبة للأهل والقرابات. وهذا في الأسفار غير الواجبة، ألا تراه يقول ﷺ: ((فَإِذَا قَضى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ))، أشار إلى السفر الذي له نهمة وأرب من تجارة أو تقلب، دون السفر الواجب كالحج والغزو"[4].

وقال النووي: "المقصود في هذا الحديث استحباب تعجيل الرجوع إلى الأهل بعد قضاء شغله، ولا يتأخر بما ليس له بمهم"[5].

وقال ابن حجر: "وفي الحديث كراهة التغرب عن الأهل لغير حاجة، واستحباب

---

(١) أخرجه أحمد ٤٩٦/٢ وقال محققو المسند: حديث صحيح ٢٧٥/١٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٣/٣، وانظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٢٢٠/٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٦/٣.

(٤) نقله الطيبي عنه في شرحه على المشكاة ٣٣٥/٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٦/١٣/٧، .

الرجوع، ولا سيما من يخشى عليهم الضيعة بالغيبة. ولما في الإقامة في الأهل من الراحة المعينة على صلاح الدين والدنيا، ولما في الإقامة من تحصيل الجماعات والقوة على العبادة"[١].

وقال الغزالي: "إن السفر نوع من مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين"[٢].

وقال ابن هبيرة: "في هذا الحديث من الفقه أن المسافر على قلت[٣] وبعرضة[٤]؛ ولأنه يسبب همه في نفسه، وتكثر مؤنته، ويحتاج إلى حمل زاده، ومائه، وقل أن يمكنه إقامة فرائضه كاملة من جميع أقسامها، وأن يصلي الصلوات في جماعة، وأن يشتغل بالعلم والتعليم، كما كان في الحضر، فلا ينبغي له أن يتعرض له إلا لحاجة، فإذا قضاها، فأولى أفعاله أن يسرع الكرة[٥] إلى أهله؛ ليكون مغتنماً إنفاق عمره في الأربح فالأربح، من أحوال أوقاته"[٦].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: المحافظة على الأهل:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (فليعجل إلى أهله)، قال ابن عبدالبر: "في هذا الحديث دليلٌ على أن طول التغرُّب عن الأهل لغير حاجة وكيدة من دين أو دنيا، لا يصلحُ ولا يجوزُ، وأن من انقضت حاجته، لزمه الاستعجال إلى أهله الذين يمونهم ويقوتهم؛ مخافة ما يُحدثه الله بعده فيهم، قال رسول الله ﷺ: ((كَفَى بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))[٧]"[٨].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦٢٣/٣.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٠٣/٢.

(٣) القلت: الهلاك. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٥٨.

(٤) هكذا في المطبوع، فإن كانت صحيحة فالمقصود التعرض للهلاك، فقد جاء في القاموس المحيط: أقلته: أهلكه أو عرضه للهلاك. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي ١٥٨.

(٥) الكرة: الرجعة وزناً ومعنىً. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ٦٤١.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٤٠٨/٦.

(٧) أخرجه أبو داود ١٦٩٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٤٨٤).

(٨) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٣١٥/٢٣ موسوعة شروح الموطأ.

قال ابن عثيمين: "إن المسافر إذا سافر فإنه يترك أهله، وربما يحتاجون إليه في تعليمهم ورعايتهم وغير ذلك، وربما يحدث لهم أشياء توجب أن تكون عندهم، ولهذا أمر النبي ﷺ - كما في الحديث- أن الإنسان إذا قضى نهمته من سفره فليرجع إلى أهله، قال ﷺ في هذا الحديث: (إن السفر قطعة من العذاب)، ويعني ذلك عذاب الضمير وعذاب الجسم، ولا سيما الذي كان في الزمن السابق، حيث يسافرون على الإبل، ويكون فيها مشقات كبيرة، حر في الصيف وبرد في الشتاء. ولهذا قال ﷺ: (إنه قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه)، لأنه - أي المسافر - مشغول البال ولا يأكل ويشرب كطعامه وشربه الهادئ في أيامه العادية، وكذلك في النوم، فإذا كان كذلك فليرجع الإنسان إلى الراحة إلى أهله وبلده، ليقوم على أهله بالرعاية والتأديب وغير ذلك، وفي هذا دليل على إقامة الإنسان في أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة، ووجهه أن أهله يحتاجون إليه، ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلاً من قومه إلى النبي ﷺ وأقاموا عنده عشرين ليلة، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم، قال: ((ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ. فَأَقِيمُوا فِيهِمْ. وأدبوهم وَعَلِّمُوهُمْ))[١]، فدل ذلك على أن الإنسان لا ينبغي أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة، هذا هو الأفضل"[٢].

(١) أخرجه البخاري ٦٣١، ومسلم ٦٧٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٣٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية بالتوجيه:

إن التربية الإسلامية تهدف بالدرجة الأولى إلى إحداث تغييرات إيجابية في سلوك الفرد وسلوك الجماعة، وإن ذلك لا يتأتى بمجرد الإطلاع على نظرياتها ومبادئها وأهدافها، وإنما لا بدَّ أن يتجسد ذلك في دعوة الناس وتوجيههم إلى كل خير يعود عليهم بالنفع في دنياهم وأخراهم[١].

إن التوجيه وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي من طلابه القيام بعمل معين، وهناك أمثلة عديدة لتوجيهاته ﷺ التي من خلالها يحاول تصحيح الأخطاء والحث على صالح العمل وتحويل طاقات الإنسان نحو فضائل الأعمال واستثمار قدراته بجوانب الخير وجعل ذلك عادة مستديمة له[٢].

ومن ذلك ما جاء في حديث الباب من توجيه الرسول ﷺ للمسافر بأن يعجل بالرجوع إلى أهله إذا لم يكن هناك داعٍ لإطالة مدة السفر، فقال ﷺ (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله".

لذا ينبغي على المربين ألا يغفلوا أو يقصروا في مهمة التوجيه، إذ أن التوجيه من الأساليب المؤثرة في سلوك الصغار والكبار معًا، ولقد أكد القرآن الكريم على أهمية الموعظة والتوجيه في أكثر من موطن حيث قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣]، ولكي يحدث التوجيه أثره في نفوس المتعلمين فإنه ينبغي أن يقترن بالشعور بالمحبة والعطف، فالنصح والتوجيه والوعظ والبر من والدٍ محب أو أمٍ حانية أو

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل علي ص ٤٣.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٨٢ - ٢٨٨.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٥.

أخ كبير وصديق مخلص أو معلم عطوف أو شيخ وقور قد يغير مجرى حياة الإنسان.

ومن الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه: تزكية النفس وتطهيرُها، وهو هدف من أسمى الأهداف التربوية التي تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، وبه يسمو المجتمع ويبتعد عن المنكرات، ويسلك الجميع منهج الله وشرعته، ويتوقف تأثير التوجيه والموعظة الحسنة على عدة عوامل ينبغي على الآباء والمعلمين مراعاتها في توجيه النشء وأهمها:

(أ) استخدام الأسلوب غير المباشر في النصح والتوجيه.

(ب) تخير وقت التوجيه حيث تكون النفس هادئة ومستجيبة.

(ج) اتباع التدرج في النصح والإرشاد والتوجيه.

(د) إشعار الأفراد محلَّ التوجيه بالعطف والاهتمام.

ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه والموعظة مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم، ومن المفيد أن يبتعد المعلمون في نصحهم وعظاتهم عن أسلوب الأوامر والنواهي، وعليهم استخدام الذكاء واللباقة في النصح والإرشاد حتى لا ينفروا المتعلمين [1].

ثانياً - من خصائص التربية الإسلامية الواقعية:

إن التربية الإسلامية تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو لحمًا ودمًا وفكرًا وشعورًا وانفعالاً ونزوعًا وروحًا وتحليقًا، فجاء الإسلام بشريعة واقعية لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت، ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللإنسانية [2].

ويترائي لنا في حديث الباب ما اتصفت به التربية الإسلامية من واقعية حيث راعى النبي ﷺ ما يعانيه المسافر ويتحمل من مشاق، وتعرض للأخطار، وتنغيص للراحة والاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، كما أشير إلى ذلك في قوله ﷺ (السفر قطعة من

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ١٦٨ - ١٧٠.

العذاب يمنع أحدَكُم طعامه وشرابه ونومه) فضلاً عما يكابده أهل المسافر من مشاق ومعاناة، لذا كانت وصية رسول الله ﷺ للمسافر بتعجيل رجوعه إلى أهله إذا قضى حاجته وأتم أمره، فقال ﷺ (فإذا قضى أحدكم نهمته من سفر فليعجل إلى أهله).

وذلك من الدلائل الواضحة على واقعية التربية الإسلامية ورعايتها لما يعيشه الإنسان من واقع في حياته وأحواله وعواطفه وما إلى ذلك، "فلم تقل التربية الإسلامية بجملة من المبادئ التربوية الخيالية التي يصعب أو يستحيل تطبيقها وتنفيذها على الواقع، وإنما قالت بما يكفل البناء الحقيقي للشخصية وعلى الواقع، فانظر لاهتمامها بالجانب الجسمي لترى حرصها على ضرورة التغذي بالطيبات، وعدم تناول الخبائث والأغذية الفاسدة التي تجلب الضرر والأمراض وتُلقي بالصحة للتهلكة، وما قالته من ضرورة الوقاية والعلاج من الأمراض... وانظر لاهتمامها بالجانب العقلي لنرى حرصها على ضرورة تغذية العقل بالغذاء المادي والمعنوي الطيبين، وما قالته من ضرورة إعمال العقل وتدريبه على التفكير السليم، وبعيدًا عن الخرافة والسذاجة، وما قالته من ضرورة تجنيب العقل من كل مسكر ومحذور، ومن كل ما يشوش نظامه أو يتلفه... وانظر لاهتمامها بمختلف جوانب شخصية الفرد لترى ما قالته بشأن تنمية تلك لجوانب تنمية واقعية[1]".



(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ٢١٥ – ٢١٧.

١٧٦- باب استحباب القدوم عَلَى أهله نهاراً
وكراهته في الليل لغير حاجة

الحديث رقم (٩٨٦)

٩٨٦- عن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((إِذَا أطال أحَدُكُمُ الغَيْبَةَ فَلاَ يَطْرُقَنَّ[1] أهْلَهُ لَيْلاً))[2].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ نَهَى أنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أهْلَهُ لَيْلاً. متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يَطْرُقَنَّ: الطروق: المجيء في الليل[4].

الشرح الأدبي

معنى الحديث ينم عن ذوق عال في جانب الحياة الاجتماعية، ومراعاة الحالة النفسية للأهل من حيث الاستعداد، وحسن اللقاء، والمعنى يدور حول عدم طروق الأهل ليلاً، وقد جاء في ثوب الشرط ليعطي الحكم شمولاً، واستمرارية تنظم علاقات دقيقة بين المسلمين مهما تقلب بهم الزمان، والمكان، كما يدل على ذلك لفظ (أحد) المتصل بكاف الخطاب، وميم الجمع، والنهي (فَلاَ يَطْرُقَنَّ أهْلَهُ لَيْلاً) إرشاد إلى السلوك القويم يحفظ للمسلم صورته التي يحب أن يلقى عليها أهله بعكس المفاجأة التي قد تصادف

---

(١) لفظ البخاري: (فلا يطرق) والمثبت لفظ أحمد في المسند ١٥٢٦٥.

(٢) اخرجه البخاري واللفظ له ٥٢٤٤، ومسلم ٧١٥/١٨٣، كتاب الإمارة، باب ٥٦ من حديث عاصم الأحول، عن الشعبي.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٠١، ومسلم واللفظ له ٧١٥/١٨٤.

(٤) رياض الصالحين ٣٨٤.

حالة لا ترضيه أو لا ترضيهم، وتوكيد الفعل المنهي عنه بالنون يصعِّد الإحساس بهذا النهي، ويبعث على امتثاله.

فقه الحديث

قال النووي: (يستحب إذا قرب من وطنه أن يبعث إلى أهله من يخبرهم، لئلا يقوم بغتة، فإذا كان في قافلة كبيرة واشتهر عند أهل البلد وصولهم ووقت دخولهم، كفاه ذلك عن إرساله معينًا. ويكره أن يطرق أهله طروقًا لغير عذر، وهو أن يقدم عليهم في الليل، بل السنة أن يقدم أول النهار، وإلا ففي آخره، لحديثي الباب)[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب قدوم المسافر على أهله نهاراً وكراهته في الليل لغير حاجة.

ثانياً: من أهداف الدعوة: نشر التواد والتحاب بين الزوجين.

ثالثاً: من آداب المدعو: عدم التعرض لما يوجب سوء الظنّ بالمسلم.

رابعاً: من آداب الداعية: موافقة فعله لقوله.

خامساً: من أساليب الدعوة: الشرط والنهي والإخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب قدوم المسافر على أهله نهاراً وكراهته في الليل لغير حاجة:

هذا واضح من النهي عن طروق الرجل أهله ليلاً، قال النووي: "ومعنى هذه الروايات كلها أنه يكره لمن طال سفره، أن يقدم على امرأته ليلاً بغتة، فأما من كان سفره قريباً تتوقع امرأته إتيانه ليلاً فلا بأس، كما قال في إحدى هذه الروايات: (إذا أطال الرجل الغيبة))، وإذا كان في قفل عظيم أو عسكر ونحوهم، واشتهر قدومهم ووصولهم، وعلمت امرأته وأهله أنه قادم معهم وأنهم الآن داخلون. فلا بأس بقدومه متى

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٤ .

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٨٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٨٧).

شاء لزوال المعنى الذي نهى بسببه، فإن المراد أن يتأهبوا وقد حصل ذلك ولم يقدم بغتة، ويؤيد ما ذكرناه ما جاء في الحديث الآخر: ((أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلاً - أَيْ عِشَاءً - كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ))[١]، فهذا صريح فيما قلناه. وهو مفروض في أنهم أرادوا الدخول في أوائل النهار بغتة، فأمرهم بالصبر إلى آخر النهار، ليبلغ قدومهم إلى المدينة وتتأهب النساء وغيرهن"[٢].

قال ابن حجر: "التقييد فيه بطول الغيبة يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ، فالحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلاً نهاراً ويرجع ليلاً، لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة، كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع للذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكره... فعلى هذا من أعلم أهله بوصوله أنه يقدم في وقت كذا مثلاً لا يتناوله هذا النهي"[٣].

ثانياً- من أهداف الدعوة: نشر التواد والتحاب بين الزوجين:

هذا واضحٌ من نهي النبي ﷺ عن طروق الرجل امرأته ليلاً، وأن النبي ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية.

قال ابن حجر: "وفي الحديث الحث على التواد والتحاب خصوصاً بين الزوجين، لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين مع اطلاع كل منهما على ما جرت العادة بستره، حتى إن كل واحد منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء في الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه، فيكون مراعاة ذلك في غير الزوجين بطريق الأولى"[٤].

وقال ابن هبيرة: "إن المرأة إذا كان زوجها مسافراً، قد لا تهتم بنفسها كما يكون حاضراً، من الطيب وغسل الثوب وغير ذلك؛ فلو قد أتى الإنسان أهله وهي على ذلك

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٤٦، ومسلم ١٨٢ - ٧١٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧/١٣/٧٧ - ٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩/٣٤٠.

(٤) المرجع السابق ٩/٣٤١.

الشعث والتفل، لم يكن بعيداً من أن يبقى في نفسه مرارة ذلك الاجتماع دهراً، فإذا شعرن بقدوم بعولتهن افتقدن أنفسهن، وغسلن أثوابهن، وتطيبن، وكان اجتماع بعولتهن بهن أدعى للألفة وأعمر لمواطن المحبة"(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢)، قال الطاهر بن عاشور: "وهي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعله من صنف آخر؛ لأن التآنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين الزوجين ولم يجعله تزاوجاً عنيفاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين، فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة، ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة في قوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)... والسكون هنا مستعار للتآنس وفرح النفس، لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد، والسكون الذي هو زوال اضطراب الجسم كما قالوا: اطمأن إلى كذا وانقطع إلى كذا.. والمودة: المحبة. والرحمة: صفة تبعث على حسن المعاملة"(٣).

ثالثاً- من آداب المدعو: عدم التعرض لما يوجب سوء الظنّ بالمسلم:

هذا واضحٌ من الحديثين، وفي رواية عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنهما: ((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً. يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ))(٤).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٩٤/٥ - ٩٥.

(٢) سورة الروم، آية: ٢١.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٧١/٢١/٨ - ٧٢، وانظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٧٢/١٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٤ - ٧١٥.

قال النووي: "ومعنى يتخونهم: يظن خيانتهم، ويكشف أستارهم، ويكشف هل خانوا أم لا"[١].

وقال النبي ﷺ: ((لاَ تَلِجُوا عَلَى الْمغيبَاتِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ))[٢].

قال ابن حجر: "وفي الحديث التحريض على ترك التعرض لما يوجب سوء الظن بالمسلم"[٣].

وقال ابن حجر أيضاً: "يقع للذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكره: إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله في حديث الباب: (كي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة)، ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة لئلا يطلع منها على ما يكون سبباً لنفرته منها. وإما أن يجدها على حالة غير مرضية والشرع محرض على الستر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: (أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم)"[٤].

قال أبوالعباس القرطبي: "إن المرأة في حال غيبة زوجها متبذلة، لا تمتشط، ولا تدّهن، ولا تتنظف، فلو بغتها زوجها من سفره، وهي على تلك الحال استقذرها، ونفرت نفسه منها، وربما يكون ذلك سبب فراقها، فإذا قدم نهاراً سمعت بخبر قدومه؛ فأصلحت من شأنها، وتهيأت له، فحسنت الحال، وأمنت النفرة المذكورة.

وفيه من الفقه: أن المرأة ينبغي لها أن تتحسن، وتتزين، وتتطيب وتتصنع للزوج بما أمكنها، وتجتهد في ألا يرى منها زوجها ما تنفر نفسه منها بسببه؛ من الشعث والوسخ، وغير ذلك. وأما نهيه ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه عن الطروق: فلمعنى آخر، وهو: أن يظنّ بهن خيانة في أنفسهن، أو فيما في أيديهن مما أمنهن عليه. وهو ظن لا

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٧٧/١٢/٧ .

(٢) أخرجه الترمذي ١١٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٩٣٥).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٤١/٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٠/٩.

يحلُّ، وتخمينٌ منهي عنه، فصار النهي عن طروق الرجل أهله معللاً بعلتين، بالأولى وبالثانية"[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[٢].

قال القاسمي: "أي: كونوا على جانب منه، وذلك بأن [لا][٣] تظنوا بالناس سوءاً، فإن الظن غير محقق، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾[٤]، نعم من أظهر فسقه وهتك ستره فقد أباح عرضه للناس، ومنه ما روى: ((مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحياءِ، فلا غيبَةَ لهُ))[٥]، ولذا قال الزمخشري[٦]: "والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر، كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث"[٧].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧٦٧/٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) غير موجودة في المطبوع وأضفناها ليستقيم المعنى، والله أعلم.

(٤) سورة النور، آية: ١٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب ٩٦٦٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ٤١٧، والخطيب في تاريخ بغداد ١٧١/٤، ٤٣٨/٨، وابن عساكر كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٩٠/١٣. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٥٨٥.

(٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٠٤٠.

(٧) تفسير القاسمي ١٣٠/١٥، وانظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢٥١/٢٦/١٠ - ٢٥٣.

وقال سعيد بن المسيب: (كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق، فكن ساعيًا في اكتسابهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة عند عظيم البلاء، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون، ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك الصدق، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب)[١].

رابعاً- من آداب الداعية: موافقة فعله لقوله:

لقد نهى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم عن طروق زوجاتهم ليلاً، فكان هذا قوله ﷺ، أما فعله فقد نقله لنا خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: (كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية)، فقد كان ﷺ يوافق فعله قوله، وكان ﷺ أبعد ما يكون أن يخالف قوله فعله.

قال ابن هبيرة: "في هذا الحديث أن الكامل في أحواله يحترز من النقائص؛ ليكون ذلك مما يقتدى به فيه، فإن رسول الله ﷺ على طهارة أهله ونفسه[٢] بأمانة أزواجه، كان لا يطرقهن ليلاً، حتى يقتدي به غيره، فلا يطرق أهله ليلاً على فجأة، من أجل أنه ربما يكون من ذلك ما يكره"[٣].

ولا شك أن من أكبر المعوقات عن تحقيق الدعوة الإسلامية لأهدافها العُلى وقيمها السامية، أن فئة من الدعاة لا تتوافق أفعالهم مع أقوالهم، فهم يدعون الناس إلى فضائل

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٨٣٤٥، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣/٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢) هكذا في المطبوع وأظنه تحريفاً والصواب: ثقته، والله أعلم.

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥/٩٤.

الأعمال ومكارم الأخلاق، فإذا اختبروا في موقف من المواقف التي تتطلب التمسك بهذه الفضائل وتلك المكارم، سقطوا سقوطاً ذريعاً، ونسوا ما ذكروا به الناس وقتاً طويلاً، وإذا ذُكروا اشتد بعضهم في غيه. فإذا دعوا الناس إلى التحلي بالحلم وعدم الغضب وتعرضوا لموقف يتطلب ذلك، كانوا أسرع إلى الاستجابة لدواعي الغضب والانتقام.

إن من أبرز وأهم صفات الداعية الناجح أن تتوافق أفعاله مع أقواله، لأن المدعوين يشعرون أنه مؤمن بدعوته صادق في الالتزام بها، فينتقل إليهم صدقُه وإيمانه فيتخذونه قدوة ومثلاً لهم، ومن مشهور القصص ذات الدلالة على ذلك أن رجلاً طلب إلى الحسن البصري أن يتحدث في العتق ويبين فضله، فلبث فترة لم يتحدث عن هذا الموضوع، ثم تحدث عن العتق وفضله وثوابه عند الله. فلما سئل عن سبب تأخيره عن الحديث في هذا الموضوع، قال: لأنني لم أكن أملك ما أشتري به رقبة حتى أقوم بإعتاقها، ثم أحدث الناس، فانتظرت حتى يسّر الله لي ذلك فحدثتكم، فكان لذلك أثره المحمود في اقتداء الناس به فقاموا بإعتاق عبيدهم.

فعلى الداعية أن يحذر من أن يخالف عمله قوله، لأن هذا أول أسباب فشل دعوته، فيكون أول الجانين عليها، بدل أن يكون أول المدافعين عنها الحامين عن حياضها.

خامساً- من أساليب الدعوة: الشرط والنهي والإخبار:

الشرط في قوله ﷺ: (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقنّ أهله ليلاً)، وأما النهي فقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: (نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً). وأما الإخبار فقول أنس رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ لا يطرّق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية).

والشرط بمعنى النهي، وجاء الإخبار ليدل على هديه ﷺ، وأن فعله ﷺ كان يوافق قوله.

وفي هذا دعوة للمسلمين دعاة ومدعوين أن يقتدوا به ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[1].

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢ - ٣.

الحديث رقم (٩٨٧)

٩٨٧- وعن أنسٍ رضي الله عنه ، قَالَ: كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يَطْرُقُ أهْلَهُ لَيْلاً ، وَكَانَ يَأتِيهمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

(الطُّرُوقُ): المَجيءُ فِي اللَّيْلِ.

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

غدوة: أي: أول النهار[2].

عشية: من صلاة المغرب إلى العتمة. وقيل: هي من حين الزوال. قال ابن حجر: المراد هنا الأول[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث في معنى سابقه مع اختلاف بسيط في الصياغة، ومن حيث أن الموقف هنا موقف محكي عن الرسول ﷺ وعرض التوجيه عن طريق نقله عن الرسول ﷺ يتميز بالقبول، ويدخل على النفس دخول المأنوس فعل المحب تقليداً لحبيبه، والتعبير بكان يدل على أنه من عادته ﷺ، وأسلوب النفي يقرر عدم الطروق ليلا، وقد أكده بالفعل الصائب المسنون لهم عن نبيهم (وَكَانَ يَأتِيهمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً)، والفعل المضارع يصور قدوم النبي ﷺ في ضوء النهار مع طلوع الشمس نور على نور، أو عشية في نور أعظم يخلف نور الشمس.

المضامين الدعوية[4]

---

(١) أخرجه البخاري ١٨٠٠، ومسلم واللفظ له ١٩٢٨/١٨٠.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (غ د و).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧٢٥/٣، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٧٤، والصحاح في (ع ش ي).

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- مراعاة الجوانب النفسية:

إن مما تغرسه التربية الإسلامية وتدعو إلى التمثل به مراعاة الجوانب النفسية والشعورية عند الآخرين، فلا يكون الإنسان سبباً لتكدير صفو حياتهم وراحتهم وطمأنينتهم، فلا يأتي بتصرف قد يدخل عليهم الذعر ويتسرب من خلاله الخوف إلى نفوسهم حتى ولو كانوا أهله وذويه.

لذا جاءت التعاليم في حديثي الباب بعدم طرق الإنسان أهله ومفاجئتهم إذا كان قادماً من سفر طال به الغياب عنهم، فقال ﷺ "إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً".

وذلك لا يقتصر على معاملة الإنسان لأهل بيته وإنما تمتد لتشمل -جميع معاملاته للناس في مختلف ميادين الحياة خاصة في مجال التربية وميدان التعليم.

(إن مراعاة المربي للجوانب الشخصية والنفسية من الأهمية بمكان، لما لهذا الأسلوب من تأثير في النفوس وتطييب لها وانشراح للصدور وتفتح للعقول وسرعة استجابة للحق)[١].

وكذا مراعاة صفات كل إنسان ومؤهلاته، إذ كل إنسان يمتاز بصفات ومؤهلات تختلف عن صفات غيره من الناس ومؤهلاته، وهذه الصفات أو المؤهلات هي قوام شخصية كل إنسان، فهناك أناس امتازوا بالتفوق في بعض الجوانب أكثر من غيرها، فمنهم من امتازت شخصيته بالشجاعة، ومنهم من امتازت بالكرم، ومنهم امتازت بالحسب والشرف والرياسة، ومنهم من امتاز ببعض العلوم، ومنهم من امتاز بالذكاء وحسن التدبر، ومنهم من امتاز برجاحة العقل وهكذا إلى آخر المقومات.

فالمربي الناجح والمعلم الأريب من يحسن التعامل مع كل واحد بما يناسب مقوماته ويلائم جوانب شخصيته[٢].

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني ص ٢٧.

(٢) انظر: الأساس في السنة وفقهها، سعيد حوي ٢/٨٠١، ٨٠٢.

ثانيًا- مطابقة السلوك للعلم:

إن من أهداف التربية الإسلامية الرئيسة إبراز المبادئ والتعاليم التربوية إلى ميدان التطبيق، وإخراجها إلى حيز التنفيذ، فإن الله سبحانه وتعالى لما شرع الإسلام للناس وأنزل لهم القرآن الكريم لم يكن مراده من ذلك أن يحفظه الناس كنظرية من النظريات، وإنما كان من مراده أن يطبق في حياتهم وأن يتخلق الناس به، وأن يتأسوا برسول الله ﷺ في ذلك، لذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ ليكون القدوة والمثل الأعلى للناس، فكان بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية حية، لتعاليم القرآن الكريم وآدابه وتشريعاته.

لذا كان على المسلمين جميعاً -خاصة من يتصدر منهم للاضطلاع بالعملية التربوية والتعليمية والقيام بمهامها- أن يقتدوا برسول الله ﷺ في تربيته فلا يتوقف عند مجرد الإرشاد والتوجيه بل يمتد إلى التطبيق والتنفيذ، والسنة النبوية ملأى بالأمثلة على ذلك، ومن دلائل ذلك ما جاء في حديثي الباب، فلم يكتف الرسول ﷺ بالإرشاد إلى مراعاة الرجل لشعور أهله وذويه في قوله ﷺ "إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً" وإنما يطبق ذلك في حياته كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً وكان يأتيهم غدوة أو عشية".

ومن هنا كان تركيز التربية الإسلامية على تنفيذ التوجيهات وتطبيق الإرشادات، فإن غاية العلم والتربية الإسلامية التطبيق.

(يجب علينا أن نفرق بين العلم والتعليم، فالعلم وسيلة والتعلم غاية، فالعلم هو إدراك نسبة واقعية مجزوم بها وعليها دليلها، والتعلم هو تغير في السلوك نتيجة للعلم، ومن هنا فليس للعلم قيمة إلا إذا خرج إلى حيز التطبيق، وبالتالي فإن علمك بالفضيلة لا يعني فعلها، وإذا لم تفعلها تكون شهادة ضدك أكثر مما لو جهلتها.

فالعلم لابد أن يسير إلى تطبيق عملي، والتطبيق العملي هذا لا بد وأن يُكوّن في المربِّي الأسوة، بحيث لا يفهم المتربي أن هناك علماً تُحشى به الرؤوس وهناك سلوك آخر ينفصل عن مبدأ ذلك العلم، وإذ انفصل العلم عن أنماط السلوك المتصلة به انهارت

قيمة العلم وانهدمت قيمة المعرفة وحينئذ يكون الفساد المُطبق الذي يصعب بل يستحيل علاجه.

ومن ثَمَّ فإن من غايات العلم ترسيخَ القيمِ الإنسانية والأخلاقِ الإنسانية القائمة عليها.

إن التربية الإسلامية تربية عملية وسيلتها الخبرة والقدوة والعلم، وغايتها الوصول بالإنسان إلى أن يكون فاضلاً، فغاية التربية الإسلامية ليست خلق المواطن الصالح بل خلق الإنسان الصالح أيًا كان موطنه وبناء المجتمع الإسلامي عن طريق تطبيق منهج الله في كل شؤون الإنسان والمجتمع[١].

ومن هنا كانت القدوة هي الركيزة الكبرى في العملية التربوية وأساس قوامها، وإن من يستقرئ حياة الرسول ﷺ يجد مطابقة تامة بين الرأي والعمل، بين الفكر والتطبيق، وبهذا يبين لنا الرسول ﷺ منهجاً تربوياً وهو أن يتمثل المعلم دائماً ما يقول ويعلم وإلا فلا أثر لذلك[٢].

لقد اتخذ الإسلام القدوة وسيلة من وسائله لبناء الشخصية الإسلامية وترقيتها في سلم الكمال السلوكي، فالقدوة الصالحة هي من أنجح الوسائل لبناء الشخصية الإسلامية، خصوصاً في مرحلة الاكتساب وهي فترة الطفولة وهذه القدوة إما أن تكون مشاهدة ملموسة أمامه فيقتدي بها أو تكون مثالاً في ذهنه من الأخبار والسير الصالحة التي يسمعها.

إن الإنسان بصفة عامة يحتاج إلى قدوة صالحة، لأن المحاكاة غريزة كامنة في النفس الإنسانية[٣]، فعندما يلتزم المربي في كل أحواله بأن تكون أعماله مصدقة لأقواله كان هذا أنفع للمتربي سواء كان هذا فيما يتعلق بأمور الدنيا أم بأمور الآخرة، فعندما يرى الطفل مربيه وهو يعطف على المسكين ويساعد الضعيف، فإن ذلك —

---

(١) انظر: منهج التربية في التصور الإسلامي، د. علي أحمد مدكور ص ٣١٤.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل علي ص ٨٢.

(٣) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي ص ١٧٧، ١٧٨.

ولاشك- سوف يدفعه إلى تقليده والاقتداء به، وهو أجدى من الحديث عن فضل الصدقة وأهميتها في الوقت الذي لا يظهر فيه القيام بها، بل على المربي أن يدفع الطفل إلى ذلك دفعاً كأن يخرج من جيبه ما يريد دفعه للفقير، ثم يقول للطفل اذهب وأعطه هذا الفقير، فهو في هذا يحقق أكثر من هدف تربوي، فقوله: (الفقير) يبين للطفل السبب في الدفع لذلك الإنسان، وهو مساعدة المسكين والفقير، ويعوده على سخاء النفس ببذل مالها للغير المحتاج، كما يعلمه هذا السلوك الشجاعة والتعامل مع الآخرين، وقد يحدث أن الطفل نفسه بعدما رأى من صنيع والده ما رأى، أن يأتي إليه فيطلب منه ما يعطيه للفقير، ولا ينبغي للمربي في هذه الحالة أن يمنع ذلك، حتى لو كان المربي لا يرى أحقية ذلك الفقير؛ لأننا - الآن - في مرحلة بناء هذا الخلق عند الطفل، وليس الحكم على هذا السائل أنه يستحق أو لا يستحق، فمن الأمور المهمة في تربية الطفل أن يتعامل مع القيم التي نريد له أن يتخلق بها، على أنها سلوك عملي وليست مجرد أفكار نظرية، والقدوة تؤكد ذلك المعنى وترسخه[1].



(١) انظر: نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، محمد بن شاكر الشريف ص ٥٢، ٥٤.

١٧٧- باب مَا يقول إِذَا رجع وإذا رأى بلدته

فِيهِ حَدِيثُ ابنِ عمرَ[١] السَّابِقُ فِي باب تكبيرِ المسافِرِ إِذَا صَعِدَ الثَّنَايَا.

الحديث رقم (٩٨٨)

٩٨٨- وعن أنس رضي الله عنه، قَالَ: أقْبَلْنَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ[٢].... حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: ((آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ))، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ. رواه مسلم[٣].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

بظهر المدينة: بمحلّ تظهر فيه[٤].

آيبون: راجعون[٥].

الشرح الأدبي

قول الراوي (إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ) كناية عن بلوغها والتعبير بالظهر يوحي بظهور معالمها، وقوله (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ) خبر قصد به الدعاء تضرعاً، وحمداً لله، وفيها سجع بديع يعطيها حلاوة في اللسان، وخفة في الآذان مع وضوح في الجنان، وبين آيبون، وتائبون جناس يزيد المعنى وضوحاً، ونسبة الفعل لضمير الجماعة لتعميم الدعاء وشمول الجميع، كما هو مستحب في الدعاء.

---

(١) تقدم برقم ٩٧٨.

(٢) عند مسلم زيادة: (أنا وأبو طلحة، وصفية رديفته على ناقته).

(٣) برقم ١٣٤٥/٤٢٩ وقد أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ٣٠٨٦، ٥٩٦٨، ٦١٨٥.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١١٩٣.

(٥) لسان العرب، ابن منظور والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ي ب).

فقه الحديث

قال النووي: (السنة أن يقول في رجوعه من السفر ما ثبت في حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ: "كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده"(١) وعن أنس قال: أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة"(٢))(٣).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده.

ثالثاً: من آداب المدعو: المداومة على ذكر الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

هذا واضحٌ من قول أنس بن مالك رضي الله عنه: (أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون. فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة).

فدلّ هذا الإخبار على هديه ﷺ إذا رجع من سفره، ومن ثم كان دعوةً للمدعوين أن يفعلوا مثلما فعل ﷺ، لأنه قدوتهم، وهو الذي يدلهم على ما فيه خيرهم ونفعهم، ويحذرهم مما فيه ضرّهم وإلحاق الأذى بهم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٦٣٨٥، ومسلم ١٣٤٤/٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ومسلم ١٣٤٥.

(٣) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٩٨/٤ .

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده:

لقد قال النبي ﷺ عندما قرب من المدينة ورآها: (آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون، فلم يزل يقول ذلك حتى قدم المدينة).

وقال البراء بن عازب رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر قال: ((آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ))[(١)].

قال ابن حجر: "قوله: (آيبون): جمع آيب أي راجع[(٢)]، وزنه ومعناه وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: نحن آيبون... وقوله: (تائبون) فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع أو تعليماً لأمته، أو المراد أمته كما تقدم تقريره، وقد تستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة، فيكون المرادُ أن لا يقع منهم ذنب"[(٣)].

أما قوله: (عابدون)[(٤)]، فإن العبادة هي التي خلق من أجلها الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٥)]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[(٦)].

وأما قوله: (لربنا حامدون)[(٧)]، فقد قال رسول الله ﷺ: ((أَفْضَلُ الذِّكْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهِ. وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ))[(٨)].

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤٤٠، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي ٢٧٣٦.

(٢) قال القرطبي: وهو الراجع بالخير هنا، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٤/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٨٩/١١.

(٤) قال القرطبي: خاضعون متذللون، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٤/٤.

(٥) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٦) سورة البينة، آية: ٥.

(٧) قال القرطبي: حامدون: مثنون عليه بصفات كماله، وجلاله وشاكرون عوارف أفضاله، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤٥٤/٣ - ٤٥٥.

(٨) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٠، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٥).

قال ابن القيم: "عند قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين)، نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلاً ووصفاً واسماً، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسما، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه. فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك. وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال. وأسماؤه كلها حسنى، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة، والسماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووجد بحمده، فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده"[1].

وفي تشريع النبي ﷺ الذكر عند الرجوع من السفر ورؤية المسافر بلده، في ذلك حكمة وهي شكر الله عز وجل على نعمة السلامة، وأن أرجعه سالماً غانماً إلى أهله بعد أن كان على حالة السفر، وهي حالة فيها من المشقة والتعب ما فيها، ومن التعرض لمظان الهلاك والإضرار ما فيه، فكان المناسب أن يعلن المسافر خضوعه وتذلله لله رب العالمين والثناء عليه سبحانه، ويستمر على هذا حتى يدخل بلده، فهو وقد دعا عند بداية السفر بأن يسلمه الله وقد استجاب الله له، فلا أقل من شكره سبحانه وإقرار المسافر بعبوديته وافتقاره لله رب العالمين. فأين هذا المسلك الرشيد مما يحدث الآن عند رؤية المسافرين بلدانهم وقد رجعوا إليها بعد سفرهم، فإن بعضهم يصفق ويأتي من الأفعال ما يخل بالمروءة والوقار؟

ثالثاً- من آداب المدعو: المداومة على ذكر الله:

هذا اقتداء بالنبي ﷺ الذي أخبر عنه أنس رضي الله عنه (فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة).

قال ابن القيم: "إن في دوام الذكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة، فإن البقعة والدار والجبل والأرض تشهد للذاكر يوم

---

(١) بدائع التفسير ١١٢/١.

القيامة، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[1].

فروى الترمذي في جامعه من حديث سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قَرَأَ رَسُولُ اللهِ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أن تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أو أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وكَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا))[2]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[3].

والذاكر لله عز وجل في سائر البقاع مكثر شهوده، ولعلهم أو أكثرهم أن يشهدوا له يوم القيامة، يوم قيام الأشهاد وأداء الشهادات، فيفرح ويغتبط بشهادتهم[4].

وقال ابن القيم كذلك: "إن عمال الآخرة كلهم في مضمار السباق. والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق. قال الوليد بن مسلم قال محمد بن عجلان سمعت عمر مولى غفرة يقول: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم لم يروا عملاً أفضل ثواباً من الذكر، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر"[5].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيات: ١ – ٥.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٤٢٩، ٣٣٥٣ وضعفه الألباني، (ضعيف سنن الترمذي ٤٢٨، ٦٦٤).

(٣) قال الترمذي في الموضع الأول: هذا حديث حسن غريب على حين قال في الموضع الآخر: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ٢/٣٥٦.

(٥) الوابل الصيب ٢/٣٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- ربط الولد بذكر الله تعالى:

إن مما ينبغي غرسه في المتربين لاسيما الناشئة منهم المداومة على ذكر الله تعالى في جميع الأوقات وعلى مختلف الأحوال، والذكر معناه استحضار عظمة الله تعالى في جميع الأحوال التي يكون عليها المؤمن، سواء أكان هذا الاستحضار ذهنياً أو قلبيًا أو نفسياً أو لسانياً أو فعليًا، أو كان في حال القيام أو القعود أو الاضطجاع أو السعي في مناكب الأرض أو تدبر آيات القرآن أو سماع الموعظة أو الاحتكام إلى شريعة الله أو ابتغاء أي عمل يقصد به المؤمن وجه الله.

وقد جاء في حديث الباب بيان بعض الأذكار الخاصة بالرجوع من السفر والإكثار منها كما هو ظاهر في صريح الحديث، فعن أنس رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ أنا وأبو طلحة وصفية رديفته على ناقته، حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون" فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة.

لذا ينبغي على الآباء والمربين والمعلمين ربط الأولاد بذكر الله تعالى، وتلقينهم الأذكار والأدعية والمأثورات التي صحت عن النبي ﷺ، سواء ما يتعلق بأدعية الصباح والمساء أو أدعية الطعام والشبع أو أدعية السفر والإقامة أو أدعية الدخول والخروج أو أدعية النوم واليقظة أو أدعية التهجد والظواهر الكونية. كذلك الاستغاثات الإلهية والاستغفارات الربانية التي ذكرها القرآن وأُثِرَتْ عن نبينا ﷺ[(١)].

إن ربط الأولاد بالأذكار والأدعية هو السلاح الأمضى والعامل الأقوى، وله فعله في النفوس يثبتها ويقومها، فقد أمرنا الله تعالى بذكره حتى في مواطن الجهاد وقتال الأعداء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[(٢)] فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد وقتال الأعداء[(٣)].

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٨٢٦، ٨٢٧.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

(٣) انظر: الثبات ووسائله في ضوء القرآن الكريم، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل ص ٨٥-٦٠.

إن المنهج الإسلامي يحث الإنسان على ذكر الله بالتسبيح والتكبير والدعاء والمواظبة على كل ذلك لأنها تؤدي إلى تزكية نفسه وصفائها وتجعله يشعر بالطمأنينة القلبية والأمن النفسي، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[1] وقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2])[3].

فعلى المربي أن يسعى جهده على ربط الولد بذكر الله تعالى، وتربيته على ما في ذكر الله تعالى من معانٍ، كاستحضار عظمة الله في نفسه ليخشاه في السر والجهر والمتقلب والمثوى، والحل والترحال، والسفر والحضر، والسلم والحرب، والبيت والسوق، والنوم واليقظة، وفي كل مكان، ليكون من عداد أولئك الذين عناهم الله بقوله حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4].

ولاشك أن الولد إذا تأصلت نفسه على ذكر الله وترسخ قلبه على مراقبته ونشأ الولد مُخْبِتًا عابدًا ذاكرًا صالحًا مستقيمًا متزنًا خلوقًا، فلا يقع في معصيته ولا يرتكب فاحشة ولا يعمل ذنبًا، وهذا - والله - غاية الصلاح والتقوى في الولد.

ألا ما أعظم منهج الإسلام في التربية حين يسير على هداه المربون ويلتزم قواعده الآباء والمعلمون[5].

ثانيًا- التربية بالممارسة العملية:

إن التربية بالممارسة العملية والتطبيق تكشف مدى نجاح المعلم والمربي في عمله، كما

---

(١) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٣) انظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر التركي ص ٥٦٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٨٢٨/٢، ٨٢٩.

أنها تهدف إلى تثبيت المعلومات في نفوس الطلبة بشكل جيد ويعمق مدى فهمهم لما يلقى على أذهانهم، كما أن ذلك المنهج يبين مدى فائدة المعلومات في الحياة وذلك بتطبيقها في مواقف طبيعية وهذا ما يثبتها في عقل الطلبة ويزيد من أهميتها في نظرهم[١].

وإن من ينظر إلى منهج النبي ﷺ يجده أنه لا يقتصر على التوجيه والإرشاد فحسب، وإنما كان يشفع ذلك بالقدوة والممارسة العملية، ومن دلائل ذلك ما جاء في حديث الباب الذي نقل لنا ما كان يقوله ﷺ من أذكار في الرجوع من السفر حيث كان يقول "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون".

إن أسلوب الممارسة العملية من أهم أساليب التربية الإسلامية، والذي له العديد من الآثار والفوائد التربوية، وذلك لأن الدين الإسلامي دين عمل شريطة أن يكون العمل قرينًا للعلم، وقائمًا على أساسه، وهو دين يجعل العمل أساسًا للنجاح أو الخسران في الدنيا والآخرة فإن كان خيرًا فخير وصلاح وفوز ونجاح وإن كان شرًا فشر وخسران[٢].

إن أهمية الممارسة العملية تترائى لنا في كونها من أكبر السبل لغرس الأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وتصحيح الأوضاع الخاطئة، (فكثيراً ما يطلب من الطفل القيام بأعمال لم يسبق له عملها أو شاهد مَنْ عملها لذلك يبقى في جهل فإذا طلب منه العمل وقع في أخطاء تحتاج إلى تصحيح فإذا عوقب على خطئه هذا كان ظلمًا وحيفاً.

أما إذا لقن الطفل المعلومات الصحيحة ووجه كذلك بالطريقة العملية كان ذلك أدعى للعلم الصحيح والعمل البناء الموجه.

إن تدريب حواس الطفل يكسبه معرفة وعلمًا فعندما يبدأ بالنمو ويبتدئ بتشغيل يديه في عمل من الأعمال فإن ذلك يثير في عقله اليقظة فيشاهد أمامه كيف يدرب حواسه ويعيد هو بنفسه ذلك العمل وهكذا يتقن العمل ويتطلع إلى إجادة العمل خطوة خطوة[٣].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: المرشد النفيس إلى أسلمة التربية وطرق التدريس، د. محمد صالح بن علي جان ص ٢٣، ٢٣٨.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) انظر: المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ١٠٤، ١٦٧.

١٧٨- باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد الذي في جواره وصلاته فيه ركعتين

الحديث رقم (٩٨٩)

٩٨٩- عن كعب بن مالِك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢١).

الشرح الأدبي

حكاية عادة النبي ﷺ أو عبادته غرضه لازم الفائدة من الخبر، وهو الإعلام بأنها سنة عنها، وإذا لم يكن الفعل معلوماً فالغرض هو إفادة مضمون الخبر، وليس لازم هذه الإفادة، ومثل نوعية هذا الحديث الذي يبدأه الرواي بقوله: (كان رسول الله ﷺ) تشير إلى أنها عادة معروفة لاسيما إذا تبعها أسلوب الشرط، وقوله: (كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ) أسلوب شرط يربط القدوم بصلاة الركعتين في المسجد، وهو لون من ألوان شكر النعمة، واغتنام السلامة، ورد الفضل إلى أهله، وقوله (بدأ بالمسجد) البداية بالمسجد من براعة استهلال القدوم، وأنه أولى البيوت بالبداية اعترافاً بفضل ربه، وقوله (فركع ركعتين) جناس يؤكد أداء الركعتين، والتعبير عن الصلاة بالركوع من تسمية الشيء بجزئه تنبيهاً على فضل هذا الجزء الدال على الخضوع.

فقه الحديث

قال النووي: (السنة إذا وصل منزله أن يبدأ قبل دخوله بالمسجد القريب إلى منزله،

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩/٥٣ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣١٠ الحديث الطويل بتمامه.

فيصلي فيه ركعتين بنية صلاة القدوم، لحديث كعب بن مالك ... فإن كان القادم مشهورًا بقصده الناس، استحب أن يقعد في المسجد أو في مكان بارز ليكون أسهل عليه وعلى قاصديه، وإن كان غير مشهور ولا يُقصد، ذهب إلى بيته بعد صلاته الركعتين في المسجد)[(١)].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: استحباب ابتداء القادم من السفر بالمسجد وصلاته فيه ركعتين.

ثانياً: من آداب الداعية والمدعو: شكر الله على العودة من السفر سالماً.

أولاً- من موضوعات الدعوة: استحباب ابتداء القادم من السفر بالمسجد وصلاته فيه ركعتين:

هذا واضحٌ من قول كعب بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ فِي غَزَاةٍ. فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَى. ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ قَبْلِي. وَقَدِمْتُ بِالْغَدَاةِ. فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ فَوَجَدْتُهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ. قَالَ: ((الآنَ حِينَ قَدِمْتَ؟)) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَدَعْ جَمَلَكَ. وَادْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ)) قَالَ: فَدَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ. ثُمَّ رَجَعْتُ[(٢)].

وقال النووي: "في هذه الأحاديث استحباب ركعتين للقادم من سفره في المسجد أول قدومه، وهذه الصلاة مقصودة للقدوم من السفر، لا أنها تحية المسجد. والأحاديث المذكورة صريحة فيما ذكرته"[(٣)]، وقال ابن حجر: "لكن تحصل التحية بها"[(٤)].

وقال ابن عثيمين: "إذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد قبل

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٩ .

(٢) أخرجه البخاري ٤٤٣، ومسلم واللفظ له ٧٣ - ٧١٥.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٣/٥/٢٣٢، وانظر: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/١٩٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١/٦٤٠ .

أن يدخل على أهله، يبدأ بالمسجد ويصلي فيه ركعتين، لأن النبي ﷺ سنّ ذلك لأمته في قوله وفعله، وهذه السنة قد غفل عنها كثير من الناس، إما جهلاً بذلك وإما تهاوناً، ولكن ينبغي للإنسان أن يُحيي هذه السنة، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلي ركعتين، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله"[1].

ثانياً: من آداب الداعية والمدعو: شكر الله على العودة من السفر سالماً:

لقد كان النبي ﷺ يصلي ركعتين في المسجد إذا رجع المدينة، كما أمر ﷺ جابراً بأن يصلي ركعتين في المسجد عند عودته من السفر كما هو مبين في الفقرة السابقة، ويظهر لي - والله أعلم- أن النبي ﷺ إنما فعل ذلك شكرًا لله على أن أرجعه ﷺ سالماً غانماً إلى أهله وبلده. ولهذا كان من دعائه ﷺ عند عودته إلى المدينة من سفره: ((آيبون، تائبون، عابدون لربِّنا حامدون))، فلم يَزَل يقولها حتى دخلَ المدينة[2].

قال العز بن عبدالسلام: "شكر الله على كل حال، قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[3]، وقال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[4]، وقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[5]، يكون الشكر بالقلب واللسان وبجميع الطاعات ولذلك قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[6]، ولما قام عليه السلام حتى تورمت قدماه قيل له: أتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك؟ فقال: ((أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟))[7]. جعل الاجتهاد والنصب في قيام الليل من جملة الشكر.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/٢٢٣١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ومسلم ١٣٤٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

(٤) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٥) سورة الزمر، آية: ٧.

(٦) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٧) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٢٨١٩.

والشكر على الأكل: قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾[(١)].

وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[(٢)].

الشكر على الشرب: قال الله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

الشكر على النصر: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٤)].

والشكر على تسخير الفلك: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٥)].

والشكر على النعم على الآباء: قال الله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾[(٦)]، وأما قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[(٧)]، فشكر الوالدين في فضول الإحسان إليهما.

والشكر على الإدراك: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٨)]"[(٩)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "الشكر: هو ظهور أثر النعمة على اللسان والقلب والجوارح بأن يكون اللسان مقراً بالمعروف مثنياً به، ويكون القلب معترفاً بالنعمة،

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٣) سورة الواقعة، آية: ٧٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٥) سورة الجاثية، آية: ١٢.

(٦) سورة النمل، آية: ١٩.

(٧) سورة لقمان، آية: ١٤.

(٨) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٩) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ٣٠٩ - ٣١١.

وتكون الجوارح مستعملة فيما يرضاه المشكور. على حد قول الشاعر:

أفـــادتكم النعمـــاء مـــني ثلاثـــة يــدي ولــساني والــضمير المحجبـــا

والشكر لله في الاصطلاح: صرف العبد النعم التي أنعم الله بها عليه في طاعته، أو فيما خلقت له، وشكر الله تعالى على نعمه واجب شرعاً من حيث الجملة"[1].

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦/١٧٣ - ١٧٤، ومصادرها ومراجعها.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- تربية الناشئة على الارتباط بالمسجد والتعلق به:

إذا كان النبي ﷺ يبدأ بالمسجد عند وصوله إلى المدينة، فيصلي فيه ركعتين، فهذا يستدل به على أنه ينبغي للمربين أن يربوا الناشئة على الارتباط بالمسجد والمداومة على الذهاب إليه، واستمرار الرواح إليه والمجيء منه، حتى يتعلق القلب به على مدار اليوم في جميع الأوقات، إقامة وسفراً فراغاً وانشغالاً، صغيراً أو كبيراً طفلاً أو شيخاً. وما ذلك إلا لأن المسجد هو أحب الأماكن إلى الله تعالى في الأرض [(١)]، لأنه فيه يعبد الله ويتربى المسلم على التربية السليمة الصحيحة، من الناحية العقدية والعبادية والأخلاقية والاجتماعية، ولذا كان المسجد منطلق كل داعية ناجح ومربٍّ فاضل، منه يخرج الصالحون والمجاهدون والمتقون والمخلصون.

ومن نافلة القول أنه "قد يتبادر إلى الذهن أن الغرض من بناء المسجد إنما هو أداء الصلاة والعبادة، وهذا في الحقيقة غرض واحد من بين عدة أغراض مختلفة. وليس التعليم أقلّها، بل إنما كان التعليم من أكثر الوظائف بروزاً في الدور الذي كان يؤديه المسجد، حيث اعتبر المسجد المكان الطبيعي لتلقي العلم، ومعرفة تعاليم الشريعة أولًا بأول، فقد كان الرسول ﷺ يعقد حلقات العلم في المسجد ليغشاها كل راغب في العلم [(٢)]".

ولا نعدم من التاريخ ما يدل على دور المسجد الحيوي في التربية والتنشئة، فأعلام الفكر التربوي الإسلامي قد تربوا في المسجد وتعلموا فيه مثل: ابن الجوزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، رحمهم الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم، ٦٧١ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها".

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ط/١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دون بيانات أخرى ص ١٢١.

ثانياً- تربية الناشئة على خلق الشكر:

إن المتبادر إلى الذهن أن النبي ﷺ صلّى ركعتين في المسجد عند قدومه من السفر- والمتبادر إلى الذهن من ذلك هو شكر الله تعالى على الرجوع من السفر سالماً غانماً إلى أهله ووطنه، بعد أن كان على معاناة ومقاساة من فراق الأهل والأحباب والأوطان، وانشغال البال والفكر وكثرة طروق الهموم والأحزان إليه في سفره، فلما تحقّق الأمن والسلامة كان من الأنسب والأوفق شكر الله تعالى على هذه النعم، وإن تربية الناشئة على الشكر يحقق لهم ولمجتمعهم المنافع الجمة والمصالح العديدة، من ذلك شيوع روح التقدير والثناء بالحق بين أفراد المجتمع مما يكون له أبلغ الأثر على ازدياد فعل المعروف والإحسان والبذل، كما أن الفرد في المجتمع يُنَشّأ على القيام بواجباته وعدم التهاون فيها كما هو حاله في المطالبة بحقوقه والعمل على تحصيلها.

والخلاصة: أن مجتمعاً يتربى أفراده على صفة الشكر، لمجتمع فاضل، خيّر، يتمتع أفراده بالإيجابية والمبادرة والمسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى الفضائل

ثالثاً- تربية الناشئة على تقديم طاعة الله على حظوظ النفس:

إن بدء النبي ﷺ بالمسجد عند القدوم من سفره يدل على أهمية تربية الناشئة على تقديم طاعة الله على حظ النفس ورغباتها، ولو كانت هذه الحظوظ وتلك الرغبات مباحة لا ضير فيها، فإن القادم من السفر عنده من الرغبات ما لو استجاب لها لشغلته وملأت عليه وقته وفكره: من لقاء الأهل والأولاد والجلوس إلى الأصدقاء والأحباب، فضلاً عن طلب الراحة والهدوء بعد رحلة سفر عانى فيها التعب والكدّ.

لكن الناشئة المسلمة يُربون على أن رغبتهم الأولى وحظهم الأعلى هو طاعة الله، وبعد ذلك تأتي الرغبات والحظوظ الأخرى ويلتزمون هذا في جميع أحوالهم ومختلف شؤونهم.

وإذا تربى الناشئة على هذا خرجوا نافعين لأنفسهم ولأهلهم ولأوطانهم ومجتمعهم، تزداد بهم الحياة خيراً وتقلّ شراً، وينتشر النور على حين ينكمش الظلام.

إن معظم الخلل الحادث عند الناشئة، يكون سببه تقديم حظوظ النفس على ما

عداها؛ فينشأ الانحراف، وسوء الأخلاق، وكذلك الأوبئة الاجتماعية التي تهدد أسس المجتمع ومرتكزاته.

رابعًا- من أساليب التربية: الممارسة العلمية:

وهذا واضح جلي من الحديث؛ فالنبي ﷺ علّم أصحابه أنهم إذا قدموا من سفر بدءوا بالمسجد فصلُّوا فيه ركعتين، علمهم ذلك عن طريق الفعل والعمل، لقد رأوه ﷺ يفعل ذلك فتعلّموا منه كما نتعلم نحن - الآن- منه ﷺ، ومما لا شك فيه أن التربية بالممارسة العملية تتميز بطول بقاء أثر التعلم في نفوس المتعلمين.



١٧٩- باب تحريم سفر المرأة وحدها

الحديث رقم (٩٩٠)

٩٩٠- عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَا)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مع ذي مَحْرَم: مع من يحرم نكاحه حرمة مؤبدة[2].

الشرح الأدبي

الحديث بدأ بأسلوب النفي العام الذي الذي يجعل جميع النساء تحت مظلة النهي (لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَ) وقد أخذ هذا العموم من تسليط النفي على الفعل المضارع، والنكرة (امرأة) التي تفيد العموم، وبذلك فجميع النساء معنيات بهذا النهي، وقوله (تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ) تكميل بلاغي يضيف معنى الإيمان الذي يرهن الإيمان باجتناب الخروج هذه المسافة إلا مع ذي محرم، وذكر اليوم الآخر يشير إلى الحساب، ويلوح بالعقاب لمن يخالفن قوله: (مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) فيه لإيجاز بالحذف أي مقدار مسيرة، وبين اليوم، والليل طباق يؤكد المعنى، ويحدد المسافة، والأسلوب الذي شمل المعنى أسلوب القصر الذي يقصر صفة حل سفر المرأة على وجود المحرم.

فقه الحديث

١- الخلوة بالأجنبية:

الأجنبية: هي من ليست زوجة ولا محرمًا، والمحرم من يحرم نكاحها على التأبيد

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٨٨، ومسلم واللفظ له ١٣٣٩/٤٢١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٥٥٤.

(٢) رقم ٩٩٠، ٩٩١.

إما بالقرابة أو الرضاعة أو المصاهرة[١]. ويحرم على الرجل الخلوة بها، والأصل في ذلك قول النبي ﷺ: "لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم" وقد اتفق الفقهاء على أن الخلوة بالأجنبية محرمة[٢].

وقال النووي: (وأما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك، فإن وجوده كالعدم، وكذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب فإن الصحيح جوازه، والمختار أن الخلوة بالأمرد الأجنبي الحسن كالمرأة، فتحرم الخلوة به، حيث حرمت بالمرأة، إلا إذا كان في جمع من الرجال المصونين. قال أصحابنا: ولا فرق في تحريم الخلوة - حيث حرمنا - بين الخلوة في صلاة أو غيرها. ويستثنى من هذا كله مواضع الضرورة، بأن يجد امرأة أجنبية منقطعة في الطريق أو نحو ذلك، فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا اختلاف فيه)[٣].

٢- اشتراط سفر المرأة للحج مع محرم أمين:

جاء في الموسوعة الفقهية: (يشترط أن يصحب المرأة في سفر الحج زوجها أو محرم منها؛ إذا كانت المسافة بينها وبين مكة ثلاثة أيام وهي مسيرة القصر في السفر وإلى هذا ذهب الحنفية والحنابلة[٤] واستدلوا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((لا تسافر

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٢٤/٢.

(٢) الأشباه والنظائر، ابن نجيم ٢٨٨، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم النفراوي ٤٠٩/٢، ٤١٠، والمجموع ١٥٥/٤، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ١٨/٥، وشرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٧/٣ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٧/١٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٩٢/٩/٥ .

(٤) الهداية وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ١٢٨/٢، والكافي ٥١٩/١، والمغني شرح مختصر الخرقي، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٣٦/٣- ٢٣٧.

المرأة ثلاثًا إلا ومعها ذو محرم))[١].

وتوسع الشافعية والمالكية، فسوغوا الاستبدال بالمحرم: ذهب الشافعية إلى أنها إن وجدت نسوة ثقات: اثنتين فأكثر تأمن معهن على نفسها، كفى ذلك بدلاً عن المحرم أو الزوج بالنسبة لوجوب حجة الإسلام على المرأة، وعندهم الأصح أنه لا يشترط وجود محرم لإحداهن، لأن الأطماع تنقطع بجماعتهن، فإن وجدت امرأة واحدة ثقة فلا يجب عليها الحج، لكن يجوز لها أن تحج معها حجة الفريضة أو النذر، بل يجوز لها أن تخرج وحدها لأداء الفرض أو النذر إذا أمنت.

وزاد المالكية توسعًا فقالوا: المرأة إذا لم تجد المحرم أو الزوج ولو بأجرة تسافر لحج الفرض أو النذر مع الرفقة المأمونة، بشرط أن تكون المرأة بنفسها هي مأمونة أيضًا.

والرفقة المأمونة جماعة مأمونة من النساء أو الرجال الصالحين، قال الدسوقي: "وأكثر ما نقله أصحابنا اشتراط النساء".

أما حج النفل فلا يجوز للمرأة السفر له إلا مع الزوج أو المحرم فقط اتفاقًا، ولا يجوز لها السفر بغيرهما بل تأثم به)[٢].

٣- نوع الاشتراط للمحرم:

اختلف الفقهاء في الزوج أو المحرم هل هو شرط وجوب أو شرط للزوم الأداء بالنفس: ذهب المالكية والشافعية والحنابلة في الراجح عندهم وهو رواية عن أبي حنيفة إلى أن المحرم شرط لوجوب الحج، ويحل محلّه عند فقده الرفقة المأمونة عند الشافعية والمالكية على الوجه الذي ذكرناه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٨٦، ومسلم ١٣٣٨.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/٩-١٠، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي ١/٤٥٥، والمنهاج للنووي وشرحه ٢/٨٩، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ١/٤٦٧، وحاشية القليوبي على شرح المنهاج ٢/٨٩ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/٣٥-٣٦.

والراجح عند الحنفية أن الزوج أو المحرم شرط للزوم الأداء بالنفس[1].

وثمرة الخلاف في ذلك أن من جعله شرطًا لوجوب الحج، لا يوجب عليها في تركتها شيئًا إذا ماتت قبل تمكنها من الحج مع المحرم، ومن جعله شرطًا لوجوب الأداء أوجب عليها في تركتها مالاً يحج به عنها، حيث تعلق وجوب الحج في ذمتها[2].

٤- سفر الزوج مع امرأته:

قال ابن حجر: (قوله: "اخرج معها" أخذ بظاهره بعض أهل العلم، فأوجب على الزوج السفر مع امرأته إذا لم يكن لها غيره، وبه قال أحمد وهو وجه للشافعية. والمشهور أنه لا يلزمه كالولي في الحج عن المريض، فلو امتنع إلا بأجرة لزمها، لأنه من سبيلها، فصار في حقها كالمؤنة)[3].

٥- منع الزوج امرأته من حج الفريضة:

قال ابن حجر: (واستدل به على أنه ليس للزوج منع امرأته من حج الفرض. وبه قال أحمد وهو وجه للشافعية، والأصح عندهم أنه له منعها لكون الحج على التراخي)[4].

المضامين الدعوية[5]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تحريم سفر المرأة وحدها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.

رابعاً: من فقه الداعية: ترتيب الأولويات.

خامساً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

---

(١) الشرح الكبير وحاشيته ٢/٩، وشرح الرسالة، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد العدوي وسائر المراجع السابقة والهداية وشرحها ٢/١٣٠، ولباب المناسك وشرحه ٣٧، والفروع، ابن مفلح ٣/٢٣٤-٢٣٦ عن الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/٣٦.

(٢) نظر: فقه السنة الميسر ٤٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٤/٧٧، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/٣٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٤/٧٧، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/٣٧-٣٨.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -٩٩٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (٩٩١).

سادساً: من أهداف الدعوة: صيانة المجتمع ونشر العفاف والمحافظة على الأعراض.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في قوله ﷺ: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها)، وقوله ﷺ: (لا يخلوّن رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم)، فقد نهى النبي ﷺ عن سفر المرأة بدون محرم أو الخلوة بها بدون محرم.

وقد ورد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: ((نَهَى أَنْ تُسَافِرَ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إِلاَّ وَمَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ))[1].

"والنهي طلب الكف عن الفعل على سبيل الاستعلاء"[2]. ويمكن أن يقال أيضاً إن هذا أسلوب قصر، فقد قصر النبي ﷺ جواز سفر المرأة وإباحته على كون المحرم معها، وكذلك الخلوة، أما ما عدا ذلك فإنه لا يباح ولا يجوز، وأسلوب القصر يتكون من أداة النفي مع أداة الاستثناء كما في الحديث.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تحريم سفر المرأة وحدها:

هذا واضح من النهي في الحديثين، قال النووي: "قوله ﷺ: (لا تسافر المرأة ثلاثاً إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (فوق ثلاث)، وفي رواية: (ثلاثة)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم أو زوجها، وفي رواية: (نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها ذو حرمة منها)، وفي رواية: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا ومعها ذو محرم)، وفي رواية: (مسيرة يوم وليلة)، وفي رواية: لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم) هذه روايات مسلم[3]، وفي رواية لأبي داود[4]: (لا تسافر بريداً)، والبريد:

---

(١) أخرجه مسلم ٤١٦ - ٨٢٧.

(٢) تعليم علم الأصول، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٣٦٧.

(٣) صحيح مسلم، الأحاديث: ١٣٣٨ - ١٣٤١.

(٤) أخرجه أبو داود ١٧٢٥، وحكم عليه الألباني بالشذوذ. (ضعيف سنن أبي داود ٣٧٩).

مسيرة نصف يوم. قال العلماء: اختلاف هذه الألفاظ لاختلاف السائلين واختلاف المواطن، وليس في النهي عن الثلاثة تصريح بإباحة اليوم والليلة أو البريد. قال البيهقي: كأنه ﷺ سئل عن المرأة تسافر ثلاثاً بغير محرم فقال: لا. وسئل عن سفرها يومين بغير محرم، فقال: لا، وسئل عن سفرها يوماً فقال: لا. وكذلك البريد. فأدى كل منهم ما سمعه، وما جاء منها مختلفاً عن رواية واحد فسمعه في مواطن، فروى تارة هذا، وتارة هذا، وكله صحيح. وليس في هذا كله تحديد لأقل ما يقع عليه اسم السفر. ولم يرد ﷺ تحديد أقل ما يسمى سفراً، فالحاصل أن كل ما يسمى سفراً تنهى عنه المرأة بغير زوج أو محرم، سواء كان ثلاثة أيام أو يومين أو يوماً أو بريداً أو غير ذلك. لرواية ابن عباس رضي الله عنهما المطلقة وهي آخر روايات مسلم السابقة: لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم، وهذا يتناول جميع ما يسمى سفراً"[(١)].

وقال ابن عبدالبر: "ويجمع معاني الآثار في هذا الباب، وإن اختلفت ظواهرها، الحظر على المرأة أن تسافر سفراً يخاف عليها الفتنة بغير محرم، قصيراً كان أو طويلاً"[(٢)].

وقال ابن حجر: واستدل به على عدم جواز السفر للمرأة بلا محرم، وهو إجماع في غير الحج والعمرة والخروج من دار الشرك"[(٣)].

وقال النووي: "اعلم أن حقيقة المحرم من النساء التي يجوز النظر إليها والخلوة بها والمسافرة بها، كل من حرم نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها"[(٤)].

وفي العصر الحديث قد تغيرت وسائل المواصلات وأصبحت أسرع وأكثر أماناً وأصبحت تضم جماعات من المسافرين، فنظر بعض العلماء إلى هذه التغيرات ورأى أن العلة في اشتراط المحرم هو توفير الأمان[(٥)]، وأنه يمكن في وسائل المواصلات الحالية

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١٠٩/٩/٥ - ١١٠.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٣٠٥/٢٣، موسوعة شروح الموطأ.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥٦٨/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٤/٩/٥.

(٥) في ذلك يقول ابن هبيرة: إنما اشترط المحرم لحراسة المرأة، لأنه ذو حمية عليها. الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣١/٣.

توفير هذا الأمان، ومن ثم رأى أن الحكم يختلف الآن عما سبق، من هؤلاء د. محمد رواس قعله جي الذي قال: "يجوز للمرأة أن تسافر السفر القصير بغير محرم ولا رفقة. والسفر القصير هو الذي لا يستغرق الوصول إليه فيه بأدوات المواصلات المتاحة في الحال ست ساعات، ولا يجوز لها أن تسافر سفراً هو أبعد من ذلك إلا مع محرم، لقوله ﷺ: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثاً إلا ومعها ذو محرم) ويستثنى من ذلك:

(١) حالات الضرورة حيث يجوز لها أن تسافر وحدها، كالمسافرة المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام إن لم تجد زوجاً ولا محرماً يخرج معها؛ وكمن ضلت زوجها أو محرمها في السفر، ولا بد لها من العودة إلى وطنها.

(٢) إذا انتفت الفتنة، وأمنت المرأة على نفسها وكان السفر سفر طاعة، جاز لها أن تسافر من غير زوج ولا محرم،ولكن لا بد من وجود الرفقة المأمونة، كسفر المرأة للحج، أو لطلب العلم أو لصلة الرحم، ونحو ذلك، وأرى أن السفر مع شركات الطيران، وشركات النقل ذات السمعة الطيبة، سفر مع رفقة مأمونة اليوم إن كان في المسافرين نساء"[(١)].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية:

هذا واضحٌ من قوله ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم)، قال النووي: "هذا استثناء منقطع، لأنه متى كان معها محرم لم تبق خلوة، فتقدير الحديث: لا يقعدن رجل مع امرأة إلا ومعها محرم، وقوله ﷺ: (ومعها ذو محرم)، يحتمل أن يريد محرماً لها ويحتمل أن يريد محرماً لها أو له. وهذا الاحتمال الثاني هو الجاري على قواعد الفقهاء. فإنه لا فرق بين أن يكون معها محرم لها كابنها وأخيها وأمها وأختها،

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٨٨/٢ - ١٠٨٩. وقال عبدالله البسام: "والمسألة موضع اجتهاد بيْن العلماء، فمن رأى عموم النصوص أجراها على ظاهرها ومنع ذلك مطلقاً، ومن رأى المعنى الذي حرم السفر من أجله أباحه في صورة تبعد الشبهة بها، وتخف الريبة حولها، والراجح ما قاله ابن تيمية من الجواز مع وجود الأمن. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٩/٣.

أو يكون محرماً له كأخته، وبنته وعمته وخالته، فيجوز القعود معها في هذه الأحوال، ثم إن الحديث مخصوص أيضاً بالزوج، فإنه لو كان معها زوجها كان كالمحرم وأولى بالجواز. وأما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما، فهو حرام باتفاق العلماء. وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه، لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك فإن وجوده كالعدم، وكذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام، بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب فإن الصحيح جوازه"[١].

وفي رواية عند البخاري: ((ولا يَدخُلُ عليها رجُلٌ إلا ومعَها مَحْرَم))[٢]، قال ابن حجر: "فيه منع الخلوة بالأجنبية وهو إجماع، لكن اختلفوا هل يقوم غير المحرم مقامه في هذا كالنسوة الثقات؟ والصحيح الجواز لضعف التهمة به"[٣].

جاء في الموسوعة الفقهية: "الأجنبية: هي من ليست زوجة ولا محرماً، والمحرم من يحرم نكاحها على التأبيد، إما بالقرابة، أو الرضاعة، أو المصاهرة، ويحرم على الرجل الخلوة بها، والأصل في ذلك قول النبي ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم).

وقد اتفق الفقهاء على أن الخلوة بالأجنبية محرمة، وقالوا: لا يخلون رجل بامرأة ليست منه بمحرم، ولا زوجة، بل أجنبية، لأن الشيطان يوسوس لهما في الخلوة بفعل ما لا يحل، قال ﷺ: ((ألا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، إلاَّ كانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))[٤]"[٥].

رابعاً- من فقه الداعية: ترتيب الأولويات:

هذا واضحٌ من قول الرسول ﷺ للرجل لما قال له: يا رسول الله إن امرأتي حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له النبي ﷺ: انطلق فحج مع امرأتك، قال النووي: "فيه تقديم الأهم من الأمور المتعارضة، لأنه لما تعارض سفره في الغزو وفي الحج

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦/٩/٥ .

(٢) صحيح البخاري ١٦٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧٧/٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢١٦٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٥٨).

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٦٧/١٩.

معها، رجح الحج معها، لأن الغزو يقوم غيره في مقامه عنه بخلاف الحج معها"[١].

وقال ابن حجر: "ويستفاد منه أن الحج في حق مثله أفضل من الجهاد، لأنه اجتمع له مع حج التطوع في حقه تحصيل حج الفرض لامرأته، وكان اجتماع ذلك له أفضل من مجرد الجهاد الذي يحصل المقصود منه بغيره، وفيه مشروعية كتابة الجيش، ونظر الإمام لرعيته بالمصلحة"[٢].

وقال عبدالله البسام: (إن فرض العين مقدم على فرض الكفاية، فالرجل كتب في الجهاد، وهو فرض كفاية، والمحافظة على زوجته فرض عين، فقدمه النبي ﷺ، ففيه دليل على تقديم الأعذار الخاصة اللازمة على فروض الكفايات)[٣].

ومن قبيل ترتيب الداعية للأولويات ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟)) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))[٤].

قال ابن حجر عن هذا الحديث: "فيه أن بر الوالد قد يكون أفضل من الجهاد، وأن المستشار يشير بالنصيحة المحضة، وأن المكلف يستفصل عن الأفضل في أعمال الطاعة ليعمل به؛ لأنه سمع فضل الجهاد فبادر إليه، ثم لم يقنع حتى استأذن فيه فدل على ما هو أفضل منه في حقه. ولولا السؤال ما حصل له العلم بذلك"[٥].

خامساً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا واضحٌ من سؤال الرجل النبي ﷺ: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له ﷺ: (انطلق فحجّ مع امرأتك).

وكان هذا السؤال سبب الجواب الذي دلّ المدعو على ما يفعله، وهو أن يذهب مع امرأته إلى الحج. وهذا الجواب دعوة لغيره من المدعوين أن يفعلوا مثله، إذا كان حالهم

---

(١) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ١١٦/٩/٥، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٧٨/٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٤٣/٦.

(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٧/٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٤٠/٦.

مثل حاله أو شبيهاً به.

سادساً- من أهداف الدعوة: صيانة المجتمع ونشر العفاف والمحافظة على الأعراض:

هذا واضحٌ من تحريم سفر المرأة بدون محرم وتحريم الخلوة بالأجنبية. قال النووي: "قال القاضي عياض[١]: اتفق العلماء على أنه ليس لها أن تخرج في غير الحج والعمرة إلا مع ذي محرم، إلا الهجرة من دار الحرب، فاتفقوا على أن عليها أن تهاجر منها إلى دار الإسلام وإن لم يكن معها محرم، والفرق بينهما أن إقامتها في دار الكفر حرام إذا لم تستطع إظهار الدين، وتخشى على دينها ونفسها، وليس كذلك التأخر عن الحج، فإنهم اختلفوا في الحج هل هو على الفور أم على التراخي؟

قال القاضي عياض[٢]: قال الباجي: هذا عندي في الشابة، وأما الكبيرة غير المشتهاة فتسافر كيف شاءت في كل الأسفار بلا زوج ولا محرم. وهذا الذي قاله الباجي لا يوافق عليه، لأن المرأة مظنة الطمع فيها ومظنة الشهوة ولو كانت كبيرة، وقد قالوا: لكل ساقطة لاقطة، ويجتمع في الأسفار من سفهاء الناس وسقطهم من لا يرتفع عن الفاحشة بالعجوز وغيرها، لغلبة شهوته وقلة دينه ومروءته وخيانته ونحو ذلك"[٣].

أما عن تحريم الخلوة فقال النووي: "قال أصحابنا: ولا فرق في تحريم الخلوة حيث حرمناها بين الخلوة في صلاة أو غيرها، ويستثنى من هذا كله مواضع الضرورة، بأن يجد امرأة أجنبية منقطعة في الطريق أو نحو ذلك فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا اختلاف فيه، ويدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك"[٤])[٥].

كل هذا وغيره يجعل المجتمع المسلم (مصونة فيه الأعراض، منتشر فيه العفاف

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤/٤٤٥.

(٢) المرجع السابق ٤/٤٤٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/٩/١١٢ - ١١٣، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٤/٧٦.

(٤) قصة الإفك أخرجها البخاري ٤١٤١، ومسلم ٢٧٧٠.

(٥) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي ٥/٩/١١٦.

مصونة فيه الأخلاق، ولذا فإن ما يدندن حوله كثير من الناس في هذا العصر من الدعوة إلى قدر أكبر من حرية الفرد السلوكية والاجتماعية، ينبغي أن يكون مقيداً بالبداهة بضوابط الشريعة وحدودها وآدابها، فلا يقبل أي نظام عاقل أن ينفلت الإنسان في المجتمع بلا ضوابط ولا حدود، فيعتدي على عقيدة الأمة وقيمها، ومقوماتها بدعوى ممارسة الحرية الشخصية"[(١)].

ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية لها مقاصد، وهي غايات التشريع ومراميه وأهدافه.

وأنواع المقاصد بحسب الضرورة إليها وعدمها ثلاثة:

(المقاصد الضرورية، المقاصد الحاجية، المقاصد التحسينية).

١ - المقاصد الضرورية:

وهي المقاصد التي لا بد منها لكي يقوم نظام الحياة ويصلح حال الناس. ومثالها: إقامة الدين، وحفظ الناس في نفوسهم وعقولهم وحفظ النظام، وقمع البغي والاعتداء، وإقامة الأعمال والصناعات والحرف، وبناء المستشفيات وتكوين الأطباء وتوفير الغذاء والعلاج.

فالمقاصد الضرورية هي المقاصد الأساسية اللازمة التي يجب إيجادها وإعمالها؛ لأنها في حال عدمها وغيابها، يفسد نظام الحياة، وتتعطل مصالح الناس ومعاملاتهم.

والمقاصد الضرورية في الإسلام تُعرف بالمقاصد الضرورية الخمس، أو الكليات

---

(١) ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعية، د. عبدالمجيد البيانوني ص ٢١٤.

- وقال عبدالله البسام: (إذا تأملت حال المسلمين الآن بنسائهم من التبرج والعري ومزاحمة الرجال والخلوات المحرمة معهم وصحبتهم في الأسفار البعيدة وغير ذلك من العادات التي يندى لها الجبين، علمت بعد المسلمين عن دينهم وعدم مراعاتهم حرماته. وفي مثل هذه الآداب الكريمة والأخلاق العالية المحافظة على الكرامة والصيانة للشرف والعرض وحفظ الأنساب والأعراف وهو مظهر كريم وتكريم للمرأة وتطهير لها من الأدناس. أما الخلاعة والمجون والإباحية فهي الرجعية إلى عهد الوحشية والبهيمية التي لا تعرف نظاماً ولا قانوناً ولا حياءً ولا عفة. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله بن عبدالرحمن البسام ٢٦٦/٣ - ٢٦٧.

الشرعية الخمس، منها:

حفظ النسل والنسب والعرض:

معنى حفظ النسل: المحافظة على بقاء النوع الإنساني عن طريق التناسل.

معنى حفظ النسب: تحقيق التناسل الذي تُعلم نسبته إلى أصله الشرعي.

ومعنى حفظ العرض: تحقيق العفة والكرامة، وعدم التعرض إلى شرف الغير.

ومعنى المقصد في الجملة: المحافظة على التناسل والتوالد عن طريق الزواج الشرعي، وعدم التعرض إلى شرف الغير وكرامته، سواء بالنظر أو المس أو الاختلاء أو الخضوع بالقول أو ما شابه ذلك.

ولأجل تحقيق هذا المقصد شرعت عدة أحكام، منها:

- الحث على الزواج والتناسل والتوالد عن طريق الزواج الشرعي.
- تحريم الزنا، ومعاقبة الزاني.
- تحريم السحاق واللواط، وتحريم مختلف صور الشذوذ الجنسي.
- تحريم الخلوة بالأجنبية.
- تحريم النظر إلى الأجنبية بقصد الشهوة والتلذذ.
- تحريم النظر أو الاستماع إلى الأفلام الجنسية.
- تحريم استخدام الإنترنت للتحرش الجنسي وتبادل الإثارات والعبارات الجنسية.
- تحريم النظر إلى الصور الخليعة ومظاهر العراء والسفور[1].

---

(١) تعليم علم الأصول، د. نور الدين مختار الخادمي ص ٤١٧ - ٤٢٥.

الحديث رقم (٩٩١)

٩٩١- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ، يقول: ((**لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلاَ تُسَافِرُ المَرْأةُ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**)) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ[١]: يَا رسولَ الله، إنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: ((**انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ**)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

اكْتُتِبْتُ: كتبت نفسي في أسماء من عيّن لتلك الغزوة[٣].

الشرح الأدبي

قوَّم الرسول ﷺ خطأ الخلوة بالأجنبية، وألزم الرجل بالحفاظ على زوجه وعدم تركها تسافر سفراً طويلاً بمفردها مما يعرضها للخطر، وهي المنوطة بشرف الأسرة، وتربية النشأ، وهي نصف المجتمع، وميل الرجل للمرأة ميل فطرى فإذا ما خليا كان الشيطان ثالثهما يحرك في نفس كل منهما هذا الميل الفطرى ليوقعهما في الخطيئة، وقد جاء أسلوب الرسول ﷺ قاطعاً يتساوق مع حجم الخطر فاستخدم عدة أساليب بلاغة منها: أسلوب النهي: وقد استخدمه الرسول ﷺ تقويماً لخطأ الخلوة بالأجنبية حفاظاً على طهارة الأمة، ونقائها في أول حلقاتها، وهي الأسرة الممثلة في المرأة التي تنجب، وتربى الجيل المسلم، والتهاون فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة تهاون مهلك يدمر الأسرة، ويفتت كيانها؛لأن المسألة فيها بعد نفسي فطرى لميل الرجل للمرأة، وميل المرأة للرجل، ولذلك نجد الرسول ﷺ يصوغ الفعل في صورته المضارعية التي

---

(١) لفظ مسلم: (فقام رجل فقال).

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٠٦، ومسلم واللفظ له ١٣٤١/٤٢٤. أورده المنذري في ترغيبه ٢٨٥٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٩٢/٤.

تساعد على استحضار صورة المختليان تحفهما الريبة، وتحوم حولهما الشكوك، ويصيران مثاراً للظن السيء، لذلك أكد الفعل (يخلون) بنون التوكيد تأكيداً على النهي، وسيراً على نبرة الأسلوب العالي النبرة في تقويم خطأ يمسُّ العرض، والكيان الاجتماعي ممثلاً في نواته الأولى، وهي الأسرة المسلمة ممثلة في ربَّتها الطاهرة المصون، ومنها أيضاً: أسلوب القصر: وقد جاء في إطار تقويم الخطأ، والنهي عن الخلوة بالأجنبية في قوله ﷺ (لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم) حيث قصر خلوة الرجل بالمرأة على ذات المحرم دون غيرها قصر صفة على موصوف إشارة إلى أنه لا يجب التهاون في أمر الخلوة، لأن الأنفس البشرية بطبيعتها ضعيفة أمام الشهوات لما هو مركوز في الطباع من ميل كل جنس إلى الآخر لذلك نهي الرسول ﷺ عن السبب الذي يمكن أن يضع الإنسان في هذا الوضع حيث لا تؤمن العاقبة، لذلك جاء أسلوب القصر لينفي خلوة الرجل بالمرأة مطلقاً، ويقصرها على ذات المحرم حيث تؤمن الفتنة، ومنها: الأمر المستخدم في تقويم الخطأ جاء رداً على الرجل الذي ترك زوجته تحج بمفردها فجاء أمر الرسول ﷺ (ارجع فحج مع امرأتك) رداً للأمور إلى نصابها، حتى لا تتعرض المرأة، وهي الضعيفة بطبيعتها للفتن فجاء أمره (ارجع) تدعيماً للنهي السابق، وتأكيداً لمعنى النهي عن الخلوة؛ لأن ترك المرأة تسافر بمفردها فيه معنى تخليتها الأمر الذي يهددها بالخطر.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الشرح التربوي في أحاديث الباب

أولاً- التربية الوقائية:

خلق الله الإنسان، وجعل فيه نوازع الخير ونوازع الشر، وذلك لاختباره، هل يشكر أم يكفر، ومن رحمة الله بعباده أن وجههم إلى ما يحول بينهم وبين وقوع الشر من خلال سد الذرائع المؤدية إليه، وليس ذلك من باب تقييد حرية الإنسان وشل حركته في الحياة وإنما تهذيب له وتزكية وترقية لأن يكون الإنسان الحق الذي يكون كما أراده الله عز وجل.

ومن هذا المنطلق فإن الرسول الكريم ﷺ نهى عن أن تسافر المرأة بدون محرم أو يخلو بها رجل إلا ومعها محرم لها، وذلك سدًّا لباب الوقوع في كبيرة الزنا، وانتهاك الأعراض ولما يترتب على ذلك من شيوع المنكرات والفواحش والأمراض الفتاكة.

إن التربية القائمة على إتاحة الفرصة لأن يجرب المربي كل شيء حتى يحكم عليه بالإيجاب أو السلب، تربية أثبتت فشلها الذريع، وخير دليل على ذلك أن البلاد التي تسمح قوانينها بتعاطي المخدرات وشرب الخمر تعاني الأمرين من الإدمان وآثاره المدمرة على الفرد والمجتمع، مما دفع الحكماء منهم إلى المناداة بمنعها وتجريم تعاطيها [1].

وكذلك المجتمعات الغربية التي استشرت فيها الفوضى والإباحية الجنسية، التي تمخض عنها الشذوذ الجنسي فضلاً عن الأمراض الفتاكة من الايدز وغيره؛ مما جعلها تئن وتكتوي بنار الإباحية والاختلاط المطلق.

غير أن التربية الإسلامية تعمل على الحيلولة دون وقوع تلك الجرائم والتردي في تلك المستنقعات الأخلاقية، وذلك من خلال التربية الوقائية التي تحول دون سفر المرأة بمفردها تلك الأسفار التي لا يؤمن على المرأة فيها إلا من خلال محرم، أو غير ذلك من الأمور التي يمكن أن تكون نافذة على الشر.

---

(١) انظر: محاضرات ودراسات في أصول التربية الإسلامية، د. محمد علي عزب ص ١٩٢-١٩٤، وأصول التربية الإسلامية، د. خالد بن حامد الحازمي.

ثانياً- تربية الناشئة على الإيمان بالله وخشيته:

إن الرسول الكريم ﷺ عندما أراد أن ينهي المرأة عن السفر وحدها، ذكرها بأنها: "تؤمن بالله واليوم الآخر"، وفي هذا -فيما نرى- حث لها على الامتثال والإذعان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تحذير لها من ارتكاب هذا النهي، لأن في ذلك إخلالاً بمقتضيات الإيمان وكمالاته، ومما لا جدال فيه أن امرأة مؤمنة بربها ومصدقة بالحساب والجزاء يوم القيامة لا تستطيع أن تجرؤ على فعل ما نهاها عنه رسول رب العالمين ﷺ.

ومن هذا المنطلق فإن على المربين أن يربوا الناشئة على الإيمان بالله والعمل بمقتضيات هذا الإيمان ولوازمه، لأن ذلك هو الأساس الذي تقوم عليه التربية، فإن كان راسخًا قوياً أتت التربية بثمارها الطيبة وجناها الزكي، وإلا حصد المجتمع أسوأ النتائج وأوخم العواقب.

ولعل مكث النبي ﷺ بمكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً يغرس في نفوس أتباعه الإيمان بالله، يفسر لنا أهمية هذا الأساس وعظم تأثيره. فلمّا هاجر إلى المدينة، سرعان ما أقام دولته التي برز فيها كثير ممن ربّاهم ﷺ في مكة.

إن كثيراً من الدول المعاصرة تعاني من أمرين متناقضين: الأمر الأول: كثرة القوانين التي تعاقب على كثير من المخالفات، والأمر الآخر: كثرة الاجتراء على هذه القوانين وكثرة التحايل على تكسيرها، والالتفاف عليها، بحيث تفرغ من مضمونها وأثرها، فتصبح عديمة الجدوى والقيمة.

والسبب في هذه المعاناة عدم الإيمان بفائدة هذه القوانين، والنظر إليها أنها قيد يجوز التخلص منه. على حين يختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً لو نُظر إليها أنها ذات فائدة قصوى للأفراد والمجتمع، وقبل هذا الاعتقاد الخالص فيها، وهذا إذا توافر فيها العدل والإنصاف، والبعد عما يغضب الله عز وجل ورسوله ﷺ[1].

---

(١) وانظر: الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله بن ناصر التركي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية ص ٢٤٩ وما بعدها، والمنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد ص ١٨٤ وما بعدها.

وهناك لفتة تربوية عظيمة ينبغي أن يُفاد منها في مجال التربية الإسلامية، وذلك عند التوجيه لأمر مهم: ينبغي أن تستثار النخوة والغير الإيمانية في نفوس المؤمنين والمؤمنات، ولعل ذلك يستوحي من قول النبي ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤمِنُ باللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَومٍ وَلَيْلَةٍ، إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ». ولا شك أن هذا الوصف بالإيمان بالله واليوم الآخر يثير في النفس غيرة، ويجعل المؤمن والمؤمنة على حياء وخجل، أن يأتي الأفعال أو السلوكيات المتنافية مع مقتضى هذا الإيمان، ولذا فإن الله تعالى ربى المؤمنين من خلال مخاطبتهم بهذا الوصف في نهيهم عن بعض المخالفات، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

ثالثاً- تربية الناشئة على ملء أوقاتهم بالعمل النافع:

إن مما يلاحظ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الرجل أخبر عن زوجته أنها خرجت حَاجَّةً، وأنه هو نفسه اكتتب في غزوة كذا وكذا: فالمرأة خرجت من بيتها تقصد بيت الله الحرام لأداء الحج الذي هو أحد أركان الإسلام، زيادة على أنه أفضل الجهاد للنساء[2]، كما أن زوجها اكتتب في غزوة كذا وكذا، ليخرج يجاهد في سبيل الله.

وهذه المرأة ستزداد عن طريق الحج المبرور تزكيةً وصفاءً وخشوعاً وخضوعاً وإقبالاً على الطاعات، كما أن زوجها سيزيده الجهاد ثباتاً ورسوخاً وقوة إيمانية تجعله يبذل الغالي والنفيس من أجل دين الله إن ظل حياً، أما إن استشهد فسيكون في الدرجات العليا من الجنة مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

والمقصود مما سبق أن المسلمين رجالاً ونساءً، هم أولى الناس بشغل أوقاتهم بالعمل

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٢) أخرج البخاري ١٥٢٠، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور"، وفي رواية عند البخاري، ١٨٦١ فقالت عائشة: "فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ".

النافع لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهم أبعد الناس عن تضييع أوقاتهم الثمينة فيما لا يفيد ولا ينفع، ودعك فيما يضر ويصيب بالخسران الأليم.

وعلى ذلك فإن الناشئة يجب أن يربوا على الاستغلال الأمثل لأوقاتهم حتى يكون يومهم خيراً من أمسهم، وغدهم خيراً من يومهم، إنهم يجب أن يربوا على أن الحياة فرصة ثمينة جداً لا يجوز أن يُضيَّع جزء منها بدون فائدة دينية أو دنيوية.

وإن إهمال تربية الناشئة على ما سبق: ينتج عنه ضياع الأعمار والأزمان وأفضل الأوقات هدرا وسدىً. وإن نظرة عابرة على ما يشغل قطاعًا عريضًا من النساء المسلمات ليؤكد هوان قيمة الوقت في حياتهن، فتجدهن مولعات بتتبع صيحات الموضة وما يستجد فيها، وما يتعلق بذلك من أدوات الزينة والتجميل، فضلاً عن إنفاق الساعات الطوال في متابعة القنوات الفضائية أو في الحديث مع القرينات والصاحبات والزميلات. وما حال الرجال بأفضل من حال النساء[1].

رابعاً- تربية الناشئة على فعل الأهم والأولى:

إن قول النبي ﷺ للرجل بعد ما أخبره أنه قد اكتتب في غزوة كذا وكذا: "انطلق فحج مع امرأتك"، دليل على أنه يجب تربية الناشئة على فعل الأهم والأولى وترك العمل بالأقل أهمية والأقل في الرتبة والدرجة، فإذا كان الجهاد له من الفضل العظيم، إلا أن غير هذا الرجل قد يقوم به، أما مرافقة الزوجة في حجها فلا يقوم بذلك إلا هو، لذا أمره النبي ﷺ بذلك.

وعلى ذلك يجب أن يتربى الناشئة، فيقدمون عند تزاحم الواجبات والفضائل أو تعارضها أهمها وأعلاها وأفضلها، فلا يضيعون واجباً بسبب انشغالهم بما ليس بواجب، أو يفرطون في واجب أهم، لأنهم قد انهمكوا في واجب مهم.

كما يجب أن يتربى الناشئة على فعل واجب الوقت الذي يكون في وقته هو الأهم

---

(١) انظر: الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، ط/١، مؤسسة الرسالة: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، و قيمة الزمن عند العلماء، عبدالفتاح أبو غدة، ط/٤، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، وإدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة.

والأولى، بحيث لو أنه فعل قبل وقته أو بعده تخلفت عنه نتائجه المرجوة وثماره المتوقعة، فكما أن هناك عملاً بالنهار لا يحسن تأخيره إلى الليل، فهناك عمل بالليل لا يليق أن يؤخر إلى النهار، وهكذا الإنسان في مراحل حياته المختلفة وأيامه المتتابعة، فهناك أعمال تؤدى في أوقات الشباب والحيوية، يقبح أن تؤخر إلى ما بعد ذلك، وهناك أعمال لا يجوز تأخيرها عن أوقاتها الملحة والضرورية كالإنفاق وقت الشدة والعسر.

ومن الجدير بالذكر أن ترتيب الأولويات يدخل في جميع نواحي حياة الإنسان، وليس أدلّ على ذلك من الشراء، فإن أصحاب الدخل المحدود لو حددوا أولويات مشترياتهم لخف عنهم كثيرٌ مما يعانون من القلق والهم والكدر بسبب التوسع في الشراء والاستهلاك[1].

خامسًا- من الأساليب التربوية:

ورد في حديث الباب أسلوبان تربويان هما:

أ- الإلقاء: كما في قوله ﷺ: "لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي مَحْرم عليها".

وأسلوب الإلقاء من الأساليب التدريسية التي يمكن للمعلم استخدامها مع المتعلمين الكبار من خلال عرض بعض المعلومات الشفوية عليهم.

ب- المناقشة والحوار: كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأسلوب المناقشة والحوار يتيح للمتعلم بأن يعبر عما بداخله وعن أفكاره وآرائه في جوّ مشجع محفز، فيتحقق الاقتناع العقلي ويزداد المتعلم واقعية نحو التعلم، وذلك لأنه ينقله إلى المشاركة الفعالة والإيجابية في العملية التعليمية.



(١) انظر: إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة ص ٣٦٩-٣٧٩.